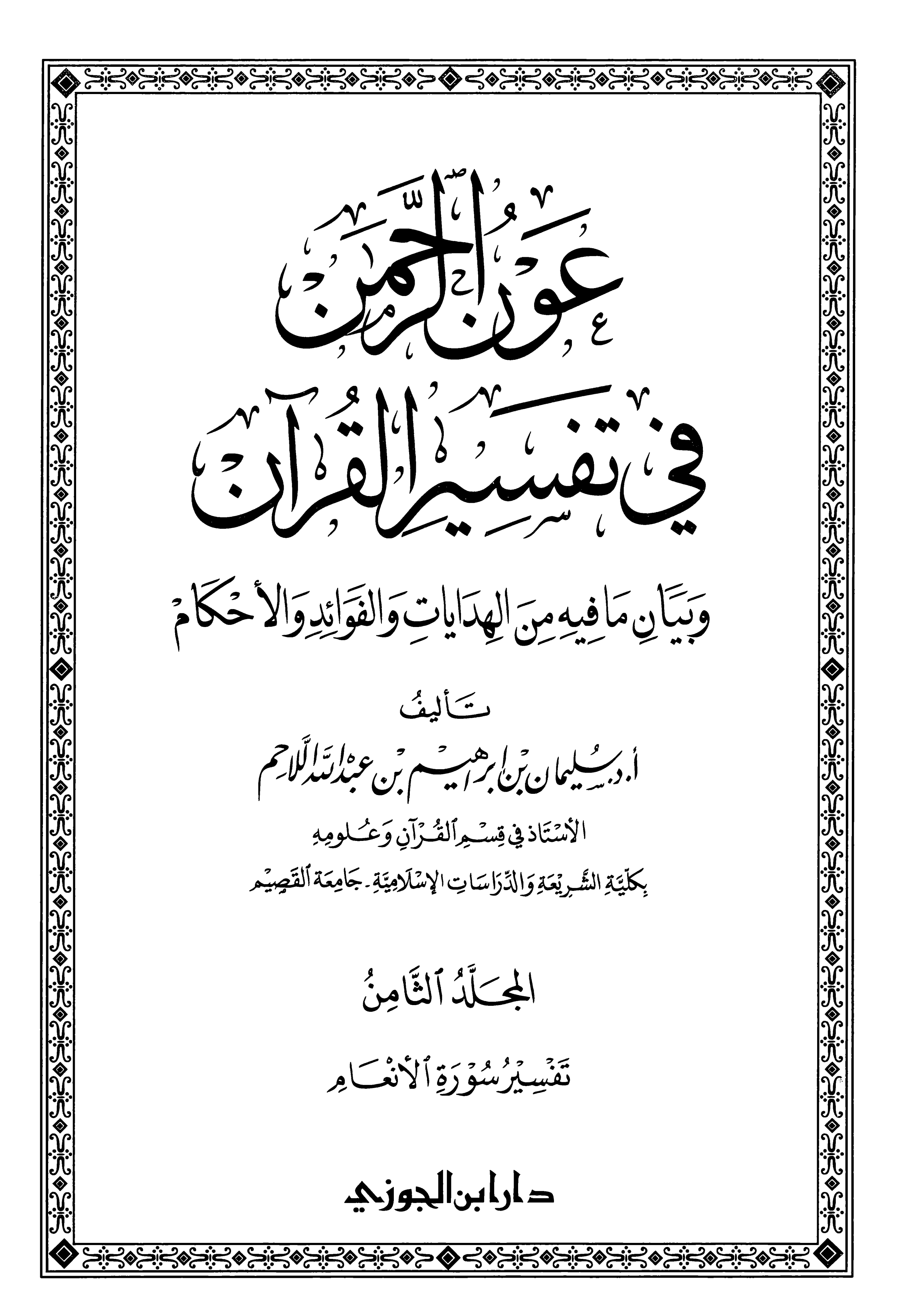


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

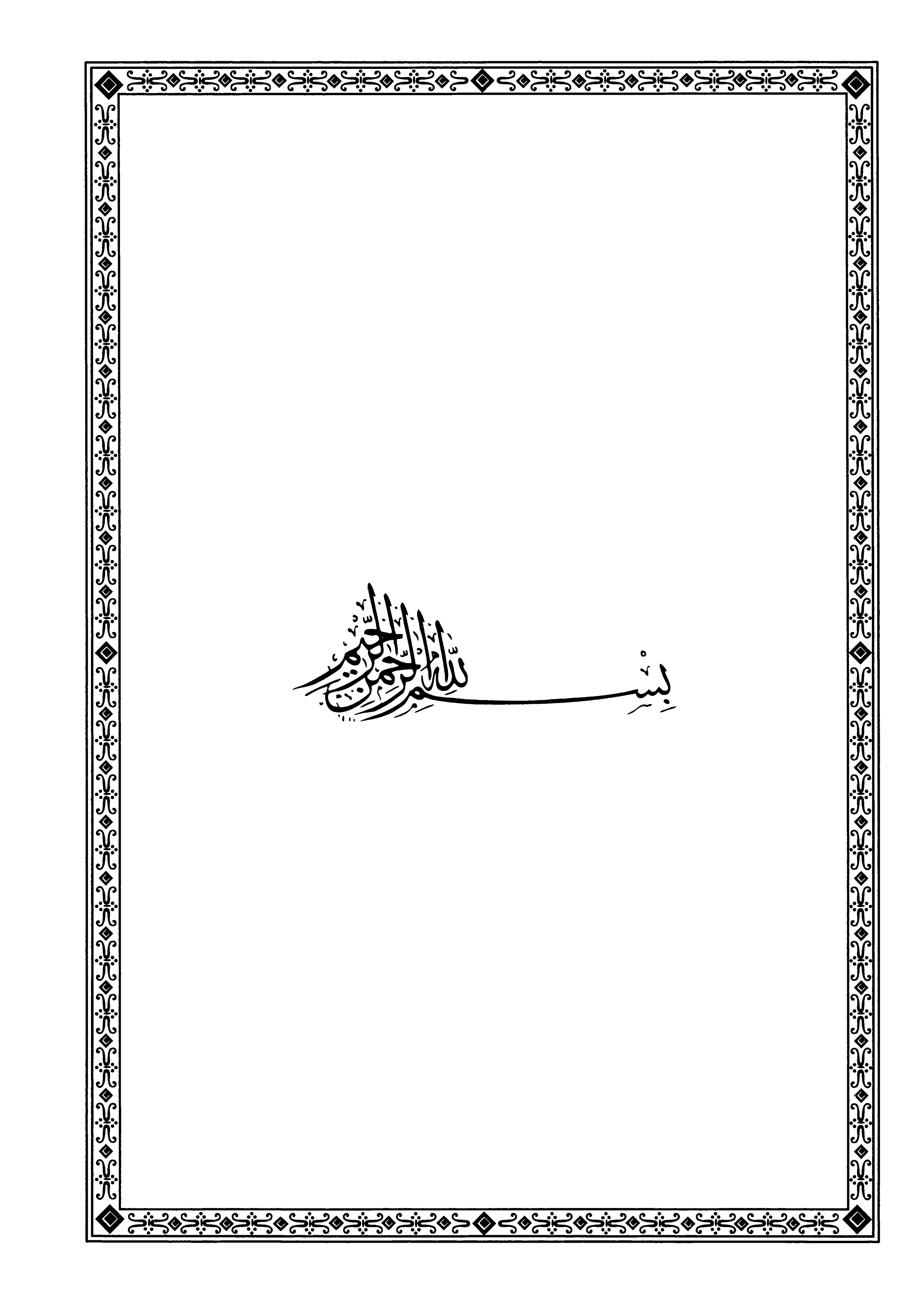
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

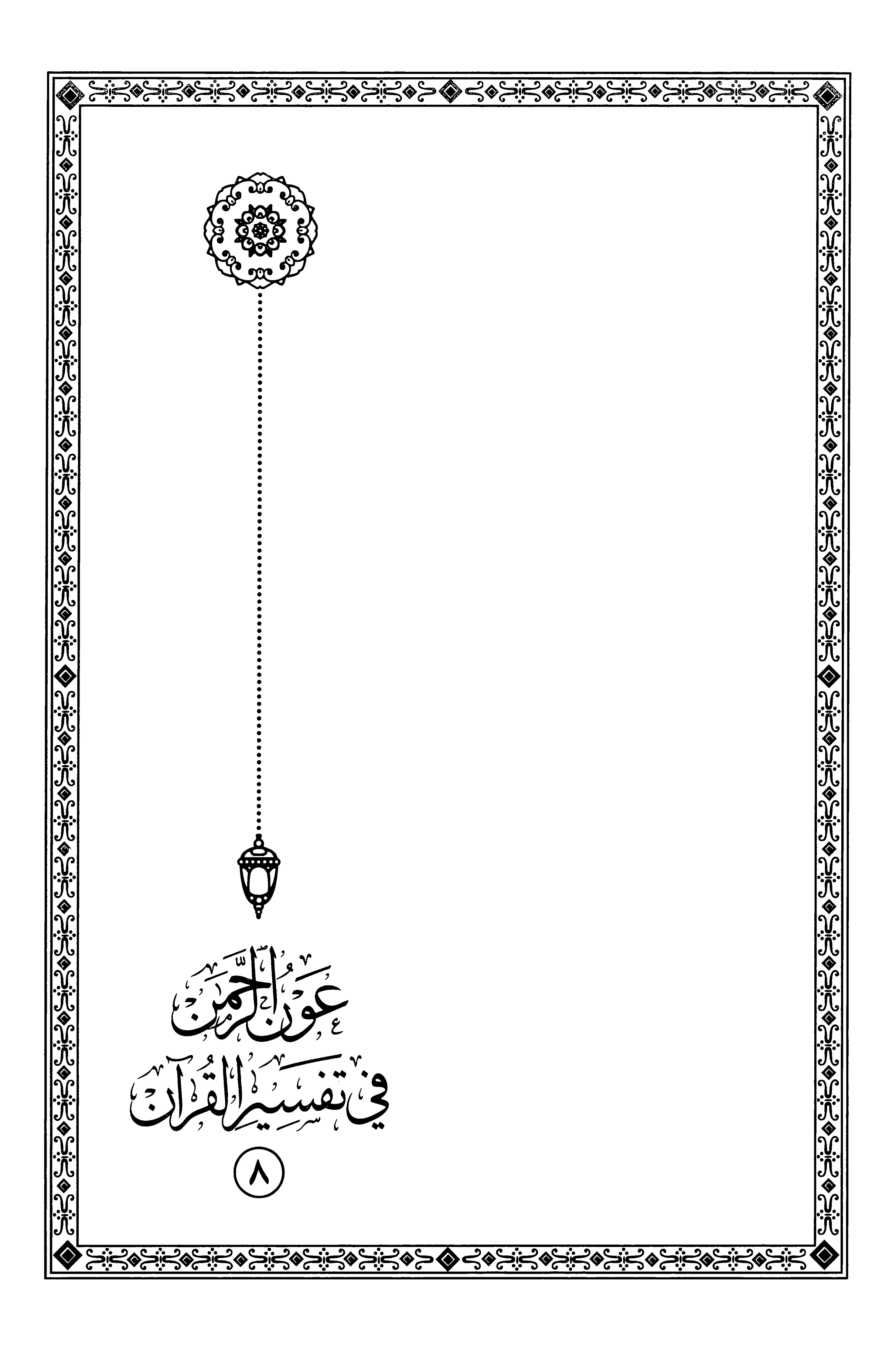
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثامن

تفسير سورة الأنعام

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم


عون الرحمن
في تفسير القرآن
٨



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

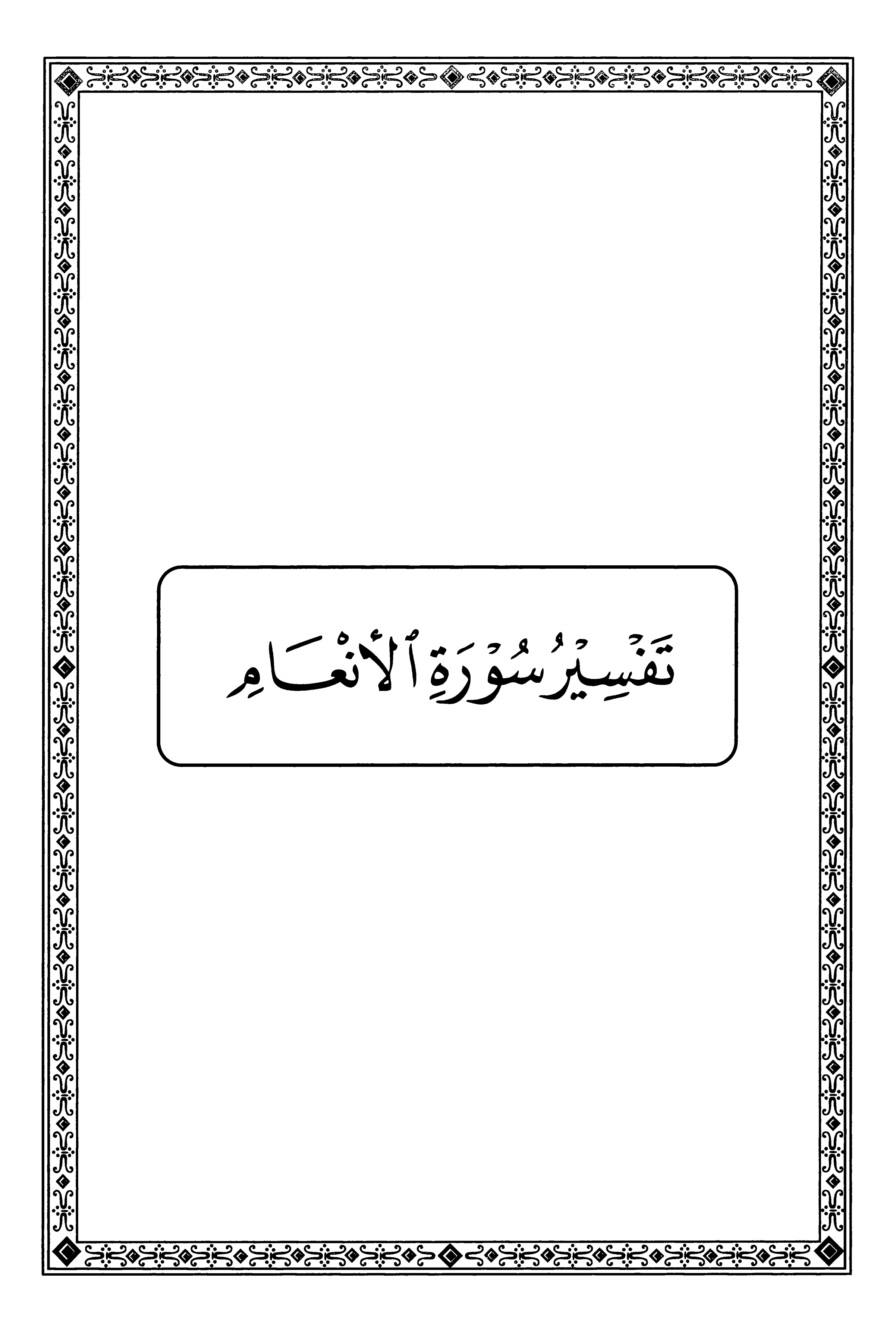
مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

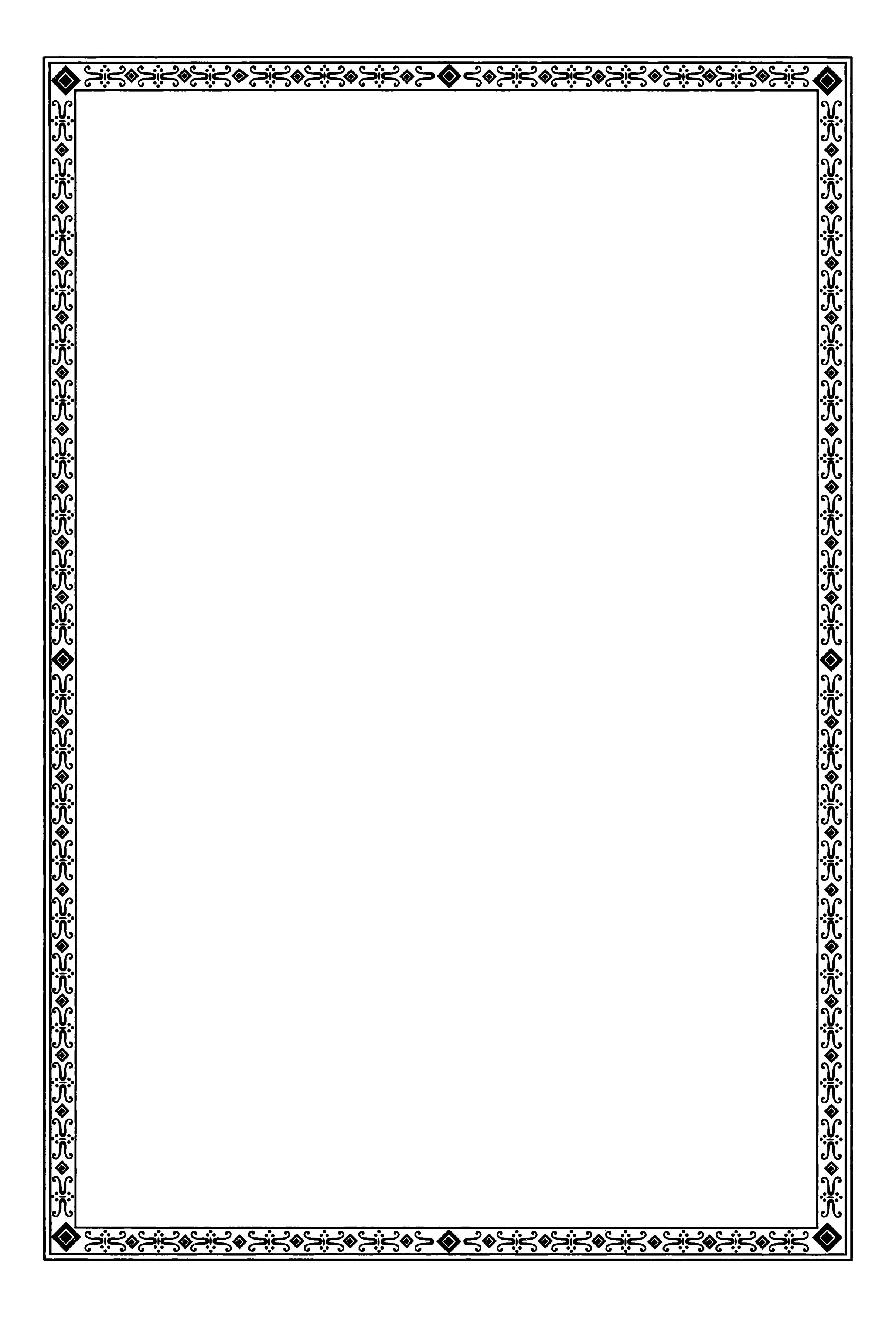
ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ
٤٧٣ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958



تَفْسِيرُ سُورَةِ الأنْعَامِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الأنعام»؛ لأنها فصلت الكلام على الأنعام، وهي: الإبل والبقر والضأن والمعز، وتكرر فيها اسم «الأنعام» ست مرات في أربع آيات، فيها بيان تصرف المشركين فيها بالتحليل والتحريم ونحو ذلك، بالباطل وعلى غير هدى من الله، وبيان حكم الله فيها.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة الأنعام بمكة في قول جمهور المفسرين، مستدلين بما يلي:

أ- الآثار الواردة عن السلف في ذلك، منها ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لقد نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة واحدة، وحولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«نزلت عليّ سورة الأنعام جملةً واحدةً، وشيّعها سبعون ألفًا من الملائكة، لهم زجلٌ بالتّسبيح والتّحميد»**(٢).

ب- أن آيات سورة الأنعام فيها سمات آيات السور المكية واضحة جلية، فهي تتكلم عن وحدانية الله تعالى وعظمته ومظاهر قدرته في الكون، وعن صدق النبي ﷺ في دعوته، وعن إثبات البعث، إلى غير ذلك من المقاصد التي تركز عليها السور المكية.

وكان نزولها- والله أعلم- بعد سورة الحجر، أي بعد الجهر بالدعوة، وكانت الدعوة سرًّا خلال ثلاث سنوات من البعثة، حتى نزل قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤]، فجهر ﷺ بالدعوة، وعلى هذا فيحتمل أن نزول سورة الأنعام في السنة الرابعة من البعثة، والله أعلم.

وقد قيل: إن منها آيات مدنية. واختلفوا في تحديدها. والأظهر- والله أعلم- أن

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٣٣، ٢٣٤).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ١٤٥ رقم ٢٢٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٤٤).

السورة كلها مكية.

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله– في مقدمة تفسيره سورة «يس»[1]: «الأصل أن السورة المكية مكية كلها، وأن السورة المدنية مدنية كلها، فمن ادعى استثناء آية أو آيتين أو أكثر، فعليه الدليل. أما مجرد أن المعنى يليق بأهل المدينة في آية مثلًا، فهذا لا يكفي في الاستثناء؛ لأن الله تعالى يذكر معنى يليق بأهل المدينة توطئة وتمهيدًا، حتى يكون الناس على بصيرة؛ ولهذا يذكر الله في الآيات المكية قصص موسى عليه الصلاة والسلام، مع أن العناية بقصص موسى في المدينة أولى؛ لأن فيها اليهود، أما مكة فليس فيها يهود. فبعض العلماء إذا نظر إلى أن المعنى يليق بالسور المدينة أو بالأحكام المدنية ذهب يستثني، ويقول: إلا آية كذا، إلا آية كذا. وهذا غير مسلَّم».

ج- موضوعاتها:

عنيت سورة الأنعام كغيرها من السور المكية بتثبيت العقيدة الصحيحة، والاحتجاج لأصول الدين، وتفنيد شبه الملحدين والمكذبين، وإبطال العقائد الفاسدة، وتقرير وإثبات مبادئ الدعوة الإسلامية الفاضلة؛ ولهذا ركزت على الحقائق التالية:

أ) إثبات ربوبية الله تعالى وإلهيته وأسمائه وصفاته وعظمته، وكمال قدرته، وتمام نعمته، واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له، وذم الشرك وأهله، وبيان سوء اختيارهم وسوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة.

ب) إثبات صدق رسالة النبي ﷺ، وما جاء به من الوحي من عند الله تعالى.

ج) إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

وقد حشدت السورة لهذا الكثير من الأدلة الكونية والبراهين العقلية والحجج، مما لا يدع مجالا للشك في ثبوت هذه الحقائق، وفندت الشبهات التي أثارها المشركون والمكذبون حولها، ولعل هذا هو الحكمة في نزولها جملة واحدة؛ كما قال المفسرون.

ولهذا فهي أجمع سور القرآن في ذكر أحوال العرب، وأشدها مجادلة ومقارعة لهم ودلالة على سفاهة عقولهم، من قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ [الأنعام: ١٣٦] والآيات بعدها.

(١) (ص٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾»[1].

أما موضوعاتها على التفصيل، فهي كما يلي:

١- حمد الله تعالى والثناء عليه، لكونه الخالق العظيم الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وخلق البشر من طين وقضى أجلا مسمى عنده، وهو إله أهل السموات وأهل الأرض. يعلم سر الخلق وجهرهم ويعلم ما يكسبون.

٢- بيان شدة عتو المكذبين وعنادهم وإعراضهم مع وضوح الدلائل على وحدانيته عز وجل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾، ثم توعدهم بما حل بالمكذبين قبلهم ممن مكنوا في الأرض أكثر منهم، فقال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾.

وضرب صورة تبين شدة عتوهم ومكابرتهم في عدم قبولهم للحق، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

وذكر اقتراحهم أن لو أنزل على الرسول ملك، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾.

ثم ذكر ما حصل من المكذبين من الاستهزاء بالرسل قبله ﷺ، وإهلاكهم بسبب ذلك، وفي هذا تسلية له ﷺ وتخويف للمكذبين من قومه وتحذير لهم؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٢٤).

٣- ثم ساقت السورة عددا من الأدلة والبراهين على وحدانية الله عز وجل وقدرته التامة على بعث الناس وجمعهم ليوم القيامة، منها: بيان سعة ملكه، واختصاصه بها في السموات والأرض، وأن له ما سكن في الليل والنهار، والإنكار على من يتخذ من دون الله وليا، والترغيب في الإسلام، والنهي عن الشرك، والتحذير من عذاب يوم عظيم، والوعد بالرحمة والفوز المبين، وبيان اختصاصه عز وجل بكشف الضر وجلب الخير، وقدرته على كل شيء، وقهره فوق عباده، وشهادته عز وجل- وهي أكبر شهادة- على تفرده بالإلهية، وعلى صدق رسوله ﷺ فيما جاء به من القرآن، وشهادته ﷺ أن الله عز وجل إله واحد، وبراءته مما يشركون، وبيان معرفة أهل الكتاب بذلك كما يعرفون أبناءهم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾، وبيان أنه لا أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

٤- ثم ذكرت السورة حال المشركين يوم القيامة حين يسألون عن شركائهم فينكرون أنهم كانوا مشركين، فيكذبون على أنفسهم ويضل عنهم ما كانوا يفترون.

وذكرت حالهم حين يوقفون على النار، وشدة حسرتهم وندمهم، وتمنيهم الرد ليؤمنوا، حين يظهر لهم ما كانوا يخفون، وبيان أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون.

ثم أتبعت ذلك بذكر حالهم حين يوقفون على ربهم فيقول لهم: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ فيقولون: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ فيقول عز وجل: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وقد تخلل ذلك ذكر الأمر الذي أدى بهم إلى ذلك، وهو كون قلوبهم في أكنة عن فهم القرآن، وفي أسماعهم وقر، وتكذيبهم لكل آية، ومجادلتهم بالباطل، وقولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾، ونهيهم عن اتباع الحق، ونأيهم بأنفسهم عنه، وإنكارهم البعث.

ثم بين عز وجل خسارة من كذبوا بلقائه، وحسرتهم وندامتهم على تفريطهم، وحملهم أوزارهم على ظهورهم ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾.

ثم بين حقارة الدنيا وأنها مجرد لعب ولهو: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

٥- ثم أخذت السورة في تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه تجاه تكذيب قومه وعنادهم،

وحزنه على ذلك. وبيان أنهم في الحقيقة لا يكذبونه، ولكنهم لظلمهم بآيات الله يجحدون، وإخباره بما حصل من التكذيب للرسل من قبله، وصبرهم على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله الذي وعد به رسله والمؤمنين.

وحثه على الصبر، وألا يشق عليه إعراض قومه مشقة تجعل نفسه تذهب عليهم حسرات، فليس بيده هدايتهم، وإنما ذلك إلى الله تعالى.

ثم بينت السورة أنه إنما يستجيب للآيات الذين يسمعون وينتفعون بما يسمعون، وما عداهم موتى مردهم إلى الله تعالى، فيخبرهم بأعمالهم ويجازيهم عليها.

وذكرت اقتراحهم أن ينزل عليه آية من ربه، ولله القدرة التامة على ذلك، وله الحكمة فيما ينزل، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

٦- بيان سعة علمه عز وجل واطلاعه وإحاطته بجميع المخلوقات؛ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

٧- تلا ذلك ذم المكذبين وبيان سوء اختيارهم، وما هم فيه من التخبط والجهل، وإخبارهم بتغير نظرتهم عند ظهور الحقيقة بمشاهدة العذاب وقيام الساعة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

٨- ثم بين أخذه عز وجل للمكذبين من الأمم السابقة بالبأساء والضراء؛ لعلهم يتضرعون، وقسوة قلوبهم مع ذلك، وتزيين الشيطان لهم أعمالهم، ونسيانهم ما ذكروا به، ومن ثم استدراجهم بفتح أبواب كل شيء عليهم، وفرحهم بما أوتوا، ثم أخذهم بغتة فإذا هم مبلسون، وقطع دابرهم.

٩- تخويف المكذبين بسلب ما أعطاهم الله من نعمة السمع والبصر والقلوب، فمن إله غير الله يأتيهم بذلك؟ وتخويفهم من إتيان عذاب الله بغتة أو جهرة وإهلاكهم.

١٠- بيان أن مهمة الرسل- عليهم الصلاة والسلام- البشارة للمؤمنين، والإنذار للمكذبين، والوعد لمن آمنوا بأنْ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والوعيد لمن كذبوا

بالعذاب بما كانوا يفسقون، وأمره ﷺ أن يبين لهم ما ليس من شأنه، ويبين مهمته، وكيف يتعامل مع من يدعوهم، فلا يقول لهم: ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

وأن ينذر بهذا الوحي ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الآة: ٥١]، ولا يطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، يريدون وجهه، وبيان أنه ليس عليه من حسابهم من شيء، وما من حسابه عليهم من شيء.

وبيان افتتان المكذبين بمن آمنوا، حيث يقول المكذبون- حسدًا وكبرًا- للمؤمنين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ .

وأمره ﷺ إذا جاءه الذين يؤمنون بآيات الله بالسلام عليهم، والبشارة لهم بقوله: ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ .

وبيان تفصيل الآيات؛ لتتضح طريق المجرمين؛ لتقوم عليهم الحجة، وليحذرها من يحذرها.

وأمره ﷺ أن يقول: ﴿إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾، أي: إن اتبعت أهواءكم.

وأن يقول: ﴿إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾، أي: فيما جئتكم به، ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾، أي: من العذاب، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

١١- ثم ذكر اختصاصه عز وجل بعلم مفاتح الغيب، وإحاطة علمه بكل ما في البر والبحر؛ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ .

وذكر دلائل قدرته، وعموم إحاطته، وسعة علمه، وتمام تدبيره لخلقه، يتوفاهم بالليل، ويعلم ما جرحوا في النهار، ثم إليه مرجعهم فينبئهم بأعمالهم.

وهو القاهر فوقهم، ويرسل عليهم ملائكته يحفظونهم، ويرسلهم عند الموت يتوفونهم، وهم لا يفرطون ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الآية ٦٢]، وهو الذي ينجيهم من ظلمات البر والبحر، ويلجؤون إليه بالتضرع عند الشدة والكرب، قائلين: ﴿لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾، قال عز وجل: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

وهو القادر سبحانه على أن يبعث عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم، أو يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض؛ ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾.

١٢- ثم تعود الآيات لتسلية النبي ﷺ وتثبيت قلبه تجاه تكذيب قومه بما جاءهم به من الحق، وبيان أنه ليس عليهم بوكيل، ووعيدهم، وأمره بالإعراض عمن يخوضون في آيات الله، وبيان أنه ليس على الذين يتقون من حساب أولئك من شيء ﴿وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾، وأمره بترك الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا، وتذكيرهم بأخذ كل نفس ﴿بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

وأمره بالإنكار على الذين يدعون من دون الله ما لا ينفع ولا يضر، ويأمرون الناس بذلك؛ ليردوهم على أعقابهم بعد هداية الله تعالى لهم؛ ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

١٣- ثم سلكت السورة لتثبيت العقيدة السليمة طريقة القصة في ذكر دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر إلى عبادة الله تعالى وحده، وإنكاره عليه اتخاذه أصناما آلهة، وبيان أنه وقومه في ضلال مبين، وذكر ما كان عليه إبراهيم من قوة التأمل والنظر في ملكوت السموات والأرض، وما كان عليه من اليقين، وما جرى بينه وبين قومه من المناظرة في إثبات

ربوبية الله تعالى وحده، ومحاجتهم في الله، وإعلانه عليه السلام براءته مما هم عليه من الشرك، وإخلاصه التوحيد لله تعالى؛ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾.

١٤- ثم أشارت السورة لما سبق على سبيل التنويه والتعظيم لما أعطاه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام من قوة الحجة على قومه في دعوته لهم إلى توحيد الله ونبذ الشرك، ورفع الله له بذلك بحكمته وعلمه عز وجل، وما وهبه الله عز وجل له من جعل الأنبياء من بعده كلهم من ذريته، وهداية الله تعالى لهم وتفضيله إياهم على العالمين، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، واجتبائهم وهدايتهم إلى صراط مستقيم، والثناء عليهم والإغراء بالاقتداء بهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾.

١٥- ثم ذمت السورة المكذبين للرسول ﷺ ولغيره من الرسل، وأنهم ما قدروا الله تعالى حق قدره ﴿إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾، وإفحامهم بقوله: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾.

ثم بينت لهم ولغيرهم أنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا، أو قال سأنزل مثل ما أنزل الله، فكيف يزعمون أن الله ما أنزل على بشر من شيء؟ فيتهمون الرسول ﷺ والرسل قبله بالافتراء والكذب على الله تعالى، ثم توعد عز وجل هؤلاء المكذبين الظالمين بما سيلاقون من الأهوال فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

١٦- ثم عادت السورة لذكر دلائل عظمته عز وجل، وتأكيد كمال قدرته في خلقه، وتمام نعمه على عباده، وتفرده بكمال الربوبية والإلهية، والأسماء والصفات، فقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

١٧- ثم ذمت السورة المشركين في جعلهم لله شركاء الجن، ونسبتهم له البنين والبنات، مع خلقه لهم، وتمام نعمته عليهم، وكمال عظمته، وتمام قدرته، وتفرده بالربوبية، واستحقاقه العبادة دون غيره؛ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

ثم بين ﷺ أن الله قد أقام الحجة عليهم بما جاءهم من البصائر والآيات، وأنه ﷺ ليس عليهم بحفيظ، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

١٨- ثم عادت الآيات لتسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه، فقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ

إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾﴾ [الآيتان: ١٠٦، ١٠٧].

١٩- تلا ذلك نهي المؤمنين عن سب آلهة المشركين؛ لئلا يكون ذلك سببا إلى سب الله تعالى عَدْوًا بغير علم، من باب سد الذرائع الموصلة إلى الشر، وبيان أنه زين لكل أمة عملهم، ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بأعمالهم، وذكر إقسامهم بالله غاية أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها وهم كاذبون، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الآيات: ١٠٩- ١١١].

٢٠- بيان أنه عز وجل جعل لكل نبي عدوا من شياطين الإنس والجن، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، لحكم يعلمها عز وجل؛ ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ .

ثم بين أن من الحكمة في هذا: لتميل إلى هذا الزخرف قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وليرضوه، وليقترفوا ما هم مقترفون من الآثام.

ثم أنكر عليهم ابتغاء حَكَمٍ غير الله، وهو الذي أنزل إليهم الكتاب مفصلا، وبين أن الذين أوتو الكتاب يعلمون أنه منزل من عنده عز وجل بالحق لا امتراء فيه، أخباره صدق، وأحكامه عدل: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ .

وختم هذا ببيان ضلال كثير من الخلق، والتحذير من طاعتهم، وبيان علمه عز وجل بمن يضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الآيتان: ١١٦، ١١٧].

٢١- الأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه، والنهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله

عليه، والتعريض بما عليه المشركون من عدم أكلهم مما ذكر اسم الله عليه وأكلهم مما لم يذكر اسم الله عليه، وبيان أنه عز وجل فصل لهم ما حرم عليهم إلا ما اضطروا إليه؛ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ .

والأمر بترك ظاهر الإثم وباطنه، والوعيد للذين يكسبون الإثم بمجازاتهم بما كانوا يقترفون، وبيان أن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه فسق؛ ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

٢٢- بيان الفرق الشاسع والبون الواسع بين المؤمن والكافر؛ فالمؤمن كمن كان ميتا فأحياه الله وجعل له نورا يمشي به في الناس، والكافر مثل الذي في الظلمات ليس بخارج منها، وشتان بين الحالين.

٢٣- حكمة الله تعالى أن جعل في كل قرية أكابر مجرميها؛ ليمكروا فيها ابتلاء وامتحانا للناس، وهم في الحقيقة إنما يمكرون في المقام الأول بأنفسهم وما يشعرون، وبيان شدة مكر هؤلاء المجرمين ومكابرتهم بقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ .

٢٤- بيان نفوذ إرادة الله تعالى الكونية ومشيئته في خلقه، وهدايته بفضله من يشاء منهم، بشرح صدره للإسلام، وإضلاله بعدله من يشاء بجعل صدره ضيقًا حرجًا فلا يقبل الإسلام، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾، وامتداحه عز وجل لصراطه باستقامته، وبيان آياته؛ ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًاۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

٢٥- ثم ذكرت السورة مشهدا من مشاهد حشر الجن والإنس جميعا ومناقشتهم ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ﴾ [الآية: ١٢٨]، وتوعدهم بالنار.

وبيان تولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون من الظلم، وتقريرهم بإتيان الرسل إليهم بالآيات، والإنذار من يوم القيامة، وتقريعهم على مخالفتهم وتكذيبهم، وإقرارهم على أنفسهم بذلك، واغترارهم بالحياة الدنيا، وشهادتهم على أنفسهم بالكفر، وبيان أنه عز وجل لا يهلك القرى بظلم حتى يقيم على أهلها الحجة، فلا يهلكها وأهلها غافلون، وأن لكل منهم درجات من عملهم، وما الله بغافل عما يعملون.

وأنه عز وجل الغني ذو الرحمة، لو شاء أذهبهم واستخلف من بعدهم قوما آخرين، وبيان أن وعده آت وأنهم لا يعجزونه، وأمره ﷺ أن يقول لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾.

٢٦- ثم تعود السورة لذكر بعض الأباطيل التي كانوا عليها من تقسيم الحرث والأنعام بينهم وبين الله- تعالى الله عن ذلك- وقتلهم أولادهم، وتحريمهم من الأنعام والحرث ما لم يحرمه الله عليهم، وتحريمهم ركوب بعض الأنعام، وعدم ذكر اسم الله على بعض منها افتراء على الله، وجعلهم ما في بطون بعض الأنعام حلالًا لذكورهم ومحرمًا على أزواجهم، وإن كان ميتة فهم فيه شركاء، وتهديدهم ووعيدهم بسبب افترائهم ووصفهم الباطل، وبيان خسارتهم وضلالهم، وبعدهم عن الاهتداء.

٢٧- ثم ذكر عز وجل نعمته على العباد فيما أنشأ لهم من الجنات، وفيما أباح لهم من الطيبات، وأمرهم بالأكل من ثمره امتنانًا عليهم، وأداء حقه يوم حصاده، ونهاهم عن الإسراف.

كما ذكر نعمته في إباحة الأزواج الثمانية من بهيمة الأنعام، ورد على من حرموا بعضها بلا دليل أو وصية من الله لهم بذلك: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾.

ثم أمره ﷺ ببيان ما حرمه الله حقيقة عليه وعلى أمته، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الآية: ١٤٥].

وبين عز وجل ما حرمه على اليهود بسبب بغيهم؛ فقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الآية: ١٤٦، ١٤٧].

٢٨- ثم ذكر احتجاج المشركين على ما هم عليه من الشرك والتحريم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا ولا آباؤهم ولا حرموا من شيء، بمعنى أن الله شاء ذلك ورضيه منهم، دأبهم دأب المكذبين قبلهم حتى ذاقوا بأس الله، والرد عليهم بأنه لا علم عندهم، وإنما يتبعون مجرد الظن والتخمين، فلله الحجة البالغة، فلو شاء لهداهم أجمعين.

ثم طالبهم بالإتيان بشهدائهم الذين يشهدون أن الله حرم ما حرموه، وهيهات من يشهد لهم بذلك إلا شهود زور وباطل أمثالهم.

٢٩- ثم جاء- وقبيل ختام السورة- ذكر الوصايا العشر العظيمة في بيان ما حرمه الله تعالى، في قوله تعالى مخاطبا الذين أحلوا وحرموا من تلقاء أنفسهم، والأمة أجمع: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ [الآيات: ١٥١- ١٥٣]، فبدأها عز وجل بتحريم الشرك، ثم بالأمر بالإحسان إلى الوالدين وتحريم عقوقهما، وتحريم قتل الأولاد من إملاق؛ فرزق الجميع على الله، وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحريم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق؛ ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

وتحريم قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، والأمر بالوفاء بالكيل والميزان بالقسط، وتحريم التطفيف في الكيل والوزن، ووجوب العدل في القول حتى مع القريب، وتحريم المحاباة، ووجوب الوفاء بعهد الله، وتحريم نقضه، واتباع صراط الله المستقيم، وتحريم اتباع ما عداه من السبل ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الآية: ١٥٢، ١٥٣].

٣٠- ثم ذكّر عز وجل بمنته تعالى بإيتاء موسى عليه السلام التوراة أفضل الكتب السابقة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ

شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وثنى بالامتنان بإنزال القرآن الكريم أفضل كتب الله تعالى على الإطلاق، فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الآيات ١٥٥- ١٥٧].

٣١- ثم هدد المكذبين الذين يصدفون عن آياته بقرب وقوع العذاب عليهم، فقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ثم بين أنه ﷺ ليس في شيء من أمر الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، إنما أمرهم إلى الله تعالى وحده هم وغيرهم، وأن ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

٣٢- وختمت السورة بأمر الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يقول ويعلن بعظيم نعمة الله تعالى عليه، بهدايته صراطه المستقيم ودينه القويم ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، ويعلن إخلاصه لله تعالى في صلاته ونسكه ومحياه ومماته لا شريك له، وأنه لن يبتغ ربا سواه؛ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾:

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الجملة خبر لفظًا ومعنًى، و«أل» في «الحمد» للاستغراق، أي: جميع الحمد من كل وجه ثابت لله عز وجل.

واللام في قوله: «لله» للاستحقاق والاختصاص، أي: جميع أنواع الحمد والمحامد مستحقة واجبة لله تعالى وحده، خاصة به، لا يستحق الحمد على جميعها سواه.

و«الحمد» وصف المحمود بصفات الكمال، مع المحبة والتعظيم[1].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، «الذي» اسم موصول مبني في محل جر صفة لاسم الجلالة، أي: الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات الكثيرة، على غير مثال سابق.

وأصل الخلق: التقدير، ثم الإنشاء والإيجاد؛ قال زهير:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ ... ـضُ النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي

«تفري»، أي: تفعل، «ما خلقت»، أي: ما قدرت.

وقدَّم السموات؛ لشرفها وعلو مكانها.

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، «جعل» بمعنى «خلق»، والخلق أعم في الإطلاق، أي: وخلق الظلمات والنور.

وعبَّر عن الخلق هنا بـ«الجعل»: إما من باب التفنن في العبارة وإن كان المعنى واحدًا؛ أو لأن «خلق» أليق بإيجاد الذوات، و«جعل» أليق بإيجاد أعراض الذوات

(١) وقد سبق في الكلام على الفاتحة تفصيل الكلام في معنى الحمد، والفرق بينه وبين الشكر وغير ذلك.

وأحوالها ونظامه؛ أو لأن الظلمات والنور تكون حسية ومعنوية؛ فظلمة الليل ونور النهار كل منهما حسي، وظلمة الكفر ونور العلم والإيمان كل منهما معنوي.

وأيضًا فإن من النور ما هو غير مخلوق؛ وهو القرآن الكريم؛ فهو نور كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨].

وقدَّم الظلمات؛ لأن الظلمة سابقة في الوجود قبل النور.

والمراد بـ«الجعل» هنا: الجعل الكوني؛ كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ٦١﴾ [الفرقان: ٦١].

و«الظلمات»: جمع «ظلمة»، والمراد بـ«الظلمات والنور»: المحسوسان؛ كظلمة الليل، وظلمة البحر والأمواج، والسحاب، وكنور النهار، والشمس، والقمر، ونحو ذلك. ويقوي ذلك اقترانهما بالسموات والأرض.

ويجوز حملهما على ما يشمل أيضًا الظلمات المعنوية؛ كظلمة الجهل، والضلال، والكفر، والشرك، والشك، والنفاق، والمعاصي، والغفلة، وغير ذلك. والنور المعنوي؛ كنور العلم، والقرآن، والإيمان، واليقين، والطاعات.

ويقوي هذا جمع «الظلمات» وإفراد «النور»؛ لأن طرق الجهل والضلال والباطل كثيرة متعددة متشعبة، وطريق الحق واحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولأن النور أشرف، كما قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨].

وفي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور؛ دلالة قاطعة على كمال ربوبيته عز وجل وعظمته، وتمام قدرته وحكمته، وسعة علمه ورحمته، واستحقاقه جميع أنواع الحمد، والعبادة وحده لا شريك له؛ فله عز وجل الحمد على خلق السموات والأرض، وله الحمد على جعل الظلمات والنور؛ لما في ذلك من المنافع والمصالح للعباد، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ ٢٩﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣]، وهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛

لتمام قدرته وعظمته، وكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ تعريض بإبطال قول المجوس: إن للكون خالقين هما الظلمة والنور، فالظلمة تخلق الشر، والنور يخلق الخير؛ ولهذا قال بعده: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، أي: ثم مع هذه الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة؛ من خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، الدالة على كمال قدرة الله تعالى وعظمته وربوبيته ووحدانيته، وتمام نعمته ووجوب عبادته وحده دون سواه؛ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، أي: يعدلون به غيره، كما قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل: ٦٠].

وفي الآية إنكار عليهم، وتوبيخ لهم، وتعجيب من حالهم.

وقوله: «بربهم» متعلق بـ«يعدلون»، وقُدِّم عليه مراعاة لفواصل الآيات، وأظهر في مقام الإضمار؛ فلم يقل: به يعدلون، بل قال: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ لزيادة التشنيع عليهم.

ومعنى «يعدلون»، أي: يجعلون له عِدلًا وشريكًا، يسوُّون بينه وبينه في الإلهية والعبادة والمحبة والتعظيم، كما حكى تعالى عن المشركين قولهم عند معاينة العذاب: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٧].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾:

لما ذكر خلق السموات والأرض، ثنَّى بخلق بني آدم الذين خَلَقَ لأجلهم ما في السموات والأرض.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؛ استئناف لبيان بطلان كفرهم بالبعث، واستدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني؛ كما بين في الآية الأولى بطلان إشراكهم به تعالى؛ مع مشاهدتهم موجبات توحيده، ودلائل قدرته في خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور.

والخطاب موجه إلى الذين كفروا، وفيه التفات من الغَيبة إلى الخطاب لقصد

التوبيخ، أي: هو وحده الذي أوجدكم ﴿مِّن طِينٍ﴾؛ بإيجاد أبيكم آدم- الذي هو أصلكم- من طين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ٧].

والطين: هو التراب المخلوط بالماء.

وهذا استدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٢].

وفي قوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾؛ إظهار فساد استدلالهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢، الصافات: ١٦، الواقعة: ٤٧]، وهم يقرون أنهم خلقوا من تراب، فاستدلوا على إنكار البعث بما ينبغي أن يستدلوا به على إثباته.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ﴾، أي: قضى قضاءً كونيًّا، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤].

وهناك القضاء الشرعي، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿أَجَلًا﴾ الأجل: المدة والزمن، أي: ثم قضى- كونًا- أجل كل إنسان وعمره في هذه الحياة وحتى يموت.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، أي: معين معلوم محدد عنده، لا يعلمه غيره؛ وهو يوم القيامة والبعث والحساب، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ: ١٧]، وقال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ

رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٤].

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ﴾؛ يعني: أجل الموت، والأجل المسمى: أجل الساعة والوقوف عند الله»(١).

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨].

والمعنى: ثم قضى أجلًا خاصًّا؛ وهو عُمر كل إنسان في هذه الدار إلى حين موته، وأجلًا عامًّا لهذه الحياة إلى انتهائها؛ فالأجل الأول غير الثاني؛ لأن إعادة النكرة بعد النكرة نفسها يدل على أن الثانيَ غير الأول.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾: الجملة معطوفة على قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، أي: ثم أنتم مع أنه عز وجل خلقكم من طين، ومعرفتكم بذلك ﴿تَمْتَرُونَ﴾، أي: تشكُّون في البعث والحساب والجزاء على الأعمال يوم القيامة.

وفيه إنكار وتوبيخ لهم، وتعجيب من إنكارهم للبعث مع علمهم بالخلق الأول من الطين والموت بعده، فكيف يشكُّون في الخلق الثاني بعد أن يكونوا ترابًا، مع أنهم خلقوا من تراب، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ﴾ [الرعد: ٥].

قولـــه تعـــالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾، أي: المألوه المعبود محبة وتعظيمًا.

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ يدعوه ويعبده ويوحده ويقر له بالألوهية من في السموات والأرض، إلا من كفر من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ١٥٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٦١، ١٢٦٢).

إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض.

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، الجملة في محل رفع خبر لقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾، أو في محل نصب على الحال، أي: حال كونه يعلم سركم وجهركم، أي: يعلم الذي تسرونه والذي تعلنونه؛ من اعتقاد، أو قول، أو عمل؛ ما أسره الإنسان في نفسه وحدثها به، وما حدث به غيره سرًّا، وما جهر به وأعلنه.

وقدَّم قوله: ﴿سِرَّكُمْ﴾؛ للدلالة على أن علمه عز وجل السر كعلمه الجهر على حد سواء، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: ويعلم الذي تكسبون؛ من قول وعمل واعتقاد، باطن أو ظاهر، خيرًا كان أو شرًّا، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

وفي هذا وعد لمن آمن، ووعيد لمن كفر.

الفوائد والأحكام:

١- حمد الله عز وجل نفسه أن خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور؛ بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

٢- أن الحمد بأنواع المحامد كلها، والوصف بجميع صفات الكمال؛ مستحق لله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٣- أن الحمد لا ينبغي أن يكون إلا لمن هو أهل له، ولمقتضٍ لذلك؛ وإلا فهو زور وباطل؛ لأن الله لما ذكر استحقاقه للحمد ذكر ما يدل على ذلك؛ من كونه خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور؛ مما يدل على كمال قدرته وعظمته وتمام نعمته؛ فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

٤- إثبات توحيد الأسماء والصفات؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وحمد الله تعالى: وصْفُه بصفات الكمال.

٥- إثبات توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾؛ لأن معنى اسم «الله»: المألوه المعبود محبة وتعظيمًا، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة، وخلقه السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾؛ فله الخلق والأمر.

٧- أن من أعظم المخلوقات الدالة على كمال قدرته تعالى وعظمته، وتمام نعمته، واستحقاقه للحمد وإخلاص العبادة؛ السموات والأرض، والظلمات والنور.

٨- جمع السموات وتقديمها؛ لشرفها وعلوها وعظمتها بالنسبة للأرض، وتقديمهما على الظلمات والنور؛ لعظمهما وكونهما أدل وأظهر على كمال قدرة الله تعالى وتمام نعمته.

٩- إفراد الأرض وعدم جمعها؛ مع أنها سبع أرضين؛ لما في جمعها- والله أعلم- من الثقل.

١٠- في جمع الظلمات إشارة إلى كثرة الظلمات- حسية كانت أو معنوية- وتعددها وتشعبها؛ كظلمة الجهل، والضلال، والشرك، والشك، والمعاصي، وغير ذلك.

وفي إفراد النور إشارة إلى شرفه، وإلى أن طريق الحق واحد غير متعدد.

١١- الإنكار على الكافرين، والتوبيخ لهم، والتعجيب من حالهم، وتسفيههم في إشراكهم بالله وكفرهم؛ مع وضوح الأدلة على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته، وتمام نعمته، ووجوب عبادته وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾.

١٢- أن من كُتب عليه الضلال لا سبيل إلى هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ⑩①﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ⑨⑥ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ⑨⑦﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

١٣- التشنيع على الكافرين في شركهم بربهم الذي خلقهم ورباهم بنعمه، وكان الواجب عليهم أن يشكروه ولا يكفروه؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ بالإظهار بدل الإضمار.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، والاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

١٥- أن بني آدم حادثون، خُلقوا بعد العدم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ①﴾ [الإنسان: ١].

١٦- أن أصل خلق بني آدم من طين بخلق أبيهم آدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ⑳﴾ [الروم: ٢٠].

وفي هذا دلالة على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى وجوب الخضوع له، والتذلل، والتواضع؛ كما قال الشاعر:

أَلنَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمْثِيلِ أَكْفَاءُ ... أَبُوهُمُ آدَمٌ وَالْأُمُّ حَوَّاءُ

فَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ مِنْ أَصْلِهِمْ نَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالْمَاءُ[1]

ولا ينافي قولُه: ﴿مِّن طِينٍ﴾ قولَه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقولَه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ㉖﴾ [الحجر: ٢٦]؛ فأصل بني آدم من تراب صُب عليه الماء فصار طينًا، ثم بقي مدة حتى صار صلصالًا له صوت.

١٧- قضاء الله عز وجل وتقديره أجل كل إنسان وعمره ومدة بقائه في هذه الحياة وحتى يموت، ومدة عمر الدنيا كلها حتى تنتهي؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾.

١٨- تقدير الله عز وجل وقضاؤه أجلًا مسمًّى عنده معينًا محددًا معلومًا للبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لا يعلمه سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾.

١٩- الاستدلال بالخلق الأول من طين على الخلق الثاني والبعث بعد الموت بعد صيرورة الموتى ترابًا؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص٧).

عِندَهُۥ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

٢٠- وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، وتقدير الآجال والأعمار وكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾.

٢١- دِقة نظام هذا الكون؛ خلقًا، وبدءًا، ونهاية؛ وذلك دليل عظمة الخالق سبحانه وتمام قدرته.

٢٢- الإنكار على المشركين، وتوبيخهم، والتعجيب من إنكارهم البعث؛ مع علمهم بالخلق الأول من طين، فكيف يشكون في بعثهم بعد موتهم وصيرورتهم ترابًا؛ وهم يعلمون أن أصل خلقهم من طين وتراب؟ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾؛ كما ذكر تعالى قولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢، الصافات: ١٦، الواقعة: ٤٧].

٢٣- إثبات أنه عز وجل إله أهل السماء وأهل الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ فهو إله في السموات وإله في الأرض.

٢٤- علم الله عز وجل سر الخلائق وجهرهم، وأن الجهر والسر عنده سواء؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

٢٥- علم الله تعالى التام بما يكسب الخلق من الاعتقادات، والأعمال القلبية، والأقوال، والأفعال، وكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾.

٢٦- وجوب تقوى الله تعالى ومراقبته؛ لعلمه عز وجل التام بالسر، والجهر، والكسب؛ قولًا، أو فعلًا، أو اعتقادًا.

٢٧- الوعد لمن أحسن، والوعيد لمن أساء؛ لعلمه عز وجل بالسر والجهر والكسب، ومقتضى ذلك محاسبة الخلق ومجازاتهم على أعمالهم خيرها وشرها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، الواو استئنافية، و«ما» نافية، والضمير في «تأتيهم» يعود إلى «الذين كفروا» في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾، فأخبر أولًا عن إشراكهم بالله وإنكارهم البعث، ثم أخبر ثانيًا عن سبب ذلك؛ وهو إعراضهم عن الآيات، وتكذيبهم الرسول ﷺ.

﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة- من حيث المعنى- لعموم النفي، أي: وما تأتيهم من أيِّ آية من آيات ربهم.

و«الآية» في اللغة: العلامة والدلالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، أي: علامة ملكه.

وهي نوعان: آيات كونية، وآيات شرعية:

أما الآيات الشرعية: فقد انتهت بانقطاع الوحي بوفاته ﷺ.

وأما الآيات الكونية: فهي باقية إلى قيام الساعة.

أي: وما تأتيهم من آيةٍ- أي: آية كونية أو شرعية- فيها الدلالة على تمام قدرة الله تعالى ووحدانيته، وصدق الرسول ﷺ، ووجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده؛ من

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٣٣).

خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ومن الاستدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني.

ومن ذلك: انشقاق القمر، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القمر: ١- ٣].

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه؛ فقال رسول الله ﷺ: «**اشْهَدُوا**»[1].

والتعبير بالمضارع في قوله: «تأتيهم»؛ للدلالة على تجدد الإعراض منهم مع كل آية تأتيهم.

﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، «من» تبعيضية، أي: من بعض آيات ربهم الكونية والشرعية، أي: من عنده عز وجل.

وأضاف اسم «الرب» إلى الضمير «هم»؛ للتسجيل عليهم بعدم الشكر لربهم الذي يجب أن يشكروه؛ فهو خالقهم، ومالكهم، والمنعم عليهم.

﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا كانوا عن هذه الآيات معرضين بقلوبهم وأبدانهم؛ تكذيبًا بها واستهزاء، فلا يلقون لها بالًا، ولا يصغون لها سمعًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

والإعراض إذا أُفرد دل على الإعراض بالقلب والتولي بالبدن، ومن جمع بينهما فلا فائدة فيه ولا حيلة، وكذا من أعرض بقلبه غالبًا، أما المتولي بالبدن فقد يُرجى رجوعه.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، الفاء تعليلية، و«قد» للتحقيق، أي: فقد كذب هؤلاء العادلون بربهم، المعرضون عن آياته؛ بالحق الذي جاءهم على لسان الرسول ﷺ، فأنكروا رسالته، وكذبوا ما جاء به من القرآن والسنة، والدعوة إلى الإيمان، وتقرير البعث، والحساب، والجزاء على الأعمال.

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٦٤)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٠)، والترمذي في التفسير (٣٢٨٥).

﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، «لما»: ظرف بمعنى: «حين»، أي: حين أتاهم على لسان النبي محمد ﷺ.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾، الفاء سببية، و«سوف» للتأكيد والاستقبال.

«أنباء»: أخبار، و«النبأ»: الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ [النبأ: ١ - ٣].

و«ما» موصولة، أي: أنباء الذي كانوا به يستهزئون؛ وهو القرآن الكريم، وما فيه من الأمر بالإيمان، وإخلاص العبادة لله تعالى، وتقرير البعث والحساب، وما فيه من الوعيد والتهديد للمكذبين والمستهزئين بالعذاب في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٣٥].

والمعنى: فسوف يأتيهم مصداق أنباء الحق الذي كانوا به يكذبون ويستهزئون، أي: بتحقيق مضمون هذه الأنباء، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾ [ص: ٨٨]، أي: ولتعلمن تحقق نبئه بعد حين.

وكما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ [الطور: ١٤]؛ وهو وعيد لهم وتهديد على تكذيبهم واستهزائهم، وأنه سوف يأتيهم ما توعدوا به من العقوبات والعذاب في الدنيا والآخرة، وقد لقوا من ذلك ما لقوه يوم بدر وغيره على أيدي المسلمين، مع ما ينتظرهم من عذاب الآخرة؛ وهو أشد وأبقى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾:

توعد عز وجل المكذبين بالحق لما جاءهم، وأنهم سيجدون مغبة تكذيبهم واستهزائهم، ثم أكد هذا الوعيد بذكر سنته عز وجل الكونية بإهلاك المكذبين قبلهم بذنوبهم؛ مع ما هم عليه من التمكن، وكثرة الأمطار والأنهار والخيرات؛ مما لم يمكن به هؤلاء ولم يعط لهم مثله، ومع ذلك لم ينفع أولئك القرون ذلك لما كذبوا بالحق وعصوا

رسله، بل أُخذوا بذنوبهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾، الاستفهام للتقرير أو للإنكار، أي: أولم ير هؤلاء المكذبون بالحق؟

والرؤية يجوز أن تكون علمية، أي: أولم يعلموا كم أهلكنا قبلهم من قرن بما نقل إليهم من أخبارهم؟

ويجوز أن تكون بصرية، أي: أولم يروا آثار القرون الذين أهلكناهم بالسير والنظر في ديارهم؟ كما قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾ [الأنعام: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨].

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾، «كم» استفهامية، أو خبرية تفيد التكثير.

﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: أفنينا ودمرنا وأتلفنا.

﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: من قبل كفار مكة.

﴿مِنْ قَرْنٍ﴾، أي: من أمة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم.

و«القرن» يطلق على الأمة، وعلى الجيل من الأمة؛ قال ﷺ: **«خير النّاس قرني، ثمّ الّذين يلونهم، ثمّ الّذين يلونهم»**[1].

ولهذا حدده بعضهم بالمدة التي يهلك فيها الموجودون ويخلفهم غيرهم؛ قالوا: وهي نحو مئة سنة.

﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، «مكناهم» صفة لـ«قرن»، وروعي في الضمير معنى القرن؛ لأنه بمعنى: الأمة والجيل.

﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: ثبتناهم، وملَّكناهم في الأرض، وقوّيناهم؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص: ٥٧].

﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾، «ما» اسم موصول، نعت لمصدر محذوف، أي: مكناهم في

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٦٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الأرض التمكين الذي لم نمكنه لكم، أو نائبة عن مصدر، أي: تمكينًا لم نمكنه لكم، أي: هو أشد من تمكينكم في الأرض.

وفي الكلام التفات من الغَيبة إلى الخطاب؛ لأن المخاطب بقوله: ﴿مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ هو المخبر عنه بقوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ﴾، وهم كفار مكة، ولكن في الخبر معنى القول، ومعناه: قل- يا محمد- لهؤلاء القوم الذين كذبوا بالحق لما جاءهم: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾؛ لأن الكفار هم الممكَّنون في الأرض وقت نزول الآية، وليس للمسلمين يومئذٍ تمكين.

﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم﴾، أي: وأنزلنا المطر، وعبر عنه بـ«السماء»؛ لنزوله من السماء.

﴿مِّدۡرَارٗا﴾، أي: كثيرًا غزيرًا.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾، أي: وجعلنا الأنهار تجري من تحت أشجارهم وقصورهم، وتحت تصرفهم، يصرفونها حيث شاؤوا؛ مما يكون سببًا لخصب أرضهم وديارهم، وكثرة الخيرات لهم ولأنعامهم.

﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾، الفاء عاطفة.

والإهلاك: الإتلاف والإفناء.

والباء في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾ للسببية، أي: فأتلفناهم وأفنيناهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

فمع ما كانوا عليه من التمكين في الأرض مما لم يكن لكم، ومن القوة، ووفرة الأمطار والأنهار، وكثرة الخيرات والزروع والثمار؛ لم يغنهم ذلك شيئًا؛ فيدفع أو يرفع عنهم عذاب الله تعالى لما كفروا به وخالفوه ولم يشكروه، بل كان ذلك استدراجًا لهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٤﴾ [مريم: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الروم: ٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ

ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر: ٢١- ٢٢].

﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾، أي: وأنشأنا من بعد القرن المهلَكِ قرنًا آخرين. وجَمَعَ «آخرين» مراعاة لمعنى «القرن»، أي: وأوجدنا من بعدهم قرنًا آخرين، كما هي سنة الله تعالى بالمكذبين؛ يهلك قرنًا، وينشئ بعدهم قرنًا آخرين؛ فكان الواجب على كفار مكة الاعتبار بأحوال من سبقهم من المكذبين، وماذا كانت عاقبتهم؛ فليسوا بأعز على الله تعالى منهم، كيف وقد كذبوا أفضل رسله محمدًا ﷺ؟!

وفي الآية تعريض للمشركين بأن الله مهلكهم، ومنشئ من بعدهم قرن المسلمين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾:

ذكر عز وجل قبل هذا إعراض المشركين عن الآيات، وتكذيبهم بالحق، واستهزاءهم به، ثم بين شدة عنادهم ومكابرتهم ومغالطتهم في الحق؛ بغيًا منهم، لا لخفاء الحق عليهم، ولا لجهل منهم بذلك.

قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾، الواو استئنافية، و«لو» شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، ﴿نَزَّلْنَا﴾ فعل الشرط، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿كِتَٰبًا﴾، أي: مكتوبًا.

﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾ القرطاس: الصحيفة والورق التي يكتب عليها.

﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ اللمس وضع اليد على الشيء؛ لمعرفة وجوده أو لمعرفة وصف ظاهرة فيه، من لين أو خشونة، أو برودة أو نحو ذلك.

وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد لمعنى اللمس. فيه بيان شدة مكابرتهم، أي: فلمسوه حقيقة بأيديهم.

﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ جواب الشرط «لو»، أي: لقال الذين كفروا منهم؛ ظلمًا وعدوانًا، وتعنتًا ومكابرة.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾، «إن» نافية بمعنى «ما»، أي: ما هذا الكتاب.

﴿إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: ما هذا الكتاب إلا سحر بيِّن ظاهر أنه سحر، فـ﴿مُّبِينٞ﴾ بمعنى «بان»، أي: ظهر. ويجوز كونه أيضًا بمعنى «أبان» المتعدي، أي: ومبين أن من جاء به ساحر كما يزعمون.

والمعنى: أنهم من شدة كفرهم وعنادهم يكابرون حتى في المحسوسات التي لا يمكن إنكارها؛ لوضوحها كالشمس في وسط النهار. فلو لمسوا هذا المكتوب بقرطاس بأيديهم ورأوه بأعينهم وتيقنوه؛ لقال الذين كفروا مغالطة لأنفسهم وسترًا لمكابرتهم: ما هذا إلا سحر مبين، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾ [الحجر: ١٤-١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ٤٤﴾ [الطور: ٤٤].

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، ولم يقل: «لقالوا» لتسجيل الكفر عليهم، وأن دافعهم إلى هذا التعنت هو الكفر، وأن من قال بهذا القول فهو كافر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾:

قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾، أي: وقال هؤلاء الكفار المعاندون المكابرون.

﴿لَوۡلَآ﴾ للتحضيض بمعنى «هلا».

﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾، أي: على النبي ﷺ.

﴿مَلَكٞ﴾، أي: ملك من الملائكة نعاينه ونراه ويخبرنا بصدقه؛ كما في الآية الأخرى ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، وكما في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٦-٧]، وقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤].

وهذا تعنت منهم مبني على الجهل وعدم العلم بالمعقول، فبيَّن عز وجل الحكمة التي لأجلها لم يجعل رسوله إليهم من الملائكة، فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، اللام واقعة في جواب «لو» والمعنى: لفرغ وتم الأمر بتعذيبهم.

﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، أي: ثم لا يمهلون إن لم يؤمنوا بعد نزول الملائكة، بل يعاجلون بالعقوبة، كما هي سنة الله تعالى الكونية.

وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾ الآيات [الحجر: ٦-٨]، والحق هنا: العذاب. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

ولهذا لما جادل إبراهيم عليه السلام الملائكة الذين أرسلهم الله لقوم لوط فيهم بعد أن بشروه واستأنس بهم؛ قالوا: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٧٦] وهو نزول الملائكة ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾ [هود: ٧٦].

فمن رحمة الله تعالى بالناس وعنايته بهم أن جعل الرسل بشرًا مثلهم، يتكلمون بلسانهم؛ ليسهل الأخذ والتلقي عنهم والرجوع إليهم؛ ولهذا قال تعالى ممتنًا على العباد: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ليبين لهم﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال تعالى ممتنًا على العرب: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾:

قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا﴾، أي: ولو جعلنا الرسول إلى البشر ملكًا من الملائكة، أي: رسولًا ملكيًّا.

﴿لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لجعلنا هذا الرسول الملكي ﴿رَجُلًا﴾، أي: على هيئة رجل من البشر؛ لِتُفْهم مخاطبته والأخذ عنه.

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ الواو: عاطفة، واللام كسابقتها، واللبس: الخلط، و«ما» موصولة، أي: وللبسنا عليهم الذي يلبسون، ويجوز كونها مصدرية، أي: للبسنا عليهم لبسهم.

والمعنى: وللبسنا عليهم في جعل الرسول إليهم ملكًا، وجعل هذا الملك على هيئة رجل من البشر، فيلتبس ويختلط عليهم الأمر أهو ملك أو بشر.

﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾، أي: ما يلبسون على أنفسهم أو على غيرهم في التشكيك برسالة

النبي ﷺ، وقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٌ﴾.

قال ابن كثير[1]: «أي: ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكًا- أي: لو بعثنا إلى البشر رسولًا ملكيًّا- لكان على هيئة رجل؛ لتفهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة الرسول البشري، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥﴾ [الإسراء: ٩٥]».

وهذا كله منظور فيه إلى حمل قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٌ﴾ على أن مرادهم الاستدلال؛ ولذا أجيبوا عن ذلك إرخاءً للعنان، وإلا فإنهم ما أرادوا بكلامهم إلا التعجيز والاستهزاء؛ ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾:

لما ذكر شدة عناد الكفار ومكابرتهم؛ أتبع ذلك بتسلية النبي ﷺ، والوعد له وللمؤمنين بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، والوعيد والتحذير للمكذبين.

وفيه بيان أنهم في قولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٌ﴾ قصدوا التعنت والاستهزاء معًا.

قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾، الواو استئنافية، واللام لام قسم مقدر، و«قد» للتحقيق، فالخبر مؤكد بالقسم المقدر، ولام القسم، و«قد».

والخطاب للنبي ﷺ، أي: والله لقد استهزئ برسل كثيرين من قبلك زمنًا؛ فكانت العاقبة لهم. وفي هذا تثبيت له ﷺ وتقوية لقلبه.

والاستهزاء: السخرية؛ بدليل قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾، أي: سخر منهم أقوامهم لما جاؤوهم بالبينات، كما قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: ٣٨].

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٢٧).

وهكذا قال المشركون من قومه ﷺ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: ٤١].

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾، الفاء: عاطفة لربط المسبب بالسبب، أي: وأحاط، ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾، أي: بالذين سخروا من الرسل واستهزؤوا بهم، أي: أحاط ونزل بهم جميعًا بحيث لم يفلت منهم أحد.

﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: فأحاط بالذين سخروا من الرسل، ونزل بهم الذي كانوا به يستهزئون، وهو ما أنذرهم به الرسل من سوء العاقبة وحلول العذاب بهم جميعًا. وقدم الجار والمجرور «به» على الفعل؛ لمراعاة الفاصلة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾:

قوله: ﴿قُلْ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، وهو أمر من الله له، وهذا أمر بإبلاغ خاص للاهتمام، وإلا فهو ﷺ مأمور أن يبلغ القرآن كله ويبينه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقد جاء افتتاح الآيات بـ«قل» في هذه السورة في مواضع كثيرة.

﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، الأمر للمكذبين أو لعموم الأمة، أي: سيروا في الأرض وسافروا فيها بأبدانكم، و«في» بمعنى «على»، أي: على الأرض.

﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾ بأبصاركم، وتأملوا وتفكروا بعقولكم، واعتبروا ببصائركم.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، «كيف» اسم استفهام في محل نصب خبر «كان»؛ وقُدِّم لأن اسم الاستفهام له الصدارة، أي: كيف كانت نهاية ومآل المكذبين لرسل الله قبلكم، وما حل بهم من أنواع العقوبات مع ما ينتظرهم من العذاب في الآخرة، واحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، ولا تغتروا بما أنتم فيه من النعيم مع ما أنتم عليه من الاستهزاء والتكذيب، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى

ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ويلحظ في الآيات الربط بين السير في الأرض والنظر، وهو التأمل والتفكر والاعتبار؛ لأن السير في الأرض من غير اعتبار مضيعة للوقت وخسارة للعمر، كما هو حال الكثيرين.

الفوائد والأحكام:

١- شدة عتو هؤلاء المكذبين العادلين بربهم، وإعراضهم عن آيات الله تعالى الكونية والشرعية؛ مما أوقعهم في الشرك وإنكار البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

وفي هذا دلالة على خطورة الإعراض عن آيات الله.

٢- إقامة الحجة على الكفار بما جاءهم من الآيات الكثيرة من آيات ربهم، لكن ذلك لم ينجع فيهم.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

٤- من يضلل الله فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

٥- تكذيب الكفار بالحق الذي جاءهم، واستهزاؤهم به؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فجمعوا بين الإعراض عن الآيات والتكذيب بالحق والاستهزاء به.

٦- أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق، وما سواه باطل.

٧- الوعيد لهؤلاء المكذبين بأنه سوف يأتيهم تحقيق مضمون الذي كانوا به

يكذبون ويستهزئون، مما توعدوا به من العقوبات والعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

٨- الإنكار على هؤلاء المكذبين عدم الاعتبار بمن أهلك الله قبلهم من القرون ممن مكنهم الله في الأرض أكثر منهم، وأمدهم ومتعهم، فلم ينفعهم ذلك لما كذبوا رسل الله عليهم السلام، بل أهلكهم الله بذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾.

٩- أن الكثرة الكاثرة من الخلق أعداء للحق ولمن جاء به من الرسل وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، فأكثر الأمم كذبوا رسلهم، وقد قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وفي الحديث قوله ﷺ: «فرأيت النّبيّ ومعه الرّجل والرّجلان، والنّبيّ وليس معه أحدٌ»[١].

وبناء على هذا لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم على ضلال.

١٠- قدرة الله تعالى التامة وقوته ونفوذ أمره؛ فما يحصل من تمكين وإمداد بالخيرات والنعم فمنه وحده، وما يحصل من نقم وإهلاك للمكذبين فبتقديره وتدبيره.

١١- أن الله أعطى للأمم السابقة من التمكين والقوة والشدة وكثرة الخيرات ما لم يعطه لهذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ الآية.

ولا تنافيَ بين هذا وقوله في سورة الأحقاف: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦]؛ لأن المعنى أن الله أعطى الأمم السابقة مثل ما أعطى هذه الأمة وأكثر.

١٢- أن التمكين في الأرض وكثرة الخيرات قد يكون استدراجًا؛ فلا ينبغي أن

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٥٢)، ومسلم في الإيمان (٢٢٠)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يغتر بذلك.

١٣- أن الذنوب والمعاصي سبب لهلاك العباد وخراب البلاد؛ أي للهلاك الحسي والمعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

١٤- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

١٥- وجوب أخذ العظة والعبرة مما حل بالأمم السابقة.

١٦- سنة الله تعالى الكونية في إهلاك المكذبين، وإنشاء قرن آخرين بعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.

١٧- إثبات علو الله تعالى وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾.

١٨- شدة عناد كفار مكة ومكابرتهم في التكذيب والإنكار حتى للمحسوس، وبعدهم عن الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٩- تأكيد المعلوم والمعقول وتقويته بالمحسوس؛ لقوله تعالى: ﴿فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾.

٢٠- سلوك المكذبين من هذه الأمة مسلك من سبقوهم في رمي الرسل وما جاؤوا به بالسحر، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

٢١- أن من وصف الحق ومن جاء به بالسحر فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، ووجه ذلك الإظهار مقام الإضمار.

٢٢- تعمد أهل الكفر والباطل وصف الحق والدعاة إليه من الرسل وغيرهم بأقبح الأوصاف؛ تنفيرًا منه ومن الدعاة إليه.

٢٣- لجوء المكذبين والكفار عندما لا يستطيعون إبطال الحق إلى الاقتراح؛ لقوله

تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، فهذا منهم ليس لطلب الاستدلال، وإنما هو من باب التعنت والتعجيز، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

٢٤- إيمان هؤلاء المكذبين بالملائكة وأنهم في السماء؛ لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾.

٢٥- تهديد المكذبين وتحذيرهم من اقتراح الآيات وطلبها، وبيان أنه لو أنزل الله ملكًا استجابة لاقتراحهم لقضي الأمر بتعذيبهم ولم يمهلوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾.

٢٦- الإشارة إلى أن من سنن الله الكونية إهلاك المكذبين إذا اقترحوا آية معينة ثم لم يؤمنوا بها.

٢٧- أنه عز وجل لو جعل الرسول «ملكًا» لجعله «رجلًا»؛ أي على هيئة رجل من البشر؛ ليتمكن الناس من مخاطبته ويفهموا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾؛ ولهذا فحكمته عز وجل اقتضت أن يكون الرسل من البشر، وأن يكون الرسول من قومه وبلسانهم؛ رحمة منه وإعذارًا.

٢٨- أنه لو جعل الرسول ملكًا حسب اقتراح هؤلاء المكذبين، وجعل على هيئة رجل؛ لالتبس واختلط عليهم الأمر: أهو ملك أو رجل، كما لبّسوا على أنفسهم في تشكيكهم برسالة محمد ﷺ واقتراحهم إنزال ملك عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

٢٩- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه تجاه الكفار المستهزئين من قومه بأن هذا وقع لمن قبله من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٣٠- توافق أعداء الرسل من الكفرة والمكذبين على الاستهزاء بالرسل، كما قال

تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجر: ١١].

٣١- أن المصائب والابتلاءات إذا عمت خفت؛ لهذا ذكر الله عز وجل لنبيه ﷺ ما حصل من الأمم السابقة من استهزاء برسلهم؛ تسلية له ﷺ.

٣٢- التحذير والتهديد للمستهزئين بالنبي ﷺ بأن يحل بهم ما حل بالمستهزئين بالرسل من الأمم السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنبياء:٤١].

٣٣- أن الاستهزاء بالرسل سبب للعقوبة، موجب لعذاب الله تعالى.

٣٤- الحث على السير في الأرض والنظر والتأمل والتفكر في عاقبة المكذبين من الأمم السابقة، والاعتبار بما جرى لهم وما حل بهم من العقوبات، والحذر من التكذيب ومن مسالكهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾:

قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، ﴿لِّمَن﴾ اللام حرف جر و«من» اسم استفهام، ومعناه هنا التوبيخ، و«ما» موصولة، أي: قل يا محمد موبخًا لهؤلاء العادلين بربهم المشركين به، ومقررًا وملزمًا لهم بالتوحيد: لمن الذي في السموات والأرض من المخلوقات والعوالم؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؟

﴿قُل لِّلَّهِ﴾ أمره عز وجل أن يسألهم، وأمره أن يجيبهم مبادرًا ومقررًا بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾؛ لتعيُّن هذا الجواب اتفاقًا، أي: هو لله لا خلاف بيني وبينكم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقد يأتي الجواب في مثل هذا منهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم، واللام فيه للتمليك، والخبر مؤخر، والتقدير: قل لله ما في السموات والأرض، والجملة في محل نصب مقول القول.

وقدم الخبر للدلالة على الحصر والاختصاص، أي: لله تعالى وحده ذلك كله؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

وذلك يوجب إخلاص العبودية والألوهية له وحده، وفيه تقرير البعث وأن مرد الخلائق إليه وحده، وفيه إنكار على من عدلوا به غيره.

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾، أي: أوجب على نفسه الرحمة؛ تفضلًا منه وكرمًا، قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال ﷺ: «**إنّ الله لما خلق الخلق كتب كتابًا عنده فوق العرش: إنّ رحمتي تغلب غضبي**»، وفي رواية: «**سبقت غضبي**»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**لما قضى الله كتب بيده على نفسه في كتاب، فهو عنده موضوع فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي**»، وفي لفظ: «**سبقت غضبي**»[٢].

قال ابن القيم بعد ذكر هذا الحديث[٣]: «فتأمل كيف أكد هذا الطلب والإيجاب؛ بذكر فعل الكتابة، وصفة اليد، ومحل الكتابة، وأنه كتاب، وذكر مستقر الكتاب، وأنه عنده فوق العرش؛ فهذا إيجاب مؤكد بأنواع من التأكيد، وهو إيجاب منه على نفسه».

﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بدل من «الرحمة»، بدل بعض من كل، واللام واقعة في جواب قسم مقدر، أي: والله ليجمعنكم إلى يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٢)، ومسلم في التوبة- سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥١)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٤)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٣).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٤٢-١٤٣).

وقد أكد هذا الوعيد بلام القسم، والقسم المقدر، ونون التوكيد، فأقسم عز وجل بنفسه الكريمة؛ تعظيمًا لها على جمعه الخلائق إلى يوم القيامة، وهو سبحانه أصدق القائلين، وخبره أصدق الأخبار، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، «إلى» بمعنى اللام؛ كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥].

و«يوم القيامة» سمي بذلك؛ لقيام الناس فيه من قبورهم لربهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الروح فيه والملائكة صفًّا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨]، ولقيام الحساب فيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۝٤١﴾ [إبراهيم: ٤١]، ولقيام الأشهاد فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١]، ولقيام العدل الحقيقي فيه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وقد سمى الله تعالى ذلك اليوم «يوم الجمع»؛ لجمع الخلائق فيه، قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ [الواقعة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ﴾ [التغابن: ٩].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك فيه، أي: لا شك في وقوعه ومجيئه، ولا شك فيما يحصل فيه من الحساب والجزاء على الأعمال، ولا يجوز أن يشك فيه، وذلك عند أهل الإيمان؛ وأما أهل الجحود والتكذيب فهم في ريبهم يترددون.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، «الذين» مبتدأ، وخبره: ﴿فَهُمْ لَا

﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، وقرن بالفاء؛ لتضمن الموصول معنى الشرط.

ويحتمل كون «الذين» خبرًا لمبتدأ محذوف، والتقدير: أنتم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون، أي: لا يصدقون بالمعاد والقيامة وما يجب التصديق والإيمان به.

والخسارة والخسران: ضد الربح، وهو: ضياع رأس المال أو بعضه.

ومعنى ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، أي: أضاعوها، ومن خسر نفسه وأضاعها فقد خسر وأضاع كل شيء، وماذا عساه أن يبقى بعد خسارة النفس؛ فقد خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، خسروا أنفسهم وأهليهم وكل شيء، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢﴾ [هود: ٢١-٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وقال ﷺ: «**كلّ النّاس يغدو؛ فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها**»[(١)].

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾:

قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِّلَّهِ﴾ من قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾، و﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم؛ للدلالة على اختصاصه عز وجل بذلك، و«ما» اسم موصول، مبتدأ مؤخر، يفيد العموم، أي: وله عز وجل خاصة الذي سكن في الليل والنهار، أي: كل الذي استقر في الليل والنهار، أي: وله كل شيء؛ لأنه لا شيء من خلق الله تعالى إلا وهو ساكن في الليل والنهار ومستقر فيهما.

وقدم الجار والمجرور «له» للدلالة على الحصر، أي: وله وحده كل الذي سكن في الليل والنهار.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، «السميع» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على سعة سمعه عز وجل لجميع الأقوال والأصوات؛ سرها وجهرها، كما قال تعالى: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء.

قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها، فكان يخفى علي كلامها، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ الآية [المجادلة: ١]»(١).

فهو عز وجل «السميع»؛ سمع الصوت، وسمع الإجابة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ٣٩].

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على سعة علمه عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

فعلمه عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم؛ يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

سئل موسى عليه السلام عن القرون الأولى، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢]، أي: لا يعتري علمه جهل سابق، ولا نسيان لاحق سبحانه وتعالى.

فهو عز وجل السميع لأقوال عباده ولجميع الأقوال والحركات، وهو العليم بهم وبأعمالهم وبكل شيء، وهذا من تمام وكمال ملكه لما في السموات والأرض، ولما سكن في الليل والنهار.

وفي هذا وعد ووعيد؛ وعد لمن آمن وأطاع الله، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه؛ لأن مقتضى سمعه وعلمه بكل شيء محاسبته للعباد ومجازاته لهم بأعمالهم خيرها وشرها.

---

(١) أخرجه النسائي في الطلاق (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٨).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)﴾.

لما قرر عز وجل في الآيتين السابقتين أن له ما في السموات والأرض وما سكن في الليل والنهار؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ أتبع ذلك بتقرير وجوب إفراده بالعبودية والألوهية، مؤكدًا أيضًا تفرده بالربوبية، في إشارة إلى أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، الخطاب للنبي ﷺ، والهمزة للاستفهام، وهو هنا للإنكار والنفي، أي: قل للمشركين منكرًا عليهم إشراكهم بالله، ودعوتهم لك إلى اتخاذ معبود غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤)﴾ [الزمر: ٦٤]، وكما قال تعالى عن موسى عليه السلام وقومه: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠)﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ قدم المفعول الأول؛ وهو قوله: «غيرَ الله»؛ ليكون مواليًا للاستفهام؛ للاهتمام به؛ لأنه المقصود بالإنكار.

﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، أي: أغير الله من هذه المخلوقات العاجزة أجعل ﴿وَلِيًّا﴾، أي: معبودًا أرجوه لجلب النفع ودفع الضر، أي: لا أتخذ وليًّا إلا الله وحده، والمقصود من هذا: الإنكار عليهم في إشراكهم بالله واتخاذهم أولياء غيره.

﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الجملة في محل جر صفة للجلالة، مؤكدة للإنكار، أي: خالق السموات والأرض ومبدعهما على غير مثال سبق.

عن مجاهد: سمعت ابن عباس يقول: «كنت لا أدري ما: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها»[(١)].

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنه يُطعِم ولا يُطعَم، أي: أنه

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ١٧٥).

سبحانه يطعم جميع الخلق، أي: يرزقهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤].

﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾، أي: ولا يُطعَم لغناه بنفسه عن الخلق، وعن الطعام، فهو عز وجل الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وفي الحديث: «**الحمد لله الّذي يُطعِم ولا يُطعَم، ومنَّ علينا وهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكلّ بلاءٍ حسنٍ أبلانا، الحمد لله غير مودّعٍ، ولا مكافأٍ، ولا مكفورٍ، ولا مستغنًى عنه، الحمد لله الّذي أطعمنا من الطّعام، وسقانا من الشّراب، وكسانا من العري، وهدانا من الضّلال، وبصّرنا من العمى، وفضّلنا على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلًا، الحمد لله ربّ العالمين**»[1].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «**الحمد لله الّذي أطعمنا، وسقانا، وكفانا، وآوانا؛ فكم ممّن لا كافي له ولا مؤوي**»[2].

وفي الآية احتجاج على المشركين بما هو مسلم عندهم من كونه عز وجل الرب الخالق المالك الرازق؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤] فكيف يعبدون غيره؟!

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾؛ بعد أن ذكر الأمر بتحقيق الربوبية بقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أتبعه بالأمر بتحقيق العبودية، فقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، أي: قل معلنًا للناس جميعًا: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾.

---

(١) أخرجه الحاكم في الدعاء (١/ ٥٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٥)، وأبو داود في الأدب (٥٠٥٣)، والترمذي في الدعوات (٣٣٩٦).

وبني الفعل لما لم يسم فاعله؛ لأن الآمر معلوم، وهو الله عز وجل، أي: أمرني ربي ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، أي: من هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٣]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أي: أمرت أن أكون أول من استسلم لله بالتوحيد، وأخلص له الإيمان باطنًا، وانقاد لطاعته ظاهرًا؛ من هذه الأمة، بالإسلام الخاص الذي بعثت به بالقرآن الكريم.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾، أي: قل هذا ولا تكونن من المشركين، أي: وقيل لي: ولا تكونن من المشركين.

وهكذا كان ﷺ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وفي الآية ترغيب وحث على الامتثال، وإرشاد إلى أنه ينبغي أن يكون الآمر بالخير عاملًا به، وأن يكون الناهي عن الشر مبتعدًا عنه.

والأمر والنهي له ﷺ أمر ونهي لأمته، كما أن فيها تيئيسًا للمشركين من عودته إلى دينهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالإشراك به، وعدم الاستسلام له، ومخالفة أمره، وارتكاب نهيه.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٤-٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج: ١].

وفي إضافة العذاب إلى ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تعظيم وتهويل للعذاب، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩]؛ فعظمة اليوم تستلزم عظمة العذاب، وعظمة العذاب تستلزم عظمة اليوم الذي يقع فيه.

وفي الآية تعريض بأن المشركين مستوجبون للعذاب العظيم في ذلك اليوم العظيم.

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب، وخلف: «يَصرِف» بفتح الياء وكسر الراء، وقرأ الباقون: ﴿يُصْرَفْ﴾ بضم الياء وفتح الراء.

و﴿مَّن﴾ شرطية. و﴿يُصْرَفْ﴾ فعل الشرط، ومعنى ﴿يُصْرَفْ عَنْهُ﴾، أي: يصد ويبعد عنه عذاب ذلك اليوم. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: في ذلك اليوم.

﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«قد» التي للتحقيق، أي: فقد رحمه ربي، ونجاه من العذاب، وأنعم عليه بدخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الشورى: ٨].

﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾، الإشارة بـ«ذلك» إلى صرف العذاب عنه ورحمته إياه.

و﴿ٱلْفَوْزُ﴾ الفلاح والظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب؛ الفوز بالجنة، والنجاة من النار؛ كما قال: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿ٱلْمُبِينُ﴾ اسم فاعل من «أبان» اللازم، بمعنى «بان»، أي: ظهر، أي: الفوز البين الظاهر. ويجوز أن يكون من «أبان» المتعدي، بمعنى «أظهر»، أي: المُظْهِر لمن حصل له ذلك بأنه فائز.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

هذا دليل آخر على تفرده عز وجل بالربوبية، المستلزم إفراده بالعبودية والألوهية.

قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، الخطاب عام للنبي ﷺ ولغيره، أي: وإن يصبك الله بضر.

و«ضر» نكرة في سياق الشرط؛ فيعم كل ضر مهما كان، والضر: ما يتضرر به الإنسان؛ في البدن، والعقل، والمال؛ من مرض، وفقر، وشدة، وغير ذلك.

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، الفاء واقعة في جواب الشرط «إن»؛ أي فلا رافع لهذا

الضر ولا مزيل له إلا هو عز وجل؛ لأنه عز وجل مالك الضر والنفع، بيده الخلق والملك والتدبير.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ معطوفة على الشرطية السابقة، أي: وإن يصبك الله بخير، و«خير» نكرة في سياق الشرط تعم كل خير، وهي هنا في مقابل «ضر»، أي: وإن يصبك بخير من صحة، وغنى، ورخاء، وأمن، وغير ذلك.

﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فهو ذو القدرة التامة على كل شيء، مالك الضر والنفع، بيده الخلق والملك والتدبير، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

وقال ﷺ: **«اللّهمّ لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطي لما منعتَ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدُّ»**(١).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(٢).

وقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جعل جوابًا للشرط ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾؛ لأنه علة للجواب المحذوف والجواب المذكور في الشرطية الأولى، والتقدير: وإن يمسسك الله بخير فلا مانع له؛ لأنه على كل شيء قدير؛ من الضر والنفع وغير ذلك، الذي يستحق وحده أن يفرد بالعبودية والألوهية.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ تعريف المبتدأ والخبر؛ للدلالة على الحصر، أي: وهو القاهر وحده، فلا قاهر بالمعنى العام إلا هو.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٤)، ومسلم في المساجد (٥٩٣)، وأبو داود في الصلاة (١٥٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٤١)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وقال: «حسن صحيح».

و«القاهر»: ذو الغلبة والقوة والسلطان التام؛ فلا يفلت من قدرته، ولا من قبضته، ولا من قدره وتدبيره- أحد.

﴿فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾، «فوق» ظرف متعلق بالقاهر، أي: القاهر فوق عباده بذاته، فهو سبحانه وتعالى عال على خلقه وفوقهم، وهو القاهر فوق عباده بصفاته ونفوذ أمره فيهم، فله عز وجل العلو المطلق؛ علو الذات، وعلو الصفات.

والمراد بالعبودية هنا: العبودية العامة لجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: ٩٣].

﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾، «الحكيم» اسم من أسماء الله عز وجل، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ في خلقه وقضائه وأمره الكوني، وفي قضائه وأمره ونهيه الشرعي، وفي كل ما يفعل؛ له الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي؛ وله الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ محكم متقن لكل ما خلق وقدر وشرع.

﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، أي: ذو الخبرة التامة والعلم الواسع بكل شيء، وهو أخص من «العليم».

و«الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفيّاتها؛ وعلى هذا فاطلاعه على ظواهر الأمور وجلائلها وجليّاتها من باب أولى.

فهو عز وجل الخبير فيما خلق وقدر وشرع، وفيما أعطى ومنع، المطلع على العباد وأعمالهم، المحاسب والمجازي لهم؛ وفي هذا وعد لمن أطاع ووعيد لمن عصى.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة ما يدل على كمال ربوبيته وإلهيته، وصدق رسوله ﷺ فيما جاء به من الآيات، والدعوة إلى إخلاص العبادة لله تعالى، وتقرير البعث، وغير ذلك؛ ثم أتبع ذلك ببيان أن أكبر شهادة على صدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله هي شهادة الله عز وجل.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء المشركين المنكرين للبعث، المكذبين لما جئت به من الآيات والحق.

﴿أَيُّ شَيْءٍ﴾، ﴿أَيُّ﴾ اسم استفهام للتقرير؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤].

﴿أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾، أي: أعظم وأقوى وأعدل شهادة على صدق رسالتي وما جئت به من الحق وعلى كل شيء؛ لأنها مبنية على علم ويقين وعدل.

﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: قل الله أكبر شهادة، وهو شهيد بيني وبينكم على صدق رسالتي وما جئتكم به من الحق، وما أنتم قائلون لي، وكفى به عز وجل شهيدًا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ [هود: ٥٤].

وقد أمر عز وجل نبيه ﷺ بالسؤال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾، وبالجواب بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ لأن المراد بذلك التقرير، وهو مما لا يصح إنكاره.

كما ذكر في الآية الأخرى شهادته وشهادة الملائكة، فقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

وفي الآية الثالثة ذكر شهادته عز وجل وشهادة علماء أهل الكتاب، فقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٣].

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاء النحّام بن زيد، وقردم بن كعب، وبحري بن عمرو، فقالوا: يا محمد، ما تعلم مع الله إلهًا غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا إله إلا الله، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو**»، فأنزل الله تعالى فيهم وفي قولهم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾»[1].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٨٥).

قال ابن القيم[1] في كلامه على الآية: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، «المراد شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته؛ فإن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: من يشهد على ما تقول؟ فأنزل الله سبحانه آيات شهادته له، وشهادة ملائكته، وشهادة علماء أهل الكتاب به».

فهو عز وجل شهيد له ﷺ قولًا، وهو شهيد له بما أقام من الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه، وبتأييده له ﷺ وتقريره له، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾؛ بُني الفعل «أوحي» لما لم يسم فاعله؛ لأن الموحي هو الله عز وجل، أوحى هذا القرآن إلى النبي ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء.

وفي الشرع: وحي الله لأحد من البشر بشريعة ليبلغها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

و«القرآن» مصدر بمعنى الفاعل، مأخوذ من «القرء» وهو الجمع؛ لأنه يجمع سورًا وآيات كثيرة.

وهو أيضًا بمعنى اسم المفعول، بمعنى: مقروء، وفي الإشارة إليه بقوله: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ تعظيم له.

﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن أنذركم، أي: أحذركم وأخوفكم به، أي: بالقرآن، وما فيه من الوعيد والتهديد لمن خالف أمر الله. واقتصر على الإنذار دون البشارة؛ لأن الخطاب مع الكفار.

﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ الواو عاطفة، و«من» موصولة، أي: والذي بلغه، أي: ولأنذر به من

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٤٣).

بلغه، فكل من بلغه القرآن وفهم خطابه فهو مُنْذَر به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، والنون للتوكيد، واللام في قوله: ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ للابتداء وتفيد التوكيد، فأكد هذا الإنكار بمؤكدين: نون التوكيد، واللام؛ لتسفيه عقولهم، حيث خالفوا بشهادتهم الباطلة ما اتفق عليه العقلاء، وما دلت عليه العقول السليمة والفطر المستقيمة.

والمعنى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ بفعلكم، بإشراككم بالله وعبادتكم غيره، وبقولكم؛ كما في قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٥-٧].

﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ جواب الاستفهام في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾، أي: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون، بل أنفي شهادتكم، كما قال تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بيان لجملة: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾.

وكرر الأمر بالقول لأهمية الموضوع؛ فأمره أولًا بنفي شهادتهم، ثم أمره ثانيًا بإثبات شهادته أن الله إله واحد، و«إنما» أداة حصر، والضمير يعود إلى «الله»، أي: ما الله إلا إله واحد، لا يستحق الألوهية والعبودية سواه، وبهذا أشهد، وهو الحق، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ [الزخرف: ٨٦].

﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: وإنني بريء من الذي تشركون به مع الله، أو من شرككم أو إشراككم مع الله الأصنام والأوثان وغير ذلك. فأكد وحدانية الله عز وجل بأداة الحصر «إنما»، وبالتصريح بوحدانيته والبراءة من الشركاء ونبذ الشرك وإنكاره.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾.

ذكر الله عز وجل أن أكبر شهادة وأعظم شاهد هو الله عز وجل؛ بينه ﷺ وبين قومه، على صدق ما جاء به من الحق، ثم أتبع ذلك ببيان أن أهل الكتاب يعرفونه ﷺ ويعرفون الحق الذي جاء به كما يعرفون أبناءهم لو شهدوا بالحق.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ﴾، المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اليهود والنصارى؛ فاليهود أوتوا التوراة، والنصارى أوتوا الإنجيل.

﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾، أي: يعرفون النبي ﷺ وأنه حق وما جاء به حق؛ معرفة تامة كما يعرفون أبناءهم.

وخص الأبناء؛ لأن تعلق الأب بالأبناء ومجالستهم له أكثر- غالبًا- فمعرفته بهم أكثر من معرفته بالبنات. ومن وجه آخر خص الأبناء؛ لأن النبي ﷺ ذكر فهو من الأبناء.

فهم يعرفونه ﷺ بصفاته، وأن ما جاء به هو الحق؛ لما في كتبهم من نعته والبشارة والتصديق به؛ كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦]، فكتبهم مخبرة ومبشرة به، وهو مصداق ما أخبرت وبشرت به؛ وإن كان أكثرهم كتموا ذلك وأنكروه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة: ١٤٦-١٤٧].

وقد شهد بصدقه وصدق ما جاء به بعض منهم؛ كعبد الله بن سلام وغيره.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، «الذين» مبتدأ، وخبره جملة: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، ودخلت الفاء عليه؛ لشبه الموصول بالشرط. ويحتمل كون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعتًا لـ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

أي: الذين خسروا أنفسهم من أهل الكتاب والمشركين بتكذيبه ﷺ وما جاء به من الحق، أي: الذين خسروا كل الخسارة؛ لأن من خسر نفسه فقد فاته الربح، وخسر رأس المال من باب أولى؛ وأي ربح يرتجى بعد خسران المرء نفسه؟!

﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: فهم لا يؤمنون برسالته ﷺ وما جاء به من الحق.

وهذا هو سبب خسرانهم؛ فخسروا أنفسهم بحرمانها السعادة في الدنيا بالإيمان والتوحيد، وحرمانها السعادة في الأخرى بالجنات والنعيم، وأوبقوها بالكفر في الشقاء في الدنيا والآخرة، والمصير إلى النار والعذاب الأليم.

قولــــــه تعــــــالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة عن الكفار إشراكهم بالله عز وجل وتكذيبهم بآياته، ثم بيَّن أنه لا أظلم ممن فعل هذا.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ الواو استئنافية، و«من» اسم استفهام، ومعناه النفي، و«من» في قوله: ﴿مِمَّنِ﴾ موصولة.

والمعنى: لا أحد أظلم من الذي افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ﴾ [الزمر: ٣٢].

والنفي إذا جاء بصيغة الاستفهام يكون أبلغ؛ لأنه يكون مشربًا بالتحدي.

و«الظلم» معناه النقص، كما قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئًا.

وهو أيضًا: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

و«الافتراء»: الاختلاق، فمعنى ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: اختلق الكذب وتقوَّله على الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٢].

فادعى أن لله شريكًا أو ولدًا، أو ادعى أنه مرسل من عنده وهو كاذب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣].

و«كذبًا» نكرة؛ فيعم أي كذب؛ قليلًا كان أو كثيرًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾، أي: أو كذب بآياته الكونية أو الشرعية، وجحدها وأنكرها.

و«أو» عاطفة تدل على التقسيم والتنويع، أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨].

ولا أحد أظلم ممن كذب بآياته، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧].

فكيف بمن جمع بين الأمرين: الافتراء على الله كذبًا، والتكذيب بآياته؛ كما هو حال هؤلاء المذكورين؛ افتروا على الله الكذب بدعوى أن له شريكًا، وكذبوا بآيات القرآن الكريم؛ فهم أشد وأعظم ظلمًا.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الجملة مستأنفة، فيها معنى التعليل، أي: لأنه لا يفلح الظالمون الذين ظلموا بافتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته.

أي: لا يفوزون بالمطلوب ولا ينجون من المرهوب، بل يحرمون في الدنيا السعادة والتوفيق للإيمان والعمل الصالح، ويحرمون في الآخرة السعادة والتوفيق لدخول الجنة والنجاة من النار.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «إنهم لا يفلحون»؛ للتسجيل عليهم ببلوغهم غاية الظلم؛ لقوله: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ بالتعريف.

وليشملهم هذا الوعيد وغيرهم من الظالمين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود: ١٠٢].

وقال ﷺ: «**إنّ الله ليملي للظّالم حتى إذا أخذه لم يفلته**». ثم قرأ: «﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تقرير أن لله عز وجل ما في السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣)، والترمذي في التفسير (٣١١٠)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٨)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

٢- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ الآية.

٣- سعة ملك الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله عز وجل العامة لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ مما يوجب التعلق به وحده وعبادته دون سواه.

٥- أن الله عز وجل كتب وأوجب على نفسه الرحمة؛ تفضلًا منه وكرمًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾ [الأعراف: ١٥٦].

٦- إثبات صفة الرحمة لله تعالى؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

٧- أن الله عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه عقلًا؛ كما تقول المعتزلة، وإنما يوجب على نفسه ما شاء؛ تفضلًا منه وكرمًا، ولا مكره له، ولا موجب عليه.

٨- جواز إطلاق لفظ النفس عليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، والمراد ذاته عز وجل.

٩- إثبات المعاد، وجمع العباد وحشرهم، ويوم القيامة، والحساب والجزاء، وأن ذلك حق لا شك فيه، ولا يجوز أن يرتاب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

١٠- تأكيد الخبر بالقسم وبغير ذلك من المؤكدات في القرآن الكريم؛ جريًا على ما كان عليه العرب من تأكيد الأخبار بذلك.

١١- أن الذين خسروا أنفسهم حقًّا هم الذين لا يؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

١٢- أن الربح كل الربح في الإيمان والتصديق برسالة النبي ﷺ وما جاء به من القرآن، والخسران كل الخسران في عدم الإيمان بذلك.

١٣- أن لله عز وجل وحده كل الذي سكن في الليل والنهار، أي: له كل شيء سبحانه؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

١٤- إثبات اسم الله عز وجل «السميع»، وأنه سبحانه ذو السمع الواسع لجميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

١٥- إثبات اسم الله عز وجل «العليم»، وأنه سبحانه ذو العلم الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ [طه: ٩٨].

١٦- الإنكار على المشركين دعوتهم له ﷺ إلى اتخاذ وليٍّ غير الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾.

١٧- أمر الله عز وجل له ﷺ بأن يعلن تحقيق الربوبية، وأنه لا يتخذ غير الله وليًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ وتقرير وبيان أن له عز وجل ما في السموات والأرض، وما سكن في الليل والنهار؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا، وأن له كمال الربوبية، وذلك يستلزم أن يكون له كمال الإلهية.

١٨- يجب على كل مؤمن الحذر من اتخاذ ولي غير الله عز وجل؛ أسوة به ﷺ.

١٩- أن من أعظم دلائل ربوبيته عز وجل وتمام قدرته: خلق السموات والأرض وإبداع خلقهما على غير مثال سبق، وكونه المطعم الرازق لخلقه، الغني عنهم وعن الطعام؛ لقوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾.

٢٠- أن المطعم الرازق للخلق كلهم هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ﴾،

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]؛ مما يوجب التعلق به عز وجل وحده، مع فعل الأسباب.

٢١- غنى الله عز وجل التام عن الخلق وعن الطعام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾.

٢٢- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بأن يكون أول من أسلم من هذه الأمة، وانقاد لدين الإسلام بمعناه الخاص الذي بعث به ﷺ، ونهيه عن الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وهكذا فعل؛ قال ﷺ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٣]، وقال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وفي هذا رد على الذين يغلون به ﷺ، ويجعلون له حقًّا في الربوبية، ويصرفون له شيئًا من العبادة كالدعاء وغيره.

٢٣- ينبغي أن يكون الداعي إلى الخير والناهي عن الشر أول من يعمل بما يدعو إليه، ويحذر مما ينهى عنه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٢٤- وجوب إخلاص الدين لله والاستسلام له، والبراءة من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

والأمر والنهي له ﷺ أمر ونهي لأمته.

٢٥- عظم أمر التوحيد ووجوب إخلاصه؛ استسلامًا لله تعالى، وبراءة من الشرك.

٢٦- أن الرسول ﷺ يخاف شؤم المعاصي وعذاب يوم القيامة، ومن باب أولى غيره من الرسل؛ لأنهم بشر مأمورون منهيون كغيرهم، وليس بين الله وبين أحد من الخلق نسب؛ لقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

٢٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وفي التعبير باسم أو وصف الربوبية إشارة إلى وجوب شكره على ربوبيته ونعمه، والبعد عن معصيته.

٢٨- وجوب البعد عن معصية الله، والخوف من عذاب يوم القيامة.

٢٩- عظم يوم القيامة وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

٣٠- أن من صُرف عنه عذاب ذلك اليوم العظيم فقد رحمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ﴾، ومفهوم هذا أن من لم يصرف عنه عذاب هذا اليوم فقد عذبه.

٣١- إثبات الرحمة الفعلية لله تعالى التي يوصلها إلى من شاء من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ ﴾.

٣٢- أن الفوز البين الظاهر لمن صُرف عنه عذاب ذلك اليوم العظيم ورحمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

٣٣- أن ما يصيب الإنسان من ضر هو بتقدير الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾.

٣٤- أنه لا كاشف للضر إلا الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾؛ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠].

مما يوجب اللجوء إليه وحده ورجاءه، مع فعل الأسباب.

وهذا بخلاف ما عليه كثير من الناس اليوم؛ يعتمدون على الأسباب، ويغفلون عن التوجه إلى من بيده كشف الضر، وهو مسبب الأسباب سبحانه وتعالى.

٣٥- أن ما يحصل للإنسان من خير فهو من الله عز وجل وبتقديره، ولا مانع له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]؛ فيجب طلب الخير منه، والتعلق به وحده، مع فعل الأسباب.

٣٦- قدرة الله تعالى التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، فهو عز وجل ذو قدرة تامة على كل شيء؛ من تقدير الضر، وكشفه، وجلب الخير، وغير ذلك. وهذا دليل آخر على كمال ربوبيته، يستلزم إخلاص العبادة له وحده.

٣٧- إثبات اسم الله تعالى «القاهر»؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾، وإثبات ما يدل

عليه من أنه عز وجل ذو القهر والقوة والغلبة والسلطان التام والحكم النافذ.

٣٨- إثبات الفوقية والعلو لله تعالى على خلقه؛ فله عز وجل علو الذات؛ فهو عال فوق خلقه بذاته، وله علو الصفات؛ فهو عال فوق خلقه بصفاته، ونفوذ أمره فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

٣٩- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

٤٠- إثبات اسم الله عز وجل «الحكيم»، وأنه سبحانه ذو الحكم التام؛ الكوني، والشرعي، والجزائي، وذو الحكمة البالغة؛ الغائية، والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾، ومقتضى هذا الرضا والتسليم بكل ما قدر وشرع وحكم وأمر.

٤١- إثبات اسم الله عز وجل «الخبير»، وأنه سبحانه ذو الخبرة والعلم الواسع والاطلاع التام؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾، فهو عز وجل الخبير المطلع على كل شيء، ومن ذلك أحوال العباد وأعمالهم. وفي هذا وعد بالجزاء الحسن لمن أحسن، ووعيد لمن أساء.

٤٢- جواز إطلاق لفظ «شيء» على الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ وكما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

٤٣- أن شهادة الله أكبر شهادة وأعظمها وأعدلها، وهو سبحانه أكبر شهيد، وأعظم شهيد، وأعدل شهيد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾؛ وكما قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

٤٤- أن الله أكبر شهيد بين النبي ﷺ وبين أمته؛ على صدق رسالته، وما جاء به من الحق، وعلى ما هم قائلون له، وحاكم بينه وبينهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

٤٥- إثبات رسالته ﷺ، وأن الله عز وجل أوحى إليه هذا القرآن لينذر به؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

٤٦- عظمة القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، أي: هذا القرآن العظيم، ويكفي في عظمته أن الله تعالى أوحاه إلى نبيه ﷺ.

٤٧- أن الله عز وجل أوحى القرآن إلى النبي ﷺ لينذر به؛ لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم

بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، كما أن فيه البشارة؛ فهو نذير للكافرين، وبشير للمؤمنين. وإنما اقتصر على النذارة هنا لأن الكلام مع المكذبين والمشركين.

٤٨- عموم رسالته ﷺ، وأن كل من بلغه القرآن فهو منذر به؛ لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

٤٩- أن من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة إذا كان يفهم خطابه؛ ولو بالمعنى، أما من بلغه القرآن لكنه لا يفهم خطابه ولم يبين له ذلك فقد يعذر.

وما أكثر الخلق الذين هم بهذه الصفة؛ مما يوجب على المسلمين- وبخاصة علماؤهم وحكامهم- بذل ما يستطيعون في تبليغ القرآن، وبيان معانيه وأحكامه، وترجمتها لمن لا يعرف اللغة العربية؛ إبراءً للذمة، وإقامةً للحجة.

٥٠- الإنكار على المشركين إشراكهم بالله تعالى في أقوالهم وأفعالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰ﴾.

٥١- براءته ﷺ مما شهد به المشركون من أن مع الله آلهة أخرى، ومما هم عليه من الشرك، وإعلانه ألوهية الله عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، وهكذا يجب على أتباعه المؤمنين البراءة من الشرك وأهله.

٥٢- توبيخ أهل الكتاب في إنكارهم رسالته ﷺ، مع قيام الحجة عليهم بكونهم يعرفونه معرفة تامة كما يعرفون أبناءهم، وأن ما جاء به حق؛ لما في كتبهم من نعته والبشارة به؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ﴾.

قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

لكنهم يكتمون الحق فلا يشهدون به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: ١٤٦].

٥٣- أن من لم يؤمن ويصدق الرسول ﷺ وما جاء به من الحق من أهل الكتاب

والمشركين وغيرهم؛ فقد خسر نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وهذا غاية الخسران، فماذا بعد خسران النفس؟! ولهذا قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: ١٥].

٥٤- أن غاية الربح في الإيمان برسالته ﷺ وبما جاء به من الحق؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

٥٥- أنه لا أظلم ممن افترى على الله كذبًا بالإشراك به أو بادعاء أن الله أرسله وهو كاذب، أو كذب بآياته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾.

٥٦- أن الظلم بعضه أشد من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾.

٥٧- أن الظالمين لا يفلحون أبدًا؛ فلا يفوزون بالمطلوب، ولا ينجون من المرهوب، بل يحرمون في الدنيا التوفيق للإيمان والعمل الصالح، ويحرمون في الآخرة الجنة ونعيمها، ويبوؤون النار وجحيمها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٥٨- التحذير من الظلم بافتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته أو غير ذلك؛ لأن عاقبة ذلك الخسران. ووجوب الصدق، والتصديق بآيات الله، والعدل؛ لأن عاقبة ذلك الربح والفلاح.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢].

قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ﴾؛ قرأ يعقوب بالياء في «يحشرهم» و«يقول»، وقرأ الباقون بالنون فيهما: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ و﴿نَقُولُ﴾.

و«يوم» منصوب بفعل محذوف للتهويل، تقديره: اذكر، و«الحشر»: الجمع، أي: ويوم نحشر الخلائق إنسهم وجنهم، ونجمعهم كلهم.

﴿جَمِيعًا﴾ حال، أي: هم وشركاؤهم من دون الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الفرقان: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾، أي: للذين أشركوا بالله.

﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، «أين» اسم استفهام، ومعناه هنا التقريع والتوبيخ والتبكيت والتنديم، أي: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون كذبًا أنهم شركاء مع الله؟

و«الزعم»: الادعاء الكاذب- غالبًا- الذي ليس عليه دليل، أي: الذين تدّعون كذبًا أنهم شركاء مع الله، وأنهم يشفعون لكم وينصرونكم. وفي هذا تيئيس لهم من نفع هؤلاء الشركاء لهم، أي: أنهم لن ينفعوكم، ولن يدفعوا عنكم عذاب هذا اليوم.

كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٢٨﴾ [الأحقاف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٩٤﴾ [الأنعام: ٩٤].

وليس معنى الآية أن شركاءهم لم يحشروا معهم، بل هم محشورون معهم؛ كما دل عليه قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، وقوله: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٢٢﴾ [الصافات: ٢٢]، وغير ذلك من الآيات.

ولكن معنى الآية أن وجود هؤلاء الشركاء وعدمه سواء؛ لأنهم لا يملكون شفعًا ولا نصرًا، ولا نفعًا ولا ضرًّا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب بالياء على التذكير: «يكن»، وقرأ الباقون على التأنيث: ﴿تَكُن﴾.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص برفع التاء: ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ على أنه اسم (كان)، وخبره: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾، وقرأ الباقون بالنصب: «فتنتَهم» على أنه خبر (كان)، وقدم للحصر.

والمعنى: ثم لم تكن حجتهم ومعذرتهم وجوابهم عند امتحانهم بهذا السؤال.

﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بنصب الباء «ربَّنا» على النداء، أي: يا ربنا. وقرأ الباقون بالخفض: ﴿رَبِّنَا﴾ على أنه صفة للفظ الجلالة.

و«إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر، أي: إلا قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، و«ما» نافية.

أي: ما كان قولهم إلا أن أقسموا بالله ربهم أنهم ما كانوا مشركين، أي: إلا إنكار ما كانوا عليه من الشرك؛ ففتنوا في الدنيا بالشرك، وفتنوا في الآخرة بالكذب.

فأقسموا بالله تعالى، وبذكر صفة الرب مضافة إلى ضميرهم؛ مبالغة منهم في التنصل

من الشرك، أي: لا رب لنا غيره، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾ [غافر: ٧٣-٧٤]، ومن مات على شيء بعث عليه؛ فماتوا مفتونين، وبعثوا مفتونين.

عن سعيد بن جبير قال: أتى رجل ابن عباس فقال: قال الله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۝٤٢﴾ [النساء: ٤٢]. قال ابن عباس: «أما قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ فإنه لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام؛ فقالوا: تعالوا نجحد. قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۝٤٢﴾ [النساء: ٤٢]»[1].

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٢٤﴾.

قوله: ﴿ٱنظُرْ﴾، أي: انظر أيها الرسول، أو أيها السامع، أي: انظر بقلبك وتأمل متعجبًا منهم ومن حالهم.

﴿كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ عبر بالماضي في قوله: ﴿كَذَبُوا۟﴾، وفي قوله: «ضل»؛ لتحقق وقوعه، أي: كيف أخبروا عن أنفسهم بخلاف الواقع، وبالكذب الذي يعود عليها بالضرر والخسران!

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، «ضل» زال وغاب، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠].

أي: غُيبنا فيها ودفنا، و«ما» مصدرية أو موصولة. ﴿يَفْتَرُونَ﴾، أي: يختلقون ويكذبون.

والمعنى: وزال وغاب عنهم افتراؤهم واختلاقهم الشرك ورجاؤهم شفاعة الشركاء ونصرهم لهم، كما غاب عنهم أولئك الشركاء الذين كانوا يشركونهم مع الله

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، سورة حم السجدة، معلقًا عن ابن عباس رضي الله عنهما، والطبري في «جامع البيان» (٧/ ٤٢، ٩/ ١٩٤).

تعالى فلم يقدموا لهم نفعًا أو دفعًا- وإن كانوا معهم في الحشر سواء.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر في الآيات السابقة حالهم يوم حشرهم ومآلهم، وما يحصل لهم من التبكيت والتقريع والتنديم، ثم أتبع ذلك بذكر سبب ما آلوا إليه من سوء الحال، وهو ما كانوا عليه في الدنيا من الإعراض والكفر والتكذيب.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، الواو استئنافية، و«من» في قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ تبعيضية، ﴿مَّن يَسْتَمِعُ﴾، «من» موصولة، وأفرد ﴿يَسْتَمِعُ﴾؛ مراعاة لمعنى «من». والخطاب للنبي ﷺ، أي: وبعض من هؤلاء المشركين الذي يستمع ويصغي إليك عند قراءتك القرآن وفي دعوتك، لكن من غير تدبر، ومن غير قصد للحق واتباعه؛ ولهذا لا ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦].

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الواو عاطفة أو حالية، أي: وجعلنا كونًا وقدرًا، أي: صيرنا أو خلقنا على قلوب هؤلاء المشركين والكفرة ﴿أَكِنَّةً﴾، أي: أغطية وأغشية.

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، «أن» تعليلية، أي: لئلا يفقهوه، والضمير يعود إلى القرآن المفهوم من قوله: ﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.

أي: حتى لا يفهموا القرآن؛ لأنهم لا خير فيهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣].

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أي: وجعلنا في آذانهم وقرًا، و«الوقر»: الثقل والصمم، أي: وجعلنا في آذانهم ثقلًا وصممًا، فلا يسمعون سماع استفادة وانتفاع، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ

﴿لَا يَعْقِلُونَ ۝١٧١﴾ [البقرة: ١٧١].

فجعل الله عز وجل على قلوبهم أغطية؛ فلا يفهمون القرآن فَهْم تَدَبُّرٍ، وجعل في آذانهم صممًا؛ فلا يسمعونه سماع انتفاع، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥].

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾، أي: وإن يشاهدوا كل آية شرعية أو كونية لا يصدقوا بها، مهما شاهدوا من الآيات؛ لشدة ظلمهم وعنادهم، أي: أنهم قد تعطلت لديهم جميع وسائل وصول الخير إلى أنفسهم؛ فقلوبهم عليها أكنة فلا يفقهون، وآذانهم فيها صمم فلا يسمعون، ومهما رأوا من الآيات فهم بها لا يؤمنون، فكأنهم لا يبصرون، كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾، «حتى» للغاية، أي: حتى إذا جاؤوك جادلوك، و«إذا» ظرفية شرطية، وجملة ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ في محل نصب على الحال، أي: حال كونهم يجادلونك، أي: يحاجونك بالباطل.

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ جواب «إذا»، أي: يقول الذين كفروا بآيات الله وكذبوها في مجادلتهم ومحاجتهم لك.

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، ولم يقل: «يقولون»؛ لزيادة التسجيل عليهم بالكفر، وأن من تفوّه بهذه المقالة فهو كافر مثلهم.

﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾، «إن» نافية بمعنى «ما»، أي: ما هذا، يعنون القرآن الكريم.

﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: ما هذا القرآن الذي جئت به يا محمد ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

و«الأساطير» جمع «أسطورة»، وهي الحكايات والقصص التي سطرها الأولون في كتبهم ونقلها بعضهم عن بعض، مما لا حقيقة له، بل أكثرها خرافات.

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٦﴾.

قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، الضمير «وهم» يعود إلى المشركين والكفار من أهل مكة، والضميران في ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ يعودان إلى القرآن المشار إليه في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أو يعودان إلى الرسول ﷺ وما جاء به من الحق.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾؛ يعني: ينهون الناس عن محمد أن يؤمنوا به، ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾؛ يعني: يتباعدون»[1].

أي: وهم ينهون الناس عن استماع القرآن وتصديق الرسول واتباع ما جاء به من الحق، ويحذرونهم من ذلك بشتى الوسائل، بل ويمنعونهم من الدخول في الإسلام، ويعذبون من أسلم ليرجع عن دينه.

﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، أي: ويتباعدون عنه، والنأي: البعد. قال الشاعر:

أَلَا حَبَّذَا هِنْدٌ وَأَرْضٌ بِهَا هِنْدُ ... وَهِنْدٌ أَتَى مِنْ بَعْدِهَا النَّأْيُ وَالبُعْدُ

وبين «ينهون» و«ينأون» جناس قريب من التام.

والمعنى: ويتباعدون بأنفسهم عن الانقياد للقرآن، وتصديق الرسول ﷺ، واتباع ما جاء به من الحق؛ فيجمعون بين الضلال والإضلال. وقدم نهيهم عنه على ابتعادهم عنه؛ إشارة إلى شدة كراهتهم له.

وروي أن هذه الآية نزلت في أبي طالب، كان ينهى عن النبي ﷺ أن يؤذى، وينأى عنه، أي: ويبتعد عن اتباعه[2].

والصحيح الأول؛ لأن الآية في سياق الذم للنهي عنه والنأي عنه؛ لقوله بعده: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، فهذا وما بعده أدل على القول الأول، أي: وإن يهلكون بهذا المسلك- وهو نهيهم عن اتباع الحق، ونأيهم بأنفسهم عنه- إلا أنفسهم.

والجملة في محل نصب على الحال، و«إن» نافية بمعنى «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: وما يهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم، فضرر ذلك عائد على أنفسهم لا إلى الرسول ﷺ وما

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٧٧، ١٢٧٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٠٣-٢٠٥)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٢٧٦-١٢٧٨).

جاء به من الحق؛ فهو ﷺ منصور، ودينه مؤيد محفوظ بإذن الله، وفي هذا تسلية له ﷺ.

وليس المراد بالهلاك في الآية الهلاك الحسي بالموت؛ فهذا وإن كان مصيبة فأمره يهون، وكل الناس صائرون إليه، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

قال الشاعر:

فَهُنَّ المَنَايَا أَيَّ وَادٍ سَلَكْتُهُ ... عَلَيْهَا طَرِيقِي أَوْ عَلَيَّ طَرِيقُهَا

ولكن المراد بالهلاك في الآية الهلاك المعنوي بالكفر، الذي هو المصيبة العظمى، والخسارة الكبرى، والكسر الذي لا ينجبر؛ كما قيل:

وَكُلُّ كَسْرٍ فَإِنَّ اللهَ جَابِرُهُ ... وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ[1]

فكل مصيبة تهون دون المصيبة في الدين بالكفر؛ لأنه سبب للشقاء في الدنيا، وربما القتل على أيدي المؤمنين، وموجب للخلود في النار في الآخرة، وهذا أشد وأعظم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: وما يشعرون أنهم بهذا الصنيع يهلكون أنفسهم أشد الهلاك، ويوبقونها في النار والخلود فيها. وهذا من أعظم المصائب؛ أن يظن الإنسان أنه على الحق وهو على الباطل.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القيامة وحشر الخلائق جميعًا والمشركين ومعبوداتهم، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

٢- التقريع والتبكيت والتنديم للمشركين في ذلك اليوم على شركهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

٣- تخلي الشركاء وتبرؤهم ممن أشرك بهم وعبدهم مع الله؛ لأنهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص٨٠.

حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، وقال تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ [فاطر: ١٤].

٤- أن اتخاذ المشركين شركاء مع الله زعم باطل لا دليل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، والزعم: الادعاء الباطل غالبًا.

وفي الحديث: «بئس مطية الرجل: "زعموا"»[1].

٥- فتنة المشركين في الدنيا والآخرة؛ في الدنيا بالشرك بالله، وفي الآخرة بالكذب على الله وإنكار شركهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، أي: لم تكن حجتهم ومعذرتهم وإجابتهم على امتحانهم وسؤالهم إلا أن قالوا هذا القول.

٦- أن من مات مفتونًا بعث مفتونًا، ومن مات على شيء بعث عليه.

٧- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق، وإيمان المشركين بربوبية الله تعالى لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾.

٨- أن القسم لا يكون إلا بالله أو بصفة من صفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾.

٩- انقطاع أمل المشركين ورجائهم في شركائهم في ذلك اليوم؛ لهذا بادروا إلى الإنكار، وهيهات أن ينفعهم ذلك.

١٠- التعجب من حال المشركين ومقالهم، وكيف كذبوا على أنفسهم وأنكروا ما هو واقع منهم، وأضروا بها وأوبقوها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾.

١١- غياب وزوال ما كان المشركون يفترونه من الشرك وشفاعة الشركاء ونصرهم، فغاب الشركاء، وغاب ما يؤمل فيهم من الشفع والنفع؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

١٢- أن من المشركين من يستمع إلى قراءة النبي ﷺ القرآن، لكن بلا تدبر ولا تفهم ولا مقصد حسن؛ ولهذا لا ينفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٧٢)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

١٣- معاقبة الله لهم بسبب كفرهم بجعل الأكنة على قلوبهم، والوقر في آذانهم.

١٤- أن من لم ينتفع بما يستمع من القرآن والذكر فهو كمن على قلبه غطاء وفي سمعه صمم؛ فلا يعي ولا يسمع.

١٥- ينبغي لمن يستمع القرآن والذكر أو يقرؤه حضور القلب، والتدبر والتفهم، والحرص على الانتفاع، والحذر من الغفلة؛ كما هو شأن المعرضين المخذولين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

١٦- أن المشركين مهما رأوا من الآيات الشرعية أو الكونية لا يؤمنون بها؛ لشدة عنادهم وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾.

١٧- مجادلة المشركين بالباطل لرد الحق، وتكذيبهم القرآن، ومكابرتهم وزعمهم أنه أساطير الأولين؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

١٨- من يضلل الله فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ الآية.

١٩- أن من قال عن القرآن بأنه أساطير الأولين فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٢٠- نهي المشركين والكفار الناس عن استماع القرآن، وعن تصديق رسول الله ﷺ واتباع ما جاء به من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾.

٢١- ابتعاد هؤلاء المشركين والكفار بأنفسهم عن اتباع ما جاء به ﷺ من القرآن والحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، وهكذا شأن أعداء الرسل وأعداء الحق، لا يكفيهم- بعد أن ضلوا بأنفسهم- إلا أن يضلوا غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧].

٢٢- أن هؤلاء المشركين والكفار ما يهلكون بهذا الفعل- من النهي عن اتباع الحق، والنأي عنه- إلا أنفسهم؛ لأنهم لا يضرون إلا أنفسهم، بحملهم أوزارهم

وأوزار من أضلوهم عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

٢٣- أن كل داع إلى الباطل فإنه إنما يجني على نفسه؛ لأن ضرر ذلك راجع إليه.

٢٤- أن الهلاك كل الهلاك هو الهلاك المعنوي بالكفر الموجب للشقاء في الدنيا والآخرة، والخلود في النار.

٢٥- أن المشركين بصدهم عن الحق، وانصرافهم وابتعادهم عنه؛ لا يشعرون بأنهم إنما يهلكون بهذا الصنيع أنفسهم؛ ذلك لانطماس بصائرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

٢٦- ينبغي الحذر من أن يسلك الإنسان سبيل الهلاك وهو لا يشعر، بل يظن أنه على الحق، وهذا من أعظم المصائب؛ فعلى المسلم أن يلزم منهج الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة، ويدعو ربه أن يثبته على الحق؛ كما كان ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل بقوله: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[(١)]، وكما في الأثر: «**اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علينا فنضل**»[(٢)].

* * *

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٧)، والنسائي في قيام الليل (١٦٢٥)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٥٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «شرح مذهب أهل السنة والجماعة» لابن شاهين (ص٣٥)، وكان من دعاء أبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما نحو من هذا. انظر: «قوت القلوب في معاملة المحبوب» (١/ ١٤٢)، و«شرح منتهى الإرادات» (٣/ ٤٩٧).

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، الواو استئنافية، و«لو» شرطية، وهي حرف امتناع الامتناع.

والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصح خطابه، و«ترى» يحتمل أن تكون بصرية، أو قلبية، و«إذ» ظرف بمعنى «حين».

﴿وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: أوقفتهم الملائكة بأمر الله عز وجل على النار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ١٣]، أي: تدفعهم الملائكة إليها دفعًا.

وجاء «وقفوا» بصيغة الماضي تأكيدًا لتحققه، أي: ولو ترى حين وُقِفَ هؤلاء المشركون، أي: أبلغوا إليها وحبسوا. قال ذو الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي ... فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهْ[1]

أي: بلغت إليه وحبست ناقتي عن السير.

والمعنى: ولو ترى حين حبس هؤلاء المشركون يوم القيامة على النار، واطلعوا عليها وعاينوها، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، والفظائع والأهوال.

وحذف جواب «لو» للتفخيم والتعظيم؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب، أي: لرأيت أمرًا عظيمًا جسيمًا، وهولًا فظيعًا، من سوء حالهم وغير ذلك. وهذا أبلغ وأشد

(١) انظر: «ديوانه» (ص٢٣).

في التخويف.

ومثل هذا في حذف جواب «لو» قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١].

﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ معطوف على ﴿وُقِفُواْ﴾، أي: فقالوا- لما يرون من الأهوال العظام-: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾، أي: يا ليتنا نرجع إلى الدنيا، وفي هذا تحسر شديد منهم، كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]. ومحال أن يردوا.

والتمني- غالبًا- ضرب من طلب المستحيل، وهو كما يقال: «رأس مال المفاليس»، وكما قال أبو العتاهية[1]:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا ... فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ المَشِيبُ

﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾؛ قرأ حمزة ويعقوب وحفص بنصب الباء: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾، وقرأ الباقون برفعها: «ولا نكذبُ».

وهذا مشعر بإقرارهم بتكذيبهم بآيات ربهم في الدنيا، ومشعر بندمهم، أي: ونصدق- بعد ردنا إلى الدنيا- بآيات ربنا الشرعية والكونية، ولا نكذب بها، كما كان حالنا فيما سبق.

وفي إضافة اسم الرب أو صفته إلى ضميرهم في قولهم: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ ما يشبه التأكيد منهم على ندمهم، وأنهم لن يعودوا إلى التكذيب بآياته.

﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ قرأ حمزة ويعقوب وحفص وابن عامر بنصب ﴿وَنَكُونَ﴾؛ عطفًا على ﴿نُكَذِّبَ﴾. وقرأ الباقون: «ونكونُ» بالرفع، وهو على القراءتين معطوف على قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾.

أي: ونكون من المصدقين باطنًا بقلوبنا، وظاهرًا بجوارحنا، بأن نعمل صالحًا؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَوْ نُرَدُّ

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٤٦).

فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: ١٠٢].

قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾، «بل» للإضراب الإبطالي، فيها إبطال لقولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: بل سيكذبون بآيات ربهم ولن يؤمنوا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿بَدَا لَهُم﴾، أي: ظهر لهم. قال زهير[1]:

بَـدَا لِيَ أَنِّي لَسْـتُ مُـدْرِكَ مَـا مَضَـى ... وَلَا سَـابِقًا شَـيْئًا إِذَا كَـانَ جَائِيَـا

﴿مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: بل ظهر لهم الذي كانوا يخفون في أنفسهم ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: في الدنيا، من علمهم بصدق ما جاءت به الرسل عليهم السلام، كما قال تعالى في الآية الثالثة والثلاثين من هذه السورة ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وكما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

قال ابن القيم: «فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا في الدنيا على باطل، وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله، وتيقنوا ذلك وتحققوه، ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم، بل تواصوا بكتمانه؛ فلم يكن الحامل لهم على تمني الرجوع والإيمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل؛ فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان، ولعادوا إلى الكذب والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الإيمان

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١٤٠).

لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل، وإنما تمنوه لما عاينوا من العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله».

إلى أن قال: «وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى، وهو نفي قولهم: إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا؛ لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق، أي: ليس كذلك، بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه، وكنتم تخفونه. فلم يظهر لكم شيء جديد لتكونوا عالمين به لتعذروا به، بل ظهر لكم ما كان معلومًا وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه»(١).

وقيل: المعنى: وبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل من الكفر الذي كانوا يكتمونه؛ لأنهم كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر. وفي هذا قوة من حيث المعنى، لكن يشكل على هذا أن السياق في الكفار، وأن سورة الأنعام كلها مكية نزلت جملة واحدة، والنفاق إنما ظهر في المدينة، وإن أشير إليه في بعض السور المكية؛ كما في قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: ١١].

والأقرب القول الأول: أنها في الكفار، وقد تحمل على الطائفتين.

﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾، الواو عاطفة، و«لو» شرطية، أي: ولو أرجعوا إلى الدنيا.

﴿لَعَادُوا۟﴾، اللام واقعة في جواب «لو».

﴿لِمَا﴾، «ما» موصولة، أي: ولو ردوا إلى الدنيا لرجعوا للذي نهوا عنه من التكذيب بآيات الله والكفر.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، الواو عاطفة، و«إن» حرف توكيد ونصب. ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ خبر «إن». واللام للتوكيد «لام المزحلقة»، أي: وإنهم لكاذبون في قولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: في أنهم إذا ردوا لا يكذّبون بآيات ربهم ويكونون من المؤمنين، وليس كذبهم في تمنيهم الرد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوٓا۟﴾، أي: وقال هؤلاء المكذبون منكرين للبعث:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٤٦-١٤٧).

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، «إن» نافية بمعنى «ما»، أي: ما هي إلا حياتنا الدنيا، أي: ما الحياة فقط إلا هذه الحياة الدنيا، ولا معاد، ولا حياة بعدها؛ ولهذا قالوا:

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، أي: وما نحن بمبعوثين أحياء بعد الموت، وما نحن بمخرجين من قبورنا؛ كما قالوا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

لما ذكر إنكارهم البعث أعقبه بوصف حالهم حين يحشرون إلى ربهم، وهو حال البعث الذي أنكروه.

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، الكلام عليه إعرابًا كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ وحذف جواب «لو» - كما سبق - للتعظيم والتفخيم.

ومعنى ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: وقفوا بين يدي ربهم عز وجل. وعبر عن المستقبل بالماضي في قوله: ﴿وُقِفُواْ﴾؛ لتحقق وقوعه، وتصويرًا للحال المستقبلة كأنها شيء حاضر ماض.

ومعنى ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: وقفوا وأقيموا بين يدي ربهم عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

﴿قَالَ﴾، أي: قال لهم ربهم موبخًا لهم ومقرعًا:

﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾، الاستفهام للتقرير والتقريع. والإشارة لبعثهم ووقوفهم على ربهم، أي: أليس هذا المعاد وما ترون من العذاب والأهوال؛ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالصدق الثابت الذي لا شك فيه، أي: أليس هذا حقًّا؟ والباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، «بلى» حرف جواب، أي: بلى هو حق. فأقروا بذلك؛ إذ لا مجال للإنكار، بل أكدوا ذلك بالقسم بقولهم:

﴿وَرَبِّنَا﴾، الواو للقسم، أي: ونقسم بربنا على أنه حق. وأنى ينفعهم ذلك في هذا اليوم؛ ولهذا ﴿قَالَ﴾ مبكتًا لهم:

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر.

﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ الباء سببية، و«ما» مصدرية، أي: فذوقوا وأحسوا ألم العذاب ومسه؛ بسبب كونكم تكفرون، أي: بسبب كفركم وجحودكم وتكذيبكم.

ويجوز كون «ما» موصولة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾.

ذكر في الآيات السابقة ندم الكفار- عند وقوفهم على النار- على ما حصل منهم من التكذيب، وإقرارهم بأن المعاد حق عند إيقافهم على ربهم، وتوعدهم بالعذاب لكفرهم، ثم أتبع ذلك ببيان خسارة من كذب بلقاء الله وقيام الساعة، وتحسرهم على تفريطهم، وما باؤوا به من الأوزار.

قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، «قد» للتحقيق، أي: قد تحقق خسران الذين كذبوا بلقاء الله، أي: خسروا كل شيء؛ لأنهم قد خسروا دينهم؛ فخسروا أنفسهم ودنياهم وأخراهم.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «قد خسروا»؛ ليكون الكلام مستقلًّا، وليبنى عليه ما بعده.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، «حتى» حرف ابتداء، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة.

﴿جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ الساعة: القيامة، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج: ١].

وسميت القيامة بـ«الساعة»؛ لأن لها زمنًا مؤقتًا، وأجلًا محدودًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤].

والساعة لا تأتي إلا بغتة، كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وفي الحديث: «**ولتقومنّ السّاعة وقد نشر الرّجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومنّ السّاعة وقد انصرف الرّجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنّ السّاعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنّ السّاعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها**»(١).

﴿بَغْتَةً﴾ مصدر في موضع الحال، أي: مباغتة، ومعنى ﴿بَغْتَةً﴾، أي: فجأة، وعلى غرة، ومن غير استعداد. وكل من مات فقد جاءت ساعته، وقامت قيامته؛ لانقطاع عمله بموته.

﴿قَالُوا يَحَسْرَتَنَا﴾ جواب «إذا»، و«يا» للتنبيه، أي: ما أعظم حسرتنا، وقيل: إنها للنداء، أي: يا حسرتنا احضري.

و«الحسرة»: الندم الشديد والتلهف على الشيء الفائت.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، «ما» مصدرية أو موصولة، أي: على تفريطنا فيها، أو: على الذي فرطنا فيها. والتفريط: التضييع.

والضمير «فيها» يعود إلى «الساعة»، أي: يا ندامتنا على ما ضيعنا فيها بترك الاستعداد للدار الآخرة بالإيمان وصالح الأعمال، والسلامة من التكذيب بها وسيئ الفعال.

وقيل: إن الضمير «فيها» يعود على الحياة الدنيا، أي: يا ندامتنا على ما ضيعنا في الحياة الدنيا بترك الإيمان والعمل الصالح.

والأول أصح؛ لأن «الحياة الدنيا» لم تذكر في الآية، لكن المؤدى واحد؛ فهو ندم حيث لا ينفع الندم.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ الجملة حالية، و«الأوزار» جمع «وِزر»، وهي الذنوب والخطايا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]، أي: وهم يحملون ذنوبهم وخطاياهم على

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم مختصرًا في الفتن (٢٩٥٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ظهورهم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ مؤذن بثقل هذا الحمل، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾، «ألا» حرف استفتاح وتنبيه، و«ساء» فعل لإنشاء الذم بمعنى «بئس».

و«ما» موصولة، أو نكرة موصوفة، أو مصدرية، في محل رفع فاعل لـ«ساء»، أي: ألا ساء الذي يزرونه، أو: ألا ساء شيء يزرونه، أو: ألا ساء وزرهم.

والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: حملهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾.

ذكر عز وجل قول المشركين المنكرين للبعث: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، ثم أتبعه بالجواب لهذا القول؛ ببيان حقيقة الدنيا، وإثبات الآخرة وبيان مكانتها.

قوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، «الدنيا»، أي: القربى زمنًا؛ لأنها قبل الآخرة من حيث الزمن. والدنيا رتبة ومنزلة؛ لأنها دنيئة حقيرة لا قيمة لها بالنسبة للآخرة. وفي الحديث: «**لو كانت الدّنيا تعدل عند الله جناح بعوضةٍ ما سقى كافرًا منها شربة ماءٍ**»(١).

﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، لا يقرب إلى الله، ولا يرجى أن يكون سببًا لدفع العذاب في الآخرة وجلب الثواب، و«اللعب» ما ليس بجد ولا فائدة منه، و«اللعب» ما يتلهى به.

ولا ينافي هذا قوله: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]؛ لأن التفاخر والتكاثر من اللعب واللهو.

---

(١) سبق تخريجه.

وفي الحديث: «**الدّنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالمٌ أو متعلّمٌ**»(١).

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾؛ قرأ ابن عامر: «ولدار» بلام واحدة فقط، هي لام الابتداء، وإضافة دار إلى «الآخرة» من إضافة الموصوف إلى صفته.

وقرأ الباقون: ﴿وَلَلدَّارُ﴾ بلامين؛ الأولى لام الابتداء، والثانية لام التعريف، و﴿ٱلْآخِرَةُ﴾ بالرفع على أنها صفة «للدار».

وسميت الآخرة؛ لأنها آخر المراحل والدور، ولا دار بعدها.

﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، أي: خير للذين يتقون الله. واللام في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ﴾ للتخصيص، أي: خير لهم خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

وإنما كانت خيرًا للمتقين؛ لما فيها من ألوان النعيم الذي ينسي الدنيا وآلامها.

ولهذا قال ﷺ: «**الدّنيا سجن المؤمن، وجنّة الكافر**»(٢).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء على طريقة الالتفات. وقرأ الباقون بياء الغيبة على نسق الضمائر السابقة: «يعقلون».

والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾، وقدمت همزة الاستفهام؛ لأن لها الصدارة، والأصل: فألا تعقلون. والعقل المنفي هنا هو عقل الرشد.

والاستفهام على قراءة الخطاب لتوبيخ المشركين، وعلى قراءة الغيبة للتعجيب من صنيعهم.

الفوائد والأحكام:

١ - إثبات المعاد والحساب والنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الآية.

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن (٢٣٢٢)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٥٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٢٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢- إثبات النار وهي الدار التي أعدت لتعذيب الكافرين.

٣- سوء حال المكذبين والكفار إذا أوقفوا على النار، وشدة الهول آنذاك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: لرأيت أمرًا عظيمًا، وهولًا فظيعًا، وخطبًا جسيمًا.

٤- شدة ندم المكذبين إذا وقفوا على النار؛ لهذا يتمنون الرد والاستعتاب، وهيهات؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ الآية.

٥- إقرار المكذبين بآيات الله إذا أوقفوا على النار؛ لقولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾.

٦- إقرارهم بتكذيبهم بآيات الله فيما سبق، وعدم إيمانهم؛ لمفهوم قولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وإقرار المشركين بربوبية الله تعالى لهم، لكن ذلك لا ينفعهم؛ لإنكارهم لألوهيته.

٨- ظهور الحقائق يوم القيامة، فيظهر للمكذبين ما كانوا يخفون من قبل؛ من علمهم بصدق ما جاءت به الرسل، وعدم انقيادهم عنادًا واستكبارًا؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾.

٩- كذبهم في قولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن الله كذبهم فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

١٠- إثبات علم الله تعالى بالمستحيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾.

١١- إنكار الكفار والمكذبين للبعث والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

١٢- إثبات الوقوف بين يدي الله عز وجل ولقائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾.

١٣- توبيخ الكفار المنكرين للبعث وتقريعهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾.

١٤- اعتراف المكذبين وإقرارهم بالمعاد والحساب والعذاب آنذاك، وتأكيدهم ذلك بالقسم؛ إذ لا مجال للإنكار؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾، وهذا مشعر بندمهم، لكن أنى ينفعهم ذلك.

١٥- إثبات القول لله تعالى، فهو يتكلم بحروف وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

١٦- تبكيت الكفرة المكذبين وتهديدهم وتيئيسهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

١٧- أن الكفر سبب للعذاب، والعمل سبب للجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، وفي هذا إثبات الأسباب.

١٨- تحقق خسارة من كذبوا بلقاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾؛ خسروا دينهم؛ فخسروا أنفسهم ودنياهم وأخراهم وأهليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

١٩- إثبات لقاء الله تعالى ووجوب الإيمان به؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

٢٠- إثبات الساعة والقيامة، وأنها تأتي بغتة؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]؛ الساعة الكبرى وهي القيامة، والساعة الصغرى بالموت، فإن من مات فقد جاءت ساعته وقامت قيامته.

٢١- شدة ندامة الكافرين على تفريطهم في الدنيا وعدم استعدادهم للقيامة بالإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾.

٢٢- حمل المكذبين أوزارهم الثقيلة على ظهورهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾.

٢٣- ذم الأوزار والذنوب، وأنها بئس الحمل؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

٢٤- التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

٢٥- حقارة الحياة الدنيا، فما هي إلا لعب ولهو؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

٢٦- إثبات الدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

٢٧- أن الدار الآخرة خير من الدنيا، لكن خيريّتها خاصة بمن اتقى الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، ومفهوم هذا أنها ليست خيرًا لغير المتقين، بل هي شر لهم.

٢٨- وجوب الحذر من الدنيا وما فيها من اللعب واللهو، وعدم الاغترار بها، ووجوب الاستعداد للآخرة بتقوى الله.

٢٩- أن من لا يعرف مكانة الدنيا بالنسبة للآخرة، والبون الشاسع بينهما والفرق الواسع، وأن الدنيا مجرد لعب ولهو، وأن الدار الآخرة هي الحياة حقًّا؛ فهو غير عاقل عقل الرشد؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة تكذيب المشركين للنبي ﷺ لما جاء به من الآيات، ثم أخذ في تسليته ﷺ تجاه ذلك بقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ الآية، والآيتين بعدها.

سبب النـزول:

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: «إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به. فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾»(1).

قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، «قد» حرف تحقيق.

﴿نَعْلَمُ﴾ بمعنى: علمنا. وجاء بصيغة المضارع؛ للدلالة على استمرار علمه عز وجل بذلك.

﴿إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «ليُحزِنك» بضم الياء وكسر الزاي. وقرأ الباقون ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ بفتح الياء وضم الزاي. الأولى من الرباعي: «أحزنه يُحزِنه»، والثانية من الثلاثي: «حَزَنه يحزُنه».

﴿إِنَّهُۥ﴾، «إن» حرف توكيد ونصب. والهاء ضمير الشأن اسمها، ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ اللام لام الابتداء للتوكيد، وكسرت همزة «إن» مع أنها بعد العلم يجب فتحها؛ وذلك لوجود

---

(1) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٠٦٤)، والحاكم في التفسير (٢/ ٣١٥)، ورواه الترمذي من حديث ناجية بن كعب، دون ذكر علي رضي الله عنه، قال الترمذي: «وهذا أصح».

لام التوكيد.

﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، «الذي» اسم موصول مبني في محل رفع فاعل لـ«يحزنك»، و«الحزن» ضد السرور.

والمعنى: لَيَحْزُنك قولهم، أي: يسوؤك ويؤسفك الذي يقولون من الكفر، ونسبة الشركاء إلى الله والصاحبة والولد، ورميهم لك بالسحر والكهانة والجنون.

كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾؛ قرأ نافع والكسائي: «لا يُكذِبونك» بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾.

والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ للتعليل؛ لأن المعنى: لا تحزن لأنهم لا يكذبونك، أي: لا يكذبونك بقلوبهم؛ لأنهم يعلمون أنك صادق.

وقد كانوا يسمونه قبل بعثته ﷺ بـ«الأمين»، ويحكِّمونه بينهم ويرضونه؛ لكنهم لما بعث كذبوه بألسنتهم، فقالوا: ساحر كذاب. وهم يعلمون صدقه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، الواو عاطفة. وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «ولكنهم»، بل قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للتسجيل عليهم بالظلم، وذم الظالمين، وأن شأنهم جحود آيات الله، وأن كل من جحد آيات الله فهو ظالم مثلهم.

أي: ولكن الظالمين بشركهم وكفرهم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ لأن أظلم الظلم الشرك بالله والكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، «بآيات الله» متعلق بـ«يجحدون»، وقدم عليه؛ لإفادة الحصر، ولتناسب رؤوس الآيات، أي: ينكرونها مع علمهم بثبوتها، فهو جحود وإنكار مكابرة وعناد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾

وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

هذا- كما سبق- من تسليته ﷺ وتعزيته فيمن كذبه من قومه؛ فإن عموم البلية يهونها.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ الواو عاطفة، واللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد كذبت رسل كثيرون من قبلك.

وأكد الكلام بالقسم و«قد» في الموضعين؛ لتأكيد تسليته ﷺ.

فالتكذيب للرسل كان ديدن الأمم، وليس بدعًا، كما قال تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: ١٤١]، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠] إلى غير ذلك.

وقد قال ﷺ: «**عرضت عليّ الأمم، فرأيت النّبيّ ومعه الرّجل والرّجلان، والنّبيّ وليس معه أحدٌ...**» الحديث[1].

﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟﴾، الفاء عاطفة، و«ما» مصدرية، أي: فصبروا على التكذيب، أي: فصبروا على تكذيب من كذبهم من أقوامهم، فاصبر فلك فيهم أسوة، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

﴿وَأُوذُوا۟﴾ معطوف على ﴿كُذِّبُوا۟﴾، أي: وصبروا على التكذيب والإيذاء.

وقد يكون معطوفًا على ﴿كُذِّبَتْ﴾، أي: كذبوا وأوذوا. والأول أقرب.

﴿وَأُوذُوا۟﴾ بالقول والفعل، أذى معنويًّا؛ باتهامهم بالسحر، والشعر، والكهانة، والجنون، والسخرية منهم، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

ولهذا لما قال ذو الخويصرة معترضًا على قسمته ﷺ الغنائم: «اعدل يا محمد» قال

---

(١) سبق تخريجه.

ﷺ: «رحمه الله؛ أخي موسى، لقد ابتلي بأكثر من هذا فصبر»[1].

وذلك أنهم رموه بأنه آدر، أي منتفخ الخصيتين[2]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

كما أوذوا حسيًّا بأبدانهم؛ بالتشريد، والضرب، والجراح، و القتل، وغير ذلك.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا﴾، «حتى» للغاية، أي: إلى غاية أن جاءهم نصرنا؛ بإظهار صدقهم، ودفع الأذى عنهم، وتمكينهم، وخذلان أعدائهم.

وفي هذا تسلية له ﷺ وتقوية لقلبه؛ فإن المصائب إذا عمت خفت، وكما قالت الخنساء[3]:

وَلَـوْلَا كَثْـرَةُ البَـاكِينَ حَـوْلِي ... عَـلَى إِخْـوَانِهِمْ لَقَتَلْـتُ نَفْسِـي
وَمَـا يَبْكُـونَ مِثْـلَ أَخِـي وَلَكِـنْ ... أُعَـزِّي الـنَّفْسَ عَنْـهُ بِالتَّـأَسِّي

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: ولا مغير لكلمات الله.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «لكلماتنا»؛ تعظيمًا لنفسه عز وجل، أي: ولا مبدل لكلمات الله تعالى الكونية وقضائه ووعده بنصر رسله وأتباعهم، وخذلان أعدائهم وإهلاكهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، الكلام على قوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾، كما سبق في قوله: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ﴾.

و«من» في قوله: ﴿مِن نَّبَإِيْ﴾ صفة لموصوف محذوف، تقديره: ولقد جاءك نبأ من

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٥٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الغسل (٢٧٨)، ومسلم في الحيض (٣٣٩)، والترمذي في التفسير (٣٢٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانها» (ص٧٢).

نبأ المرسلين. أو تبعيضية، أي: بعض من نبأهم.

والتقدير: والله لقد جاءك من نبأ المرسلين، أي: من خبرهم الهام، وكيف نصروا وأيدوا، وصارت العاقبة لهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة؛ كما قال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

ويحتمل أن المعنى: ولقد جاءك من النبأ الذي يأتي المرسلين، وهو الوحي من عند الله تعالى. وكلاهما حق.

ففي هذه الآية تسلية له ﷺ، وأمر له بالصبر كما صبر الرسل قبله، ووعد له بالنصر كما نصر الرسل قبله، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ؛ فكانت العاقبة لهم في الدنيا والآخرة، وفقًا لسنن الله تعالى الكونية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

هذا من تسليته ﷺ وتعزيته فيمن ضل من قومه، فلا يحزن ولا يأسف عليهم؛ لأن من كتب عليه الضلال فلا سبيل إلى هدايته.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾. واسم «كان» ضمير الشأن، أي: وإن كان الشأن في هذا الأمر أنه ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، أي: شق عليك وعظم.

والخطاب للنبي ﷺ، أي: وإن كان شق وعظم عليك إعراض هؤلاء المشركين بقلوبهم وتوليهم بأبدانهم عنك وعما جئت به من الآيات؛ حرصًا منك على هدايتهم، وشفقة عليهم.

﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: إن قدرت أن تطلب نفقًا في الأرض، و«النفق»: السَّرْب، أي: إن استطعت أن تطلب وتتخذ سربًا في الأرض تنفذ فيه إلى أعماقها وما تحتها.

﴿أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أو تبتغي، أي: تطلب مصعدًا في السماء تعرج به فيها.

﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾، أي: فتجيئهم بآية هي أفضل وأعظم مما أتيتهم به، أو بآية مما اقترحوه؛ فافعل.

أي: أنه ليس باستطاعتك ذلك، فلا تستطيع أن تدخل إلى نفق في الأرض فتستخرج الآيات، ولا أن تصعد إلى السماء فتنزل بالآيات، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠].

وفي الآية إشارة إلى أنه ليس هناك ثمة آية أعظم مما جئتهم به، ولا مطمع في هدايتهم؛ لأن الله كتب عليهم الضلال، فلا يشق عليك إعراضهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية: ٦].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، «لو» شرطية. ﴿شَآءَ﴾ فعل الشرط. وجوابه «لجمعهم». ومفعول «شاء» محذوف، تقديره: ولو شاء الله جمعهم على الهدى لجمعهم على الهدى.

والمشيئة: هي الإرادة الكونية، أي: لو أراد الله- كونًا وقدرًا- ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: لجمع هؤلاء المكذبين، أو لجمع الناس كلهم على الهدى، أي: لهداهم أجمعين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

لكنه عز وجل لم يشأ جمع الناس على الهدى، بل شاء أن يكون منهم المهتدي وأن يكون منهم الضال، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]،

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، أي: ولذلك خلقهم كونًا وقدرًا.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، أي: فلا تكونن من ذوي الجهل الذين لا يعرفون سنن الله تعالى الكونية في خلقه.

وليس في نهيه ﷺ أن يكون من الجاهلين ما يدل على تلبسه بذلك؛ ولهذا لم يسند الجهل إليه، فلم يقل: فلا تكن جاهلًا. لكن في هذا بيان أنه ينبغي أن يعلم أن لله تعالى الحكمة في إضلال من ضل من هؤلاء وغيرهم، وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى، كما ينبغي ألا يضيق صدرًا بإعراضهم، وأن يعلم أن من كتب عليه الضلال فلا سبيل إلى هدايته.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة أن الأمر له في الهداية، وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى، ثم أتبع ذلك بما يدل على أن مشيئته مقرونة بالحكمة؛ فهو عز وجل إنما يهدي بفضله من كان أهلًا للهداية، وهم الذين يستجيبون لدعاء النبي ﷺ ويسمعونه سماع تدبر وتفكر وتفهم وانقياد، كما يضل بعدله من لم يكن أهلًا للهداية. وفي هذا تيئيس من هداية هؤلاء المعرضين.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ تعليل لما أفاده قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية.

«إنما» أداة حصر، أي: ما يستجيب إلا الذين يسمعون، أي: إنما يستجيب لدعوتك- يا محمد- وينقاد لها ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ قراءتَك القرآن ودعوتك سماعَ تدبرٍ وتفهم وانقياد، كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٧٠].

ومفهوم هذا أن الذين لا يسمعون سماع تدبر لا يستجيبون، بل هم كما قال الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، ولهذا قال بعده:

﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾، هذا مقابل لـ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾؛ ولهذا حسن عطفه على قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾.

﴿وَالْمَوْتَىٰ﴾، أي: والموتى الذين لا يسمعون، وهم الكفار المعرضون، فهم موتى لا

يسمعون لموت قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: ٨٠-٨١]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الزخرف: ٤٠].

وقال الشاعر:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ... وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

وَلَو نَارًا نَفَخْتَ بِهَا أَضَاءَتْ ... وَلَكِنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادِ[1]

ولكونهم لا يسمعون كالموتى فلا ترجى استجابتهم؛ خلص إلى وعيدهم بقوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾. ويحتمل أن ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة، أي: يخرجهم من قبورهم. ويحتمل أن يراد بالموتى موتى الأجساد؛ ردًّا على منكري البعث، ولا منافاة بين المعنيين.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، «إليه» متعلق بـ«يرجعون»، وقدم عليه لإفادة الحصر مع مراعاة الفواصل، أي: ثم إليه وحده يردون؛ من استجاب منهم وسمع وهم المؤمنون، ومن كانوا موتى القلوب وهم الكفار المعرضون؛ فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- تحقيق وإثبات علم الله عز وجل بما في القلوب والنفوس، وبكل ما يقوله هؤلاء المكذبون؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٢- إثبات عظمته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾، وقوله: ﴿نَصْرُنَا﴾ بضمير الجمع، ولقوله: ﴿لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالإظهار دون الإضمار.

---

(١) البيت لكثير عزة. انظر: «ديوانه» (ص٢٢٢).

٣- حرص النبي ﷺ على هداية قومه وشفقته عليهم، وحزنه على ما يصدر منهم من التكذيب له ولما جاء به من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾.

٤- أنه ﷺ كغيره من البشر يصيبه ما يصيبهم من الحزن والهم ونحو ذلك.

وفي هذا رد على من يغلون فيه ويرفعونه إلى منزلة الرب جل وعلا؛ كما قال البوصيري في إطرائه وغلوه في النبي ﷺ:

فَـإِنَّ مِـنْ جُـودِكَ الـدُّنْيَا وَضُرَّتَهَـا وَمِـنْ عُلُومِـكَ عِلْـمَ اللَّـوْحِ وَالقَلَـمِ

٥- التعريض بسوء ما يقوله له كفار قومه وذمه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، أي: الذي يقولون من المقالات الكاذبة الخاطئة من تكذيبك وتكذيب ما جئت به.

٦- تسليته ﷺ تجاه ما يقول كفار قومه، ببيان أنهم لا يكذبونه بقلوبهم، بل بألسنتهم فقط، وهم يعلمون صدقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٧- أن المشركين وكفار قريش يعلمون صدق النبي ﷺ، وكانوا يسمونه «الأمين»، فلما بعث إليهم بهذه الرسالة والوحي من عند الله تنكروا له؛ عنادًا وظلمًا وعلوًّا، وإن كانوا في دخيلة أنفسهم يعلمون صدقه وصدق ما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

٨- أن من كذب ما جاءت به الرسل فهو من الظالمين؛ لأن ديدنهم جحود آيات الله تعالى.

٩- الإخبار بما جرى لكثير من الرسل من التكذيب والأذى، والثناء عليهم بصبرهم حتى كانت العاقبة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

١٠- تسليته ﷺ أيضًا وتقوية قلبه بذكر ما جرى للرسل قبله من التكذيب والأذى، وما كان منهم من الصبر حتى جاءهم نصر الله، وتأكيد ذلك والإقسام عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا

مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وكما قال شعيب عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣].

١١- التنبيه إلى أنه ﷺ ينبغي أن يكون له أسوة بالرسل من قبله في الصبر على التكذيب والأذى ليظفر بنصر الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾، أي: فاصبر كما صبروا لتظفر كما ظفروا، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

١٢- أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

١٣- أن سنن الله تعالى الكونية القدرية في نصرة رسله وأوليائه وخذلان أعدائهم ثابتة لا تتغير، وأن ما قدره الله وقضاه كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

١٤- إثبات أن الله يتكلم؛ لقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾. وكلماته قسمان: كونية وشرعية.

١٥- إثبات رسالته ﷺ، وتأكيد تسليته وتأسيه بمن قبله من الرسل، وأخذ العبرة والأسوة منهم ومما جرى لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

١٦- تأثره ﷺ بسبب إعراض من أعرض من قومه، ومشقة ذلك عليه مشقة عظيمة؛ شفقة على أمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾.

١٧- أن من كتب عليهم الضلال فلا سبيل إلى هدايتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية، ولا تنجع فيهم الآيات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [يس: ٤٦].

١٨- أنه لا أعظم ولا أشد تأثيرًا على القلوب من آيات الله تعالى، وأنه ليس بمقدور الرسول ﷺ ولا غيره أن يأتي بشيء من ذلك، فمن لم يؤمن بها فلن يؤمن بغيرها؛ لقوله

تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾.

١٩- بلاغة القرآن في ضرب المثل للمستحيل كونًا بقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾، فكما أن هذا ليس مستطاعًا له ﷺ؛ فكذلك من كتب عليه الضلال لا سبيل لهدايته.

٢٠- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٢١- أن الهداية والضلال بيد الله عز وجل، وله الحكمة البالغة في هداية من اهتدى وإضلال من ضل، وأنه لو شاء لهدى الناس جميعًا، لكنه لم يشأ ذلك، بل شاء أن يكون منهم مهتد وضال؛ لحكمة يعلمها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

٢٢- ينبغي معرفة سنن الله تعالى في خلقه، والعلم بأن له عز وجل الحكمة البالغة في إضلال من ضل من الخلق بعدله سبحانه، فلا يضيق الإنسان صدرًا وتذهب نفسه حسرات لإعراض من أعرض من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

٢٣- أن على الدعاة إلى الله تعالى والمربين من الوالدين والمعلمين والموجهين والمصلحين وغيرهم؛ أخذ الدرس مما ربى الله عز وجل به رسله وأنبياءه؛ وبخاصة خاتمهم وسيدهم عليه وعليهم الصلاة والسلام، بالصبر على الأذى، وعدم اليأس أو استعجال النتائج، ومعرفة أن الله عز وجل يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله.

فلا تذهب نفس المرء حسرات لإعراض من أعرض بعد القيام بواجب الدعوة؛ فلله عز وجل الحكمة البالغة في ذلك كله؛ فلم يستطع نوح عليه السلام هداية ابنه، ولم يستطع إبراهيم عليه السلام هداية أبيه، ولم يستطع محمد ﷺ هداية عمه أبي طالب.

٢٤- أن الذين يستجيبون لدعائه ﷺ ولأمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ؛ هم الذين يسمعون لقراءته ﷺ ودعوته سماع تدبر وتفهم وحسن قصد، دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾.

٢٥- بلاغة القرآن في التنفير مما يراد التنفير منه، في تمثيله الذين لم يستجيبوا للرسول ﷺ ولم يسمعوا له- بل أعرضوا عنه وكذبوه- بالموتى؛ لموت قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢٦- أن الكفار والمكذبين كالموتى؛ لموت قلوبهم، والأمل في هدايتهم ضئيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: فيجازون على كفرهم وتكذيبهم.

٢٧- الفرق الشاسع والبون الواسع بين المؤمن والكافر؛ فالمؤمن حي بقلبه وبدنه، والكافر ميت بقلبه، وإن كان ما زال حيًّا ببدنه لكنه كالميت؛ قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

وقد أحسن القائل:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

٢٨- إثبات البعث بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢٩- أن مرد الخلائق كلهم إلى الله عز وجل؛ من استجاب وسمع وآمن منهم، ومن أعرض وكذب وكفر؛ فيحاسبهم ويجازيهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: وقال المكذبون للرسول ﷺ ولما جاء به من الحق؛ تعنتًا وعنادًا.

﴿لَوْلَا﴾ بمعنى «هلا» للتحضيض، والتحضيض هنا لقطع الخصم وتعجيزه.

﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾، أي: على محمد.

﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: علامة من ربه تدل على صدقه. وهم يريدون بهذا خارقًا وآية على مقتضى ما يقترحون بعقولهم الفاسدة؛ كما قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

وهؤلاء حالهم، كما قال تعالى في أول السورة: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٤-٥]، وقال تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقد جاءهم من الآيات ما لا مزيد عليه، ومما لا يقاس به ما اقترحوه، فلم ينجع

ذلك فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٤-٥]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان: ٣٣].

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾، الخطاب للنبي ﷺ.

قرأ ابن كثير: «يُنْزِل» بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد: ﴿يُنَزِّلَ﴾.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، أي: إن الله قادر على تنزيل آية؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء، ولكن حكمته عز وجل تقتضي تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السابقة. قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء: ٤].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: أكثر هؤلاء المكذبين لا يعلمون، وقال: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾؛ لأن بعضهم قد يعلم ويكابر ويعاند.

أي: فهم- لجهلهم وعدم علمهم- يقترحون من الآيات ما قد يكون فيه هلاكهم، ولا يعلمون أن هذا هو السبب في عدم نزولها؛ لأنها لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها لعوجلوا بالعقوبة، كما هي سنة الله تعالى الكونية.

كما لا يعلمون أنه ﷺ لا يمكن أن يأتي بالآيات، وإنما الذي يأتي بها هو الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، «ما» نافية، و«من» لإفادة العموم؛ لأنها في سياق النفي.

﴿دَآبَّةٍ﴾ اسم لكل ما يدب على الأرض بأرجل متعددة أكثر من أربع، أو أربع، أو

اثنتين، أو غير ذلك، أو يزحف على بطنه. مشتقة من «دب» إذا مشى. وأصلها «داب» فزيدت التاء للمبالغة، وقيل: الهاء للواحدة، كبقرة وشاة.

﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بمحذوف صفة لـ«دابة»، أي: كائنة في الأرض؛ لإفادة التعميم والشمول لكل دابة في الأرض؛ برها وبحرها.

وفي حديث جابر رضي الله عنه: «فألقى لنا البحر دابة يقال لها العنبر»[١].

﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ ذكر أولًا ما يدب على الأرض، ثم ذكر ما يطير في الهواء، و«لا» زائدة لتأكيد النفي، أي: وما من طائر يطير بجناحيه. ووصف «طائر» بقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾؛ للمبالغة، وتأكيد الشمول والإحاطة لكل طائر.

وأيضًا هذه الدواب والطيور أمم أمثالكم، قدر الله أرزاقها، وكفلها، وحدد آجالها، لها صفاتها وخصائصها، واختلاف أنواعها وأجناسها وألوانها ولغاتها، وغير ذلك؛ كالأمم من البشر؛ ولهذا قال ﷺ: **«لولا أنّ الكلاب أمّةٌ من الأمم لأمرت بقتلها»**[٢].

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾، «أمم» جمع «أمة»، وهي الجماعة الكثيرة العظيمة.

والمعنى: إلا أمم أمثالكم في كونها مخلوقة لله تعالى، مربوبة معبدة له، لم تخلق سدى، تسبح الله وتحمده،وتسجد له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١]، وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٦١)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٥)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٥٢).

(٢) أخرجه أبو داود في الصيد واتخاذ الكلاب للصيد وغيره (٢٨٤٥)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٨١)، والترمذي في الأحكام (١٤٨٦)، وابن ماجه في الصيد (٢٨٤٥) من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾: ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾؛ ما تركنا وما أغفلنا وما أهملنا.

﴿مِن شَيْءٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما فرطنا في الكتاب أيّ شيء من الأشياء.

والمراد بالكتاب في الآية اللوح المحفوظ، أي: أن جميع الأشياء؛ كبيرها وصغيرها، قليلها وكثيرها؛ مثبتة في هذا الكتاب.

وهذا هو الأظهر في معنى الآية الذي يدل عليه السياق قبله، وهو قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، ثم قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾.

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾؛ ما تركنا شيئًا إلا كتبناه في أم الكتاب»[1].

واللوح المحفوظ كتب الله تعالى فيه كل شيء؛ مما كان، وما يكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة، كما جاء في الحديث: «**لما خلق الله القلم قال: اكتب. قال: ربِّي، ماذا أكتب؟ قال: اكتب كلّ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة**»[2].

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خلق الله عز وجل ألف أمّةٍ؛ منها ستّ مئةٍ في البحر، وأربع مئةٍ في البرّ، وأوّل شيءٍ يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلكت تتابع مثل النّظام انقطع سلكه**»[3].

ويؤيد هذا القول- وهو أن المراد بالكتاب «اللوح المحفوظ»- أنهم لما سألوا آية

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٣٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٢٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود في السنة (٤٧٠٠)، والترمذي في القدر (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) أخرجه الحافظ أبو يعلى فيما ذكره الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٤٩).

وأخبرهم عز وجل بقدرته على ذلك ذكر ما يدل على كمال قدرته؛ بخلق الأمم العظيمة، وعموم خلقه وملكه وتدبيره لكل شيء، فكيف يعجز عن إنزال آية.

ويحتمل أن المراد بالكتاب القرآن الكريم، فيكون المعنى: ما فرطنا في القرآن من شيء مما يحتاج إلى ذكره وبيانه، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال من نصر هذا القول بأن ما دلت عليه السنة، وكذا ما دل عليه الاجتهاد والقياس؛ فذلك كله موجود في القرآن؛ ولهذا لما لعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الواصلة والمستوصلة، وقال: «ما لي لا ألعن من لعنه الله في كتابه. فقالت: لقد قرأت القرآن فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ولعن رسول الله ﷺ الواصلة والمستوصلة»[١].

وقال الشافعي: «ما نزل بالمسلمين نازلة إلا وفي كتاب الله سبيل الدلالة عليها»[٢].

ويقوي هذا القول أن قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ ذكر عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، ففيه تنبيههم على أن أعظم الآيات وأدلها على صدق رسول الله ﷺ هو هذا الكتاب، الذي هو بيان لكل شيء، ولم يفرط فيه من شيء.

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، أي: يموتون ثم يبعثون يوم القيامة ويجمعون للحساب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير: ٥].

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان، فقال: «**يا أبا ذرٍّ،**

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣٤)، ومسلم في اللباس، تحريم فعل الواصلة والمستوصلة (٢١٢٣)، والنسائي في الزينة (٥٠٩٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٤٨).

هل تدري فيم تنتطحان؟» قال: لا. قال: **«لكنّ الله يدري، وسيقضي بينهما»**.

قال أبو ذر: «ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر بجناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علمًا»(١).

وعن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إنّ الجلحاء لتقتصّ من القرناء يوم القيامة»**(٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ ﴿صُمٌّ﴾ جمع «أصم»، وهو الذي لا يسمع. ﴿وَبُكۡمٌ﴾ جمع «أبكم»، وهو الذي لا يتكلم. ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، أي: لا يبصرون، كالعمي.

أي: أنهم صم عن سماع الحق، بكم عن النطق به، في ظلمات الجهل والشك والحيرة والكفر، لا يبصرون الحق. فالصمم يمنعهم من تلقي الهدى ممن يدعوهم، والبكم يمنعهم من الاسترشاد عن الحق، والظلام يمنعهم من التبصر ومعرفة الطريق المستقيم.

فمثل عز وجل المكذبين بآياته بالصم البكم الذين لا يبصرون، بعد أن مثلهم في الآيات السابقة بالموتى؛ في تعطل حواسهم، وانسداد طرق وصول الخير إلى قلوبهم، كما قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾ [البقرة: ١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠].

وهذه الحواس موجودة لديهم، ولكنهم لما لم يستفيدوا منها في معرفة الحق صارت

---

(١) جاء هذا في إحدى روايات الطبري (٩/ ٢٣٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٧٢).

كالمعدومة، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾، «من» شرطية. والمشيئة هي الإرادة الكونية، أي: من يرد الله تعالى- كونًا- إضلاله يضلله، فيعمى عن الحق.

﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: ومن يرد هدايته كونًا وشرعًا يصيره على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، فيرى الحق ويسلك طريقه.

وفي هذا إخبار بأن الآيات لا تستقل بالهدى، ولو أنزلت على وفق اقتراح البشر، بل الأمر كله لله؛ يضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ذم عز وجل في الآيات السابقة المشركين المكذبين، ومثَّلهم بالموتى وبالصم البكم الذين لا يبصرون، ثم وبخهم كيف يشركون بالله ما لا يدفع أو يرفع عنهم عذاب الدنيا أو الآخرة إذا حل بهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، والاستفهام للتقرير والتوبيخ.

﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أخبروني، وهو أبلغ وآكد في التوبيخ والتهديد من قوله: «أرأيتم».

﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾، أي: إن حل بكم عقاب الله الدنيوي، كما حل بالمكذبين من الأمم السابقة، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾، «أو» عاطفة، وهي هنا مانعة خلو، أي: لا يخلو الحال من أن يأتيهم الأمران أو أحدهما، وبخاصة الساعة؛ فأمرها محقق.

والمعنى: أو أتتكم القيامة وعذاب الله الأخروي. وأعاد الفعل «أتى» للاهتمام.

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ الجملة في محل نصب مفعول ثاني لـ«رأى»، وجملة ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ معترضة بين مفعولي «رأي»، وهي جملة شرطية حذف جوابها لدلالة جملة المفعول الثاني عليه.

وقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ مفعول لـ«تدعون»، قُدّم عليه للحصر، والاستفهام للنفي، أي: لا تدعون إلا هو لدفع ذلك عنكم أو كشفه ورفعه، أي: لا تدعون غيره؛ لعلمكم أنه لا يقدر على دفع ذلك أو رفعه سوى الله تعالى.

فهم في وقت الشدة لا يدعون إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الجملة مستأنفة، جوابها محذوف دل عليه قوله: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الذي هو بمعنى التقرير، أي: إن كنتم صادقين فأنتم تقرون بأنكم لا تدعون آنذاك غير الله، فما بالكم في الرخاء تشركون به غيره، فأين عقولكم؟!

وقيل المعنى: إن كنتم صادقين بأن آلهتكم التي تدعون من دون الله تنجيكم وتشفع لكم، فكونكم عند الشدة تدعون الله يدل على أنكم غير صادقين في ذلك.

قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، «بل» للإضراب الإبطالي، أي: لإبطال أنهم يدعون غير الله تعالى عند إتيان عذاب الله أو الساعة، و«إياه» مفعول لـ«تدعون» قدم عليه لإفادة الحصر، أي: بل لا تدعون إلا إياه.

وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك.

وصح أن يتولى الجواب عنهم؛ لأن هذا الجواب مما لا يسعهم إلا الإقرار به، ولا يمكنهم إنكاره، أي: بل إياه وحده تدعون وقت الشدة، لا تدعون سواه؛ ولهذا قال: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ معطوف على ﴿تَدْعُونَ﴾. ومعنى «يكشف»: يزيل

ويرفع، و«ما» موصولة، أي: فيجيب دعاءكم، ويزيل ويرفع الذي تدعونه إليه، أي: فيزيل ويرفع بلواكم وما حل بكم.

وهذا الكشف والرفع إنما يكون لعذاب الدنيا إذا شاء الله عز وجل ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان: ١٥].

ولهذا قدم هذه الجملة ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾، وجعلها معترضة بين قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ والمعطوف عليه، وهو جملة ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾؛ ترغيبًا لهم في الرجوع إلى الله، وإطماعًا لهم في رحمته.

﴿إِن شَاءَ﴾، أي: إن أراد كونًا، ومشيئته مقرونة بحكمته، فإن اقتضت حكمته كشفه ذلك كشفه، وإلا فلا.

أما بعد إتيان الساعة فإن الدعاء لا ينفع، والعذاب لا يكشف ولا يرفع.

﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، أي: وتتركون أصنامكم ومعبوداتكم التي كنتم تشركون بها مع الله، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [غافر: ٧٣-٧٤].

الفوائد والأحكام:

١ - أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، وفي افتتاح الكلام بهذا مزيد من العناية والاهتمام.

٢- شدة تعنت المشركين وعنادهم وتحديهم للرسول ﷺ في اقتراحهم الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، مع أنه قد جاءهم ما فيه بلاء مبين.

٣- تكبر المشركين وجفاؤهم في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، وذلك من وجهين:

الأول: تعبيرهم عنه ﷺ بضمير الغائب دون الخطاب، فلم يقولوا: لولا أنزل عليك.

والثاني: قولهم: ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾، فلم يقولوا: من ربنا. مع أنهم يقرون بأن ربه وربهم

واحد، هو الله.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأنبيائه وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٥- دفاع الله عز وجل عن نبيه ﷺ وإجابته عنه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾.

٦- قدرة الله تعالى التامة على تنزيل الآيات مما اقترحوه وغير ذلك، وعلى كل شيء؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾.

٧- أن تنزيل الآيات مرتبط بمشيئة الله عز وجل، بل وكل أفعاله مرتبطة بمشيئته، ومشيئته مقرونة بحكمته، وحكمته تقتضي تأخير نزول الآيات؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا وما اقترحوا، ثم لم يؤمنوا بها؛ لعوجلوا بالعقوبة كما هي سنن الله في الأمم السابقة.

٨- أن أكثر هؤلاء المكذبين لا يعلمون عموم قدرة الله تعالى، وما يترتب على ما اقترحوه من الآيات، وحكمة الله في تأخير نزولها، وأن الآيات لا يأتي بها إلا الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٩- أن كل ما يدب على الأرض وما يطير في الهواء أمم كالإنس، مربوبة لله تعالى؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا، وتذللًا لله تعالى وتعبدًا له، كفل الله أرزاقها، وأحاط بها، وعلم أحوالها وأحاط بها، لها حياتها الحيوانية ونظامها الخاص بها، كالأمم من البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

١٠- علم الله تعالى وتقديره وكتابته في الكتاب- أي: في اللوح المحفوظ- كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾.

١١- إثبات البعث، وأن مرد كل ما يدب على الأرض أو يطير بين السماء والأرض من حيوان إلى الله تعالى بالموت، ثم البعث يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

١٣- أن المكذبين بآيات الله تعالى كالصم البكم الذين في الظلمات لا يبصرون؛ لما هم فيه من الجهل والشرك والشك والحيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ

وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

١٤- بلاغة القرآن الكريم في بيان وتقريب الأمور المعنوية بتمثيلها بالأمور الحسية، والتنفير مما يريد التنفير منه.

١٥- أن لله عز وجل التصرف التام في خلقه، يضل من يشاء بعدله من كان أهلًا للضلال، ويهدي من يشاء بفضله من كان أهلًا للهداية، ولا يسأل عما يفعل؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وهي مقرونة بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

١٧- التنفير والتحذير من التكذيب بآيات الله تعالى، ومن الضلال وأسبابه.

١٨- الترغيب والحث على اللجوء إلى الله تعالى، وسؤاله الهداية والسلامة من الغواية.

١٩- أن طريق الإسلام والحق عدل مستقيم لا اعوجاج فيه.

٢٠- تسفيه عقول المشركين، وتقريرهم في أنهم يعلمون أن ما يعبدون غير الله لا يدفع عنهم ولا ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

٢١- أن المشركين غير صادقين في اتخاذهم آلهة غير الله، أنها تنفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنتم صادقين في أنها تنفعكم وتدفع عنكم.

٢٢- أن المشركين عند الشدائد لا يدعون إلا الله تعالى، ويتركون ما يعبدونه من دونه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢٣- أن الذي يكشف الضر، ويرفع العذاب، ويدفع البلوى؛ هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾.

٢٤- أن الله قد يجيب دعاء المضطر؛ ولو كان كافرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا

﴿تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾، وهذا في الدنيا.

٢٥- نسيان المشركين لمعبوداتهم من دون الله، وتركهم لها في ذلك اليوم؛ لعلمهم أنها لا تدفع ولا تنفع؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

أنذر عز وجل في الآيتين السابقتين المكذبين والمشركين بالعذاب الدنيوي أو الأخروي، ثم بين سنته الكونية في أخذ المكذبين قبلهم وتعجيل عقوبتهم في الدنيا، وفي ذلك تهديد وتحذير لهم من التمادي في الضلال فيحل بهم ما حل بمن قبلهم، وفيه تسلية له ﷺ، وبشارة بأن العاقبة له.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، الواو استئنافية، واللام للقسم، أي: والله لقد بعثنا رسلًا كثيرين إلى أمم من قبلك، أي: إلى كل الأمم من قبلك؛ لأنه ﷺ خاتم الرسل، وأمته آخر الأمم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

و«الإرسال»: تحميل الغير إبلاغ رسالة ممن أرسله.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾، أي: فكذبوا رسلهم كما كذبك قومك؛ فأخذناهم، كما قال تعالى- فيما سبق-: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

والمعنى: فعاقبناهم وابتليناهم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ زجرًا لهم، وانتصارًا لرسلنا، وقد كانوا قبل ذلك في رخاء وعافية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

و«البأساء»: الشدة والفقر والقحط وضيق العيش. و﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: التضرر في الأجسام بالأمراض والأسقام والآلام. وهذا من العذاب الأدنى؛ رحمة بهم لعلهم يتوبون، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١]؛ ولهذا قال:

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يتضرعوا، والضراعة: الذلة والاستكانة، أي: لأجل أن يتذللوا لله تعالى، ويخضعوا له، ويلجؤوا إليه؛ لكشف ما حل بهم.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾، الفاء عاطفة، و«لولا» للتوبيخ والتنديم، بمعنى «هلا»، وقيل: يجوز كونها للتمني، أي: ليتهم إذ جاءهم بأسنا تضرعوا.

و«إذ» ظرف بمعنى «حين»، أي: فهلا حين ﴿جَاءَهُم بَأْسُنَا﴾- أي: عذابنا- تضرعوا إلى الله ودعوه؛ لكشف ما حل بهم من بأس الله وعقابه، لكنهم لم يفعلوا.

كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦]؛ ولهذا قال:

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، «لكن» حرف استدراك، ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: صلبت وغلظت، فلم تخشع ولم تخضع، ولم تلن لذكر الله تعالى وقبول الحق، كما قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى مخاطبًا هذه الأمة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾، أي: وحسّن لهم الشيطان.

﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، والتقدير: وحسن لهم الشيطان الذي كانوا يعملون، أو عملهم؛ من الشرك والتكذيب بالحق، كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النحل: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤].

فلم يقتصر على تهوين الأمر عليهم، بل زينه وحسنه في نفوسهم، فاستحسنوا ما هم عليه من الكفر والشرك والمعاصي، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ

فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وهذه- والله- المصيبة التي لا مصيبة أعظم منها، أن يزين للمرء ما هو عليه من الكفر والشرك والمعاصي، فيرى أنه على الحق، بل يرى الحق باطلًا والباطل حقًّا. وقد قيل:

يُقْضَى عَلَى المَرْءِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ   حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالحَسَنِ[1]

وهكذا دأب الشيطان يترقى بالإنسان حتى يصل به إلى نهاية دركات الكفر؛ فلا يقنع منه بما دون ذلك ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ يتدرج به من المعصية إلى البدعة ثم إلى الكفر، ومن ارتكاب المنهي إلى ترك الواجب، ومن تهوين ذلك إلى تزيينه في نفسه، وهكذا. فلينتبه لهذا العاقل اللبيب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾، الفاء عاطفة، و«لما» شرطية. ﴿نَسُوا۟﴾ فعل الشرط، و«ما» موصولة في محل نصب مفعول ﴿نَسُوا۟﴾. ﴿ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: وعظوا به.

والمعنى: فلما تركوا الذي وعظوا به مما جاءتهم به الرسل، ومما أخذهم الله به من البأساء والضراء، وما أحل بهم من بأسه، وأعرضوا عنه وتناسوه.

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ جواب الشرط «لما».

قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، ورويس عن يعقوب: «فتَّحنا» بالتشديد؛ للمبالغة في الفتح بكثرته، كما أفاده ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾. وقرأ الباقون ﴿فَتَحْنَا﴾ بالتخفيف.

أي: فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الخير؛ لأنه في مقابل قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ ولقوله بعده: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾، أي: فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الدنيا وأرزاقها ولذاتها وغفلاتها؛ استدراجًا لهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢]، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤-٤٥].

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «روح المعاني» (١/ ١٥٦).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾، «حتى» للغاية، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، و«ما» في قوله: ﴿بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ موصولة، أي: حتى إذا فرحوا بالذي أوتوه مما فتحه الله عليهم من الأموال والأولاد والأرزاق والأمن والنعم، فرح بطر ومرح واختيال، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ [القصص: ٧٦].

﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾، أي: عاقبناهم وأهلكناهم. ﴿بَغْتَةً﴾ مصدر، أي: أخذ بغتة، أي: فجأة، وعلى غرة وغفلة، ومن غير توقع منهم؛ ليكون أشد لوقع العذاب عليهم.

﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ جواب «إذا». الفاء رابطة للجواب، و«إذا» هي الفجائية. ﴿مُّبْلِسُونَ﴾: آيسون منقطعون من كل خير.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدّنيا على معاصيه ما يحبّ؛ فإنما هو استدراجٌ**»، ثم تلا رسول الله ﷺ: «﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾»(١).

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، «قطع» بمعنى: استؤصل. ﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾: آخرهم، ودابر الشيء: آخره، مشتق من الدبر، وهو الوراء، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥].

والمعنى: فأهلكوا عن آخرهم فلم يبق منهم أحد؛ لأنه إذا هلك الدابر وهو الآخر فما قبله من باب أولى.

قال الشاعر:

فَاسْتُؤْصِلُوا بِعَذَابٍ حَصَّ دَابِرَهُمْ ... فَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ صَرْفًا وَلَا انْتَصَرُوا(٢)

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٤٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٩٠).

(٢) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص٦٣). ومعنى «حص دابرهم»: أذهبهم عن آخرهم.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ بتكذيب الرسل والكفر والشرك، وذلك أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الواقعة: ٤٦]؛ وهو الشرك.

وأظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولم يقل: «فقطع دابرهم»؛ للتسجيل عليهم بالظلم، وأنه سبب إهلاكهم واستئصالهم، وللتحذير من الظلم، وأن هذه هي نهاية الظالمين.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: والحمد لله رب العالمين على ما قضاه وقدره من قطع دابر الظالمين، ونصرة رسله وأوليائه، وجعله ذلك سنة من سننه الكونية؛ ليترقب أولياؤه النصر، ويحذر أعداؤه من الأخذ والقهر، وكل ذلك نعمة منه تستوجب الحمد والشكر.

ومعنى ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: أن الوصف بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم مستحق لله تعالى؛ لكمال ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وبلوغ حكمته، وتمام نعمته.

الفوائد والأحكام:

١- إقامة الحجة على الخلق كلهم بإرسال الرسل؛ رحمة بهم وإعذارًا وإنذارًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وهذا عام لجميع الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

٢- تأكيد الخبر في القرآن بالقسم وغير ذلك من المؤكدات، على نحو ما كان عليه العرب في تأكيد أخبارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾.

٣- إثبات رسالته ﷺ وأنه خاتم النبيين وأمته آخر الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وكل الرسل وأممهم قبله ﷺ.

٤- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٥- تكذيب كثير من الأمم لرسلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم﴾، والمعنى: فكذبوا فأخذناهم؛ إذ لو صدقوا لما أخذوا؛ لأن الله لا يؤاخذ

أحدًا إلا بذنب؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

٦- أن من سنن الله تعالى الكونية ابتلاء الأمم بالسراء والضراء؛ امتحانًا لهم؛ لكي يتضرعوا إلى الله تعالى ويخضعوا له وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، فابتلوا وأمهلوا لعلهم يتوبوا ويلجؤوا إلى الله.

٧- محبة الله تعالى وإرادته شرعًا هداية الخلق كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

٨- أن الابتلاء بالمصائب والسراء والضراء قد يكون من أسباب الرجوع إلى الحق والأخذ به لمن وفقه الله تعالى، وقد يكون سببًا لضد ذلك لمن لم يوفق وضجر وجزع.

٩- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى وأحكامه الشرعية والكونية؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وفي هذا رد على المعتزلة ونحوهم ممن يقولون: إنه يفعل لمجرد المشيئة بلا حكمة- تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-.

١٠- وجوب التضرع إلى الله تعالى، واللجوء والإنابة إليه، والتذلل والانقياد له وحده.

١١- قسوة قلوب المذكورين؛ فلم ينجع فيهم ما ابتلوا به من البأساء والضراء، في تليين قلوبهم وتضرعهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

١٢- أن القلب عليه مدار الصلاح والفساد، فإذا قسا وصلب عن قبول الحق تبعه الجسد كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

١٣- تزيين الشيطان لبني آدم الأعمال السيئة؛ من تكذيب الرسل، ورد الحق، ونحو ذلك؛ مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧].

١٤- أن الشيطان ينتقل بمن اتبعه ويتدرج به إلى ما هو أسوأ وأشد وأعظم، فلا

يقف عند تهوين الشرك والكفر والمعاصي، بل يزينها ويحسنها.

١٥- عقوبة المعرضين المكذبين بفتح أبواب النعم والخيرات عليهم؛ استدراجًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

١٦- ينبغي عدم الاغترار بكثرة النعم من الأموال والأولاد، وغير ذلك؛ لأنها قد تكون استدراجًا وفتنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

١٧- أن كل ما يحصل من بأساء وضراء وشدة ورخاء، فكل ذلك بتقدير الله تعالى وتدبيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، وقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ ولهذا ينبغي اللجوء إليه وحده في دفع الضر وجلب الخير.

١٨- أن العقوبة قد تأتي بغتة؛ سواء كانت عقوبة عامة، أو خاصة بالأنفس أو الأموال أو الأولاد، وغير ذلك؛ مما يوجب محاسبة النفس، والحذر من المعاصي، والغفلة، والركون إلى الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾.

١٩- شدة أخذ الله عز وجل وعقابه، وعظم وقعه على النفوس والقلوب، وتحطيمه للمعنويات؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، أي: آيسون من كل خير.

٢٠- استئصال العذاب للمكذبين عن آخرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

٢١- أن سبب عقوبة الله تعالى وأخذه للأمم السابقة ظلمهم بالتكذيب والكفر والشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧)﴾ [الأنفال: ٧].

٢٢- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله عز وجل، فأهلك عز وجل المذكورين بسبب ظلمهم.

٢٣- التحذير من الظلم؛ لأنه سبب لأخذ الله وعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

٢٤- حمد الله على قطع دابر الظالمين؛ لأن ذلك نعمة تستوجب الحمد والشكر؛ لما فيه من خذلان الباطل وأهله، ونصرة الحق وأهله، وإقامة العدل.

٢٥- أن الله عز وجل محمود على كل حال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

خوَّف الله عز وجل المشركين المكذبين في الآيات السابقة بالعذاب الدنيوي أو الأخروي، ثم خوَّفهم هنا بسلبهم نعمة الله تعالى عليهم بهذه الحواس؛ السمع، والبصر، والقلوب. فكما لا يستطيع أحد رد العذاب عنهم سوى الله تعالى؛ فكذلك لا أحد يستطيع رد هذه الحواس بعد سلبها إلا الله تعالى، وفي ذلك كله استدلال على تفرده عز وجل بالربوبية والألوهية.

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، أي: أخبروني، والهمزة للاستفهام، وهو للتوبيخ والتهديد، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء المشركين المكذبين: أخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ بحيث لا تسمعون، ﴿وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ بحيث لا تبصرون، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾، أي: وطبع على قلوبكم فلا تفقهون ولا تعقلون، أي: سلب هذه الحواس منكم بالكلية، كما أعطاكموها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: ٢٣].

﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾، «من» اسم استفهام، وهو هنا للإنكار والنفي، أي: لا أحد غير الله يأتيكم به، أي: يرجعه.

والضمير في قوله: «به» بمعنى اسم الإشارة، أي: بذلك، أو بالمذكور، وهو عائد إلى السمع والأبصار والقلوب، أي: من إله غير الله ممن تشركون بهم من دونه يأتيكم بما سلبه الله منكم من السمع والبصر والقلوب، أي: لا أحد غير الله يأتي به؛ لأنهم يقرون ويعترفون بربوبية الله عز وجل، وأنه الخالق المالك المدبر.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾، أي: انظر وتأمل بقلبك وتعجب كيف نبين لهم الآيات الكونية والشرعية وننوعها، ونوضح دلالتها على أنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه.

﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، «ثم» للترتيب والتراخي، والضمير «هم» يعود إلى المكذبين. وانتقل من الخطاب إلى الغيبة؛ لتقليل شأنهم واحتقارهم.

﴿يَصْدِفُونَ﴾؛ يعرضون عن الآيات، أي: ثم هم- بعد هذا البيان التام- يعرضون عن الآيات بأنفسهم، ويصدون غيرهم عنها، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

خوَّف عز وجل فيما سبق المكذبين بأخذهم بالعذاب بغتة، كما هي سنته عز وجل في المكذبين قبلهم، ثم بين في هذه الآية أنهم أهل للعذاب بغتة أو جهرة؛ لأنهم ظالمون.

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾، أي: أخبروني. والهمزة للاستفهام. وكاف الخطاب؛ لتأكيد التوبيخ والتهديد والوعيد.

﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾، أي: إن جاءكم عقاب الله مباغتًا وفجأةً، كما لو أتاكم وأنتم نيام.

﴿أَوْ جَهْرَةً﴾، أي: ظاهرًا عيانًا، كما لو أتاكم وأنتم أيقاظ، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يونس: ٥٠].

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، «هل» اسم استفهام بمعنى «ما» يفيد النفي والاستفهام، وهو أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يتضمن النفي والتحدي. «إلا» أداة حصر، أي: أنه لا يهلك ويعاقب إلا من يستحق الهلاك، وهم القوم الظالمون، أي: الظالمون بالشرك بالله وعبادة غيره، وهم أنتم وأمثالكم.

وأظهر في مقام الإضمار؛ للتسجيل عليهم بالظلم، وبيان أنه سبب هلاكهم، وليشملهم هذا الوعيد وغيرهم من الظالمين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، الواو استئنافية، و«ما» نافية، و«إلا» أداة حصر، ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ حال، أي: حال كونهم مبشرين لمن آمن وأطاعهم بالسعادة والجنة. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمن كذبهم وخالفهم بالعقوبة والنار.

و«البشارة»: الإخبار بما يسر، و«الإنذار»: التحذير مما يسوء.

فمهمة الرسل عليهم السلام ووظيفتهم بالنسبة للمرسل إليهم هي إبلاغهم رسالات الله، والبشارة لمن أطاعهم بالجنة، والتحذير لمن عصاهم من النار.

ولهذا حصر عز وجل وظيفتهم بالبشارة والإنذار؛ لئلا يُظن أن لهم نصيبًا من الربوبية؛ كجلب الخير، أو دفع الضر، ونحو ذلك. وهم أيضًا- كغيرهم من البشر- مكلفون بفعل المأمورات وترك المحظورات.

ومن لازم البشارة والإنذار تبليغ رسالات ربهم، وبيان الأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة أو النذارة؛ ولهذا قال:

﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الفاء عاطفة، وهذا مع ما جاء في الآية بعده ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بيان وتفصيل لقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

﴿ءَامَنَ﴾ صدق بقلبه ولسانه بكل ما أوجب الله تعالى الإيمان به، من أركان الإيمان الستة؛ وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، وغير ذلك مما أوجب الله تعالى الإيمان به.

﴿وَأَصْلَحَ﴾ بأن عمل الأعمال الصالحة بجوارحه؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من الدنيا، ولا

على ما مضى منها؛ لأنهم قضوه في طاعة الله تعالى، ولا على ما خلفوا فيها من أولاد وأهل وأموال؛ لتوكلهم على الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

ذكر في الآية السابقة المؤمنين المتبعين للرسل وثوابهم، ثم أتبع ذلك بذكر المكذبين لهم وعذابهم، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، أي: جحدوا وأنكروا آياتنا الشرعية والكونية.

﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: ينالهم ويصيبهم العذاب إصابة مباشرة في أجسامهم؛ حسيًّا ومعنويًّا، في الدنيا والآخرة.

﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، الباء سببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب كونهم يفسقون، أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى وكفرهم به.

والفسق يطلق على ما دون الكفر، وعلى الكفر، وهو المراد هنا؛ لأن التكذيب بآيات الله كفر.

الفوائد والأحكام:

١- توبيخ المشركين وتهديدهم، وتقريرهم بأنه إن أخذ الله سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم فلا أحد يأتيهم بذلك غير الله، وهم يقرون بهذا ويعترفون به؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾، أي: لا أحد.

٢- أن توحيد الربوبية- وهم يقرون به- يستلزم توحيد الألوهية، فلماذا يعبدون مع الله ما لا يملك لهم شيئًا؟!

٣- لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه؛ فيجب اللجوء إليه في السراء والضراء.

٤- أن من أعظم نعم الله على الإنسان نعمة السمع والبصر والقلب؛ ولهذا خوَّف الله تعالى المكذبين بسلبها منهم، كما يمتن بها على عباده؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: ٢٣]؛ فالسمع والبصر هما الطريقان لوصول الخير إلى القلب، والقلب عليه مدار صلاح الجسد، وبه كرم الله بني آدم.

٥- أن ما بالخلق من نعم فكلها من الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن

نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

٦- تصريف الآيات وتنويعها وبيانها رحمة من الله عز وجل بالعباد، وإقامة للحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾.

٧- الاعتبار بحال المعرضين عن الآيات؛ مع تصريفها وتنويعها وبيانها، والتعجيب منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾.

٨- من يضلل الله فلا سبيل إلى هدايته، مهما رأى من الآيات.

٩- التحذير للمكذبين من أن يأتيهم العذاب بغتة أو جهرة وإهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١٠- أن الله عز وجل لا يعذب ولا يهلك إلا القوم الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: الظالمون بالكفر والشرك والمعاصي، ومفهوم هذا الوعد بنجاة المؤمنين العادلين.

١١- أن الله عز وجل لا يعذب إلا بذنب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

١٢- رحمة الله تعالى لعباده ومنته عليهم بإرسال الرسل لهدايتهم وبيان الحق لهم، وتبشيرهم وإنذارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

١٣- أن وظيفة الرسل بالنسبة للناس البشارة لمن آمن منهم واتبع الرسل بالجنة، والإنذار لمن خالف وعصى الرسل بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

ومن لازم ذلك تبليغ رسالاتهم والدعوة إلى الله تعالى، قال تعالى مخاطبًا سيد الرسل وخاتمهم نبينا محمد ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٨].

١٤- انقسام الناس في قبول دعوة الرسل وعدمها إلى قسمين؛ مؤمن بها، ومكذب لها، ولله الحكمة في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الآية.

١٥- بيان ما أعده لمن آمن واتبع الرسول من الثواب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١٦- لا بد في الإيمان من الجمع بين التصديق بالقلب والعمل الصالح بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾.

١٧- لا بد لقبول العمل أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ﴾.

١٨- أن من أعظم ألوان النعيم- النعيم المعنوي- للقلب السلامة من الخوف والحزن؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١٩- إثبات الأسباب، وأن الإيمان والعمل الصالح سبب للنعيم، كما أن التكذيب بآيات الله سبب للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

٢٠- الوعيد لمن كذب بآيات الله بالعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

٢١- أن الفسق يطلق على الكفر؛ لأن التكذيب بآيات الله كفر.

٢٢- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والترهيب والتحذير من التكذيب والفسق.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء المشركين المكذبين المقترحين للآيات وغيرهم: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، أي: لا أقول لكم: إني أملك خزائن الله، أي: مفاتيح خزائن رزقه ورحمته، فأتصرف فيها وأعطيكم منها ما تريدون، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ معطوف على قوله: ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، أي: ولا أقول لكم: إني أعلم الغيب. والغيب: ما غاب عن الناس، وهو نوعان: غيب نسبي، وغيب مطلق حقيقي، وكل منهما لا يعلمه الرسول ﷺ ولا غيره.

فالغيب المطلق ما سيحصل في المستقبل؛ كقيام الساعة، ونزول العذاب، ونحو ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

والغيب النسبي- كذلك- لا يعلمه الرسول؛ ولهذا لما انخنس أبو هريرة رضي الله عنه قال له ﷺ: «**أين كنت؟**» قال: يا رسول الله أصابتني جنابة، وكرهت أن أقابلك

وأنا جنب[1].

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٞ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾. وكرر الخطاب بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ للمبالغة.

و«الملَك» مفرد الملائكة، أي: لا أقول لكم: إني ملك من جنس الملائكة؛ فتطلبوا مني ما هو خارق للعادة؛ كالرقي في السماء ونحو ذلك، إنما أنا بشر مثلكم، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء: ٩٣].

﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ بعد أن نفى أن يدعي فوق منزلته التي أنزله الله فيها، فنفى أن يقول: عندي خزائن الله، أو أعلم الغيب، أو يقول إني ملك؛ بيَّن أن وظيفته محصورة باتباع ما يوحى إليه؛ عملًا به ودعوة إليه، فقال: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، أي: هذا غاية أمري ومنتهاه وأعلاه، وهو اتباع ما يوحى إلي.

و«إن» في قوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ﴾ نافية بمعنى «ما»، أي: ما أتبع.

﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، «إلا» أداة حصر، و«ما» موصولة، أي: إلا الذي يوحى إليّ. وبُني الفعل «يوحى» لما لم يسم فاعله؛ لأن الموحي معلوم، وهو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ [سبأ: ٥٠].

أي: إن أتبع إلا الذي يوحيه الله عز وجل إلي من القرآن والشرع، فيما أدعو إليه وآمر به وأنهى، وفيما أتعبد به.

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾، «هل» اسم استفهام بمعنى «ما» النافية.

وجاء الاستفهام بمعنى النفي؛ ليفيد النفي والاستفهام معًا. وهو أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يتضمن النفي والتحدي، أي: قل لهم مبينًا الفرق الشاسع والبون الواسع بين من آمن وانقاد لوحي الله، وبين من كفر وخالف أمر الله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ

(١) أخرجه البخاري في الغسل ٢٨٣، ومسلم في الحيض ٣٧١، وأبو داود ٢٣١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَٱلْبَصِيرُ﴾، أي: لا يمكن أن يستوي الأعمى والبصير بحال من الأحوال.

و«الأعمى» صفة مشبهة، وهو الذي لا يبصر، و«البصير» الذي يُبصر، فالأعمى حسيًّا- وهو فاقد البصر- لا يستوي مع البصير الذي يبصر ويرى.

والمراد: لا يستوي من اتبع الحق وهدي إليه، وهو المؤمن، ومن جانب الحق وضل عنه، وهو الكافر؛ فالأول يسير على هدى ونور من ربه، والآخر يتخبط في ظلمات الجهل والشك والكفر والشرك، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، الهمزة للاستفهام، ومعناه التوبيخ، والفاء عاطفة، وقدمت الهمزة؛ لأن لها الصدارة، والتقدير: فألا تتفكرون.

والمعنى: لماذا لا تتفكرون بعقولكم في آيات الله ووحيه، وفي الفرق الشاسع بين الإيمان والكفر، وحال من آمن وحال من كفر، أي: تفكروا في ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

سبب النـزول:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء؛ لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، فضل سعد بن أبي وقاص (٢٤١٣)، والنسائي في «الكبرى» في التفسير، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ (١١١٦٣)، وابن ماجه في الزهد، مجالسة الفقراء (٤١٢٨)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٩٨).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده: خباب، وصهيب، وبلال، وعمار، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾»[1].

وفي رواية عن ابن مسعود رضي الله عنه: «مر الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده: صهيب، وبلال، وعمار، وخباب وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا، ونحن نكون تبعًا لهؤلاء؟ اطردهم عنك؛ فلعلك إن طردتهم أن نتبعك. فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إلى آخر الآية»[2].

قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ الأمر للنبي ﷺ، والضمير الهاء يعود إلى القرآن الكريم، وهو الوحي المذكور بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾؛ يعني القرآن الكريم وما فيه من التشريع، و«الإنذار»: الإعلام على وجه التخويف.

﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«يخافون»، أي: الذين يخافون الحشر إلى ربهم، أي: الجمع عنده، وهم الذين يؤمنون بالبعث يوم القيامة، وجمع الناس فيه والحساب والجزاء على الأعمال، ويعملون لذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وفي إضافة اسم الرب إلى ضميرهم تشريف وتكريم لهم؛ لأن المراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة؛ ولهذا خصهم بالإنذار؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بذلك ويتعظون. وفيه تعريض بالمشركين المنكرين للبعث؛ إذ لا فائدة من إنذارهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة: ٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠).

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٩٩).

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾، أي: ليس لهم من دون ربهم ﴿وَلِيٌّ﴾، أي: لا أحد يتولاهم من قريب أو غيره؛ بجلب النفع لهم، أو كشف الضر أو دفعه عنهم.

﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾، أي: وليس لهم من دون ربهم شفيع يشفع لهم؛ بجلب النفع لهم، أو دفع الضر.

و«الشفيع»: الوسيط، و«الشفاعة»: الوساطة للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، أي: ويعلمون ويعتقدون أن ليس لهم من دون ربهم وليّ ينصرهم؛ بجلب الرحمة لهم، ودفع العذاب عنهم، ولا شفيع لهم من دونه يشفع لهم في ذلك، أي: ليس لهم إلا الله تعالى وحده.

وفي هذا تعريض بالمشركين الذين يتخذون من دونه أولياء وشفعاء، ويزعمون أنهم ينفعونهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ويتقوا عذاب يوم القيامة الذي فيه يحشرون إلى الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، الواو عاطفة، و«لا» ناهية. والخطاب للنبي ﷺ، أي: ولا تطرد عنك ولا عن مجلسك ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، أي: المؤمنون الذين يعبدون ربهم ويسألونه؛ لأن الدعاء قسمان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وكل منهما مراد هنا، أي: الذين يعبدون ربهم، أي: يقومون بفعل العبادات؛ من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج وغير ذلك، ويسألونه ويطلبون منه المغفرة والرحمة، وتيسير أمور دينهم ودنياهم ونحو ذلك.

﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾؛ قرأ ابن عامر بضم الغين وإسكان الدال وواو بعدها:

«بالغُدْوة». وقرأ الباقون بفتح الغين والدال وألف بعدها: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ﴾.

«الغداة»: أول النهار، و«العشي»: آخر النهار مع الليل.

وهذا ينتظم أوقات الصلوات الخمس؛ فصلاة الفجر والظهر في الغداة، وصلاة العصر والمغرب والعشاء في العشي، وينتظم أوقات أذكار الصباح والمساء، بل ينتظم اليوم كله، وجميع الأوقات.

﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم يريدون وجهه، وهذه الآية كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

ومعنى ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾، أي: أنهم مخلصون لربهم، لا يريدون بدعائهم رياء ولا سمعة. وهذا شرط في صلاح العمل؛ لأن العمل لا يكون صالحًا إلا بالإخلاص لله تعالى ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ الجملة تعليل للنهي عن طردهم، و«ما» في الموضعين نافية، والخطاب للنبي ﷺ، و«من» في قوله: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ في الموضعين زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: ما عليك من حسابهم أي شيء مهما قل، وما من حسابك عليهم أي شيء مهما قل. وقدم خطابه ﷺ في الموضعين تشريفًا له ﷺ.

﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ﴾ جواب النفي في قوله: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ الآية. والفاء للسببية، أي: ليس عليك من حسابهم أيُّ شيء، وليس من حسابك عليهم أيُّ شيء، فيتسبب ذلك بأن تطردهم.

وقد أكد هذا الكلام بخمسة مؤكدات؛ للتنصيص على البراءة من هذه الدعوة لطرد المؤمنين، وهي:

الأول: «مِن» البيانية في قوله: ﴿مِنۡ حِسَابِهِم﴾.

والثاني: «مِن» الزائدة في قوله: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾.

والثالث: تقديم المعمول في قوله: ﴿مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾، فقوله: ﴿مِنۡ حِسَابِهِم﴾ متعلق بـ«شيء»، وقدم عليه للتأكيد.

والمؤكد الرابع: صيغة الحصر في قوله: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾.

والمؤكد الخامس نفي المقابل في قوله: ﴿وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ﴾.

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ معطوف على ﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ﴾، وقيل: يجوز أن يكون جوابًا للنهي في قوله: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ﴾، ولم يقل: فتكون ظالمًا؛ تلطفًا في مخاطبته ﷺ، أي: فتكون من الظالمين بطردهم.

وهذا منتف عنه بانتفاء سببه؛ لأنه ﷺ لم يطردهم، بل كان ﷺ يحبيهم ويرحب بهم استجابة لأمر ربه عز وجل له، بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية.

قال السعدي[1]: «وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد الامتثال، وكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم».

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾.

اقترح السادات والأشراف من قريش- كما في سبب نزول الآية السابقة- طرد الذين آمنوا من مجلسه ﷺ، تعاظمًا منهم وتكبرًا، كيف يكون هؤلاء الأرذلون- كما يزعمون- هم أتباعه وأهل مجلسه؟ فبين الله عز وجل أنه افتتن هؤلاء السادات وابتلاهم بهؤلاء الضعفاء، فصاروا بسبقهم إلى الإيمان وسبقهم إلى مجلس الرسول ﷺ فتنة لهؤلاء السادة وسببًا في إعراضهم.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، الواو استئنافية.

﴿فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾، الفتنة: الابتلاء والاختبار، ويكون في الخير والشر، كما قال

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٠٤).

تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

أي: ابتلينا وامتحنا ﴿بَعْضَهُم﴾ وهم السادات والأشراف ﴿بِبَعْضٍ﴾ وهم العبيد والمستضعفون، بما مننا عليهم من الإيمان ومجالسة الرسول ﷺ.

فأنف السادات والأشراف أن يسلموا معهم، أو بعدهم، أو يحضروا مجلسه ﷺ وفيه هؤلاء المستضعفون، فكان هؤلاء المستضعفون فتنة وابتلاء لهؤلاء السادات والأشراف، وسببًا في ضلالهم.

وكان من حكمة الله تعالى البالغة أن يكون أتباع الرسل- غالبًا- وخاصة في بداية دعوتهم هم الضعفاء والمساكين؛ ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ: هل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباع الرسل(١).

﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، اللام لام العاقبة. والمعنى: وكذلك فتنا بعضهم ببعض لتكون العاقبة أن يقولوا: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا.

أو هي لام التعليل، أي: لأجل أن يقولوا.

والاستفهام في قولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ للإنكار والتعجيب والاحتقار؛ كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]، وكما قال المشركون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، أي: أنعم الله عليهم وتفضل، ﴿مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، أي: من دوننا.

وهذا منهم على سبيل التهكم بالمؤمنين، ومجاراتهم في اعتقادهم أن الله منَّ عليهم بمعرفة الحق، أي: كيف يُظن أن الله يمن على هؤلاء الضعفاء ويتركنا ونحن السادة والأشراف؛ كما قالوا فيما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١].

والمعنى: أهؤلاء أنعم الله عليهم دوننا بالإيمان، أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)، من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما.

الخير- لو كان ما صاروا إليه خيرًا- ويدعنا؛ كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم: ٧٣].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه: أن الأقرع بن حابس رضي الله عنه جاء إلى رسول الله ﷺ وقبل إسلامه، فقال: إنما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وجهينة. فقال له رسول الله ﷺ: «**أرأيت إن كانت أسلم وغفار ومزينة وجهينة خيرًا من بني تميم وبني عامرٍ وأسدٍ وغطفان، أخابوا وخسروا؟**». فقال: نعم. قال: «**والّذي نفسي بيده إنّهم لخيرٌ منهم**»[1].

قال ابن القيم[2]: «امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم؛ أنف وحمي أن يسلم معه أو بعده، ويقول: هذا يسبقني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا، فلو كان ذلك خيرًا وسعادة ما سبقنا هؤلاء إليه».

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الاستفهام للتقرير، أي: أن الله سبحانه أعلم بالشاكرين، والباء في قوله: ﴿بِأَعْلَمَ﴾ زائدة من حيث الإعراب، ومؤكدة من حيث المعنى.

و«الشاكرين» جمع «شاكر»، أي: الشاكرين من عباده له عز وجل، الذين يعرفون قدر نعمته عليهم بالهدى؛ فيشكرونه عليها بالاعتراف بها باطنًا بقلوبهم، والإقرار بها بألسنتهم، والانقياد له ظاهرًا بجوارحهم.

والجواب: بلى هو سبحانه أعلم بالشاكرين، والذين هم أهل للتوفيق والهداية والإيمان، فيوفقهم ويهديهم بفضله، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

كما أنه سبحانه أعلم بالكافرين فيضلهم بعدله.

فلا الشريف يقربه شرفه عند الله، ولا الضعيف يبعده ضعفه عن الله، قال ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨١٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٢٢).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٥٠).

«إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

نهى عز وجل في الآيات السابقة نبيه ﷺ عن طرد الذين يدعون ربهم، وهم المؤمنون، ثم أمره في هذه الآية إذا جاؤوه أن يقابلهم بالتحية والإكرام والإعظام والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: يصدقون بآياتنا الكونية والشرعية، وهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، كما في الآية السابقة.

﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ جواب الشرط «إذا»، أي: فحيهم بتحية الإسلام: سلام عليكم، وبشرهم بسعة رحمة الله ومغفرته قائلًا لهم: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، أي: أوجب ربكم على نفسه الرحمة؛ تفضلًا منه وكرمًا، وإحسانًا وامتنانًا.

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾؛ قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، ويعقوب، وأبو جعفر بفتح الهمزة ﴿أَنَّهُۥ﴾. وقرأ الباقون بكسرها: «إنه».

والهاء في «أنه» في محل نصب بـ«أن»، وهو ضمير الشأن. ﴿سُوٓءًۢا﴾، أي: عملًا سيئًا. ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ الباء للملابسة، أي: متلبسًا بجهالة، أي: بسفه، وكل ما عمل من سوء وكل ما عصي الله به فهو بجهالة، أي: بسفه.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي: ثم رجع وأناب إلى الله تعالى بالإقلاع عن عمله السيئ، والندم على فعله، والعزم على عدم العودة إليه، وأن تكون توبته خالصة لوجه الله، وفي وقتها المناسب.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وابن ماجه في الزهد، القناعة (٤١٤٣)، وأحمد (٢/ ٢٨٥، ٥٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَأَصْلَحَ﴾، أي: وأصلح حاله وعمله، بالإخلاص لله، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ قرأ ابن عامر، وعاصم، ويعقوب بفتح الهمزة ﴿فَأَنَّهُۥ﴾. وقرأ الباقون بكسرها: «فإنه».

أي: فإن الله ذو مغفرة واسعة، يستر ويتجاوز، وذو رحمة واسعة شاملة، فبمغفرته ورحمته يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾، الواو استئنافية. والكاف للتشبيه، بمعنى: «مثل». والإشارة لما سبق في الآيات من تفصيل وبيان، أي: ومثل ما سبق من تفصيل وبيان وإيضاح تام للآيات الشرعية والكونية والحجج والدلائل، مما لا تفصيل فوقه، مثل هذا تفصيل الآيات كلها؛ ليتبين طريق الحق والرشاد، وسبيل المهتدين؛ ترغيبًا في سلوكه.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، الواو عاطفة. واللام للتعليل.

قرأ نافع، وأبو جعفر: «ولتستبين» بالتاء؛ خطابًا له ﷺ، «سبيلَ المجرمين» بنصب سبيل على أنه مفعول به، أي: ولتستبين أنت يا محمد، أي: لتعرف بها فصلنا لك من الآيات سبيل المجرمين.

وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بالتاء على التأنيث، ورفع ﴿سَبِيلُ﴾ على أنه فاعل ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾، أي: ولتضح وتتبين سبيلُ المجرمين وطريقُهم.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم بالياء على التذكير ورفع «سبيلُ»: «وليَستبين سبيلُ المجرمين».

ومعنى القراءتين واحد، لكن على القراءة الأولى أُنّث السبيل، وعلى القراءة الثانية ذُكِّر.

والمعنى: ولتظهر وتتضح طريق المجرمين وسيرتهم في التكذيب والكفر، والظلم والحسد، والكبر واحتقار الناس ونحو ذلك؛ للحذر منها.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾، وهو ﷺ مأمور بتبليغ القرآن كله، وإنما يؤمر أحيانًا أمرًا خاصًّا للاهتمام.

٢- أن الرسول ﷺ لا يملك من أمر الرزق شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، فالأرزاق كلها بيد الله تعالى.

٣- أنه ﷺ لا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾؛ لأن علم الغيب خاص بالله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

فما يخبر به ﷺ من الغيب هو مما أوحاه الله تعالى إليه.

٤- الرد على الذين يغلون بالنبي ﷺ ويصرفون له بعض صفات الربوبية، فيطلبون منه قضاء الحاجات وتفريج الكربات، ويزعمون أنه يعلم الغيب، وهو بشر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا يعلم الغيب، وليس بملك؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

٥- أن الملَك قد يتصور بصورة إنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾، وقد كان جبريل عليه السلام يأتي إلى النبي ﷺ بصورة بشر، فقد جاءه في صورة دحية الكلبي وغيره.

٦- إثبات الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، وهو أنواع، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

٧- كمال عبودية النبي ﷺ لربه، واتباعه لوحي الله تعالى إليه، وتبليغه له على أكمل وجه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ

رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وبراءته ﷺ من أن يدعي شيئًا فوق منزلته التي أنزله الله تعالى فيها.

فنفى ﷺ أن يقول لهم: عندي خزائن الله، أو أعلم الغيب، أو أقول إني ملك؛ كما قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨].

كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١].

٨- أن الشرائع توقيفية، وأن الرسول ﷺ لا ينطق بما أتى به من الشرع عن الهوى، بل عن وحي يوحى إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، كما قال تعالى في سورة النجم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣-٤].

٩- لا يستوي الكافر والمؤمن، كما لا يستوي الأعمى والبصير، ولا يستوي الكافر والمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، وشتان بين من اتبع هدى الله فهو على نور من ربه، وبين من صدف وأعرض فهو على جهل وضلال وفي حالك الظلمات.

١٠- توبيخ وذم من لم يتفكر في آيات الله الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ومفهوم هذا الحث على التفكر.

١١- وجوب الإنذار بالقرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾.

١٢- أن أعظم ما ينذر ويخوف به القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾، فهو أبلغ المواعظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨].

١٣- أنه لا ينتفع بالقرآن إلا المؤمنون الذين يؤمنون باليوم الآخر؛ لهذا خصهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وإلا فهو نذارة للخلق كلهم.

١٤- إثبات الحشر إلى الله تعالى والقيامة والبعث، والحساب والجزاء على الأعمال.

١٥- أن الإيمان باليوم الآخر، والبعث، وحشر الناس للحساب والجزاء؛ من أعظم ما يحمل الناس على الإيمان والعمل الصالح؛ لهذا يخوف الله تعالى به كثيرًا في القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، كما

يقرن عز وجل بين الإيمان به سبحانه والإيمان باليوم الآخر- غالبًا- لأجل ذلك.

١٦- أنه لا ولي ولا شفيع للمؤمنين ولا لأحد من الخلق يجلب له النفع أو يدفع عنه الضر من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

١٧- أن الله ولي من خافه واتقاه، وخاف الحشر إليه، والمقام بين يديه؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، ومفهوم هذا أنه عز وجل هو وليهم.

١٨- إثبات الشفاعة بإذن الله تعالى، وهي أنواع؛ وأعظمها شفاعته ﷺ لأهل الموقف ليقضى بينهم، وهي خاصة به ﷺ بعد أن يعتذر عنها غيره من أولي العزم.

ومنها شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض لرفع درجات بعضهم، وفي العصاة ممن دخلوا النار ليخرجوا منها.

١٩- أن الإنذار بالقرآن والوعظ به لأجل التقوى، وهو لهذا أنزل؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

٢٠- تحريم طرد المؤمنين الصالحين من مجالس الذكر والخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾.

٢١- أن المتبع للحق والحريص على الخير والهدى ينبغي أن تتاح له مجالس الذكر، وهو أولى من غيره، من غير تمييز بين غني وفقير، وذي جاه وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية.

٢٢- عناية الله عز وجل بأهل عبادته ودعائه والإخلاص له، والثناء عليهم، والدفاع عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

٢٣- إثبات ربوبية الله الخاصة لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُم﴾.

٢٤- الترغيب في دعاء الله تعالى وعبادته في الغداة والعشي وفي جميع الأوقات، والإخلاص له.

٢٥- إثبات الإرادة للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، وفي هذا رد على الجبرية.

٢٦- إثبات وجه الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، أي: يريدون الإخلاص له عز وجل بذاته وصفاته.

٢٧- أن كل إنسان لا يحاسب عن غيره، وإنما يحاسب عن نفسه فقط، وحساب الجميع على الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

كما قال نوح عليه السلام لما قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)﴾؛ قال: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤)﴾ [الشعراء: ١١١-١١٤].

٢٨- كمال عدل الله عز وجل، حيث جعل كل إنسان محاسبًا عن نفسه، لا عن غيره.

٢٩- في خطاب الله عز وجل لنبيه ﷺ بهذا الخطاب القوي بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ دلالة على قيام هذا الدين على العدل بلا محاباة، وعلى أنه ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى، كما سبق ذكره.

٣٠- أن طرد المؤمنين من مجالس الذكر والخير ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وفي هذا تعريض بظلم من سعى إلى طردهم من أشراف قريش وغيرهم، فمن طردهم أو سعى في طردهم فهو ظالم.

٣١- أن للراغب في الجلوس في مجالس الذكر والخير حقًّا فيها، وهو أولى من غيره، فلا ينبغي منعه؛ لأن ذلك من الظلم.

٣٢- ابتلاء سادات وأشراف قريش بضعفائهم، حيث سبق هؤلاء الضعفاء إلى الإيمان وإلى الجلوس إلى النبي ﷺ، مما جعل أولئك السادة يأنفون من اتباع النبي ﷺ ومن مجالسته؛ كبرًا منهم وغرورًا وإعجابًا بأنفسهم، وحسدًا واحتقارًا لهؤلاء الضعفاء وظلمًا لهم، واعتراضًا على الله في هدايته من شاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾.

وهذا يدل على عدم زكائهم؛ إذ لو كانوا زاكين ويريدون الحق صادقين ما تعللوا بهذا وجعلوه عقبة تمنعهم- كما يزعمون- من اتباع الحق.

٣٣- أن الله جعل بعض الناس فتنة وابتلاء لبعض، فيترك أحدهم الحق لأن فلانًا أخذ به أو قاله، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، وكم من إنسان يترك الصلاة في المسجد المجاور له، أو يترك ميامن الصفوف، لأجل فلان وفلان. وهذا محض الفتنة.

وقد جاء يهود إلى النبي ﷺ فقال لهم: «**إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، ما شاء الله وشاء محمد**». فنهى النبي ﷺ عن هذا[١].

٣٤- إقرار الكفار بأن الإيمان منة من الله تعالى ونعمة؛ لقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

٣٥- شؤم الكبر وخطره على صاحبه؛ فقد يحمل صاحبه على ترك الحق ومجانبة أهله.

٣٦- أن الله عز وجل يمن على من يشاء فيوفقه للحق بفضله، ويخذل من يشاء فيضله بعدله.

٣٧- تحقير الكفار لشأن المؤمنين، والتنفير عما هم عليه؛ لقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

٣٨- تقرير علم الله عز وجل بمن يشكر ومن يكفر، ومن هو أهل لهذا أو لهذا؛ لقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فيوفق من هو أهل للشكر، ويخذل من هو أهل للكفر.

٣٩- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ﴾.

٤٠- أمر الله له ﷺ بالسلام ورده على من جاءه من المؤمنين والبشارة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ الآية، وهكذا ينبغي إشاعة السلام ورده بين المسلمين والتبشير بالخير.

٤١- البشارة للمؤمنين برحمة الله تعالى الواسعة الشاملة، التي أوجبها عز وجل على نفسه؛ تفضلًا منه وكرمًا، وإحسانًا وامتنانًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ

---

(١) سبق تخريجه.

ٱلرَّحْمَةَ﴾.

وفي حديث معاذ رضي الله عنه: «**حقّ العباد على الله ألّا يعذّب من لا يشرك به شيئًا**»[١]. وهو سبحانه الذي أحق هذا وأوجبه على نفسه.

٤٢- أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

وفي الحديث: «**إنّ رحمتي سبقت غضبي**» أو: «**غلبت غضبي**»[٢].

٤٣- أن الله عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه، إلا أنه عز وجل أوجب على نفسه الرحمة وإثابة المؤمنين، فلا يجب عليه شيء بطريق العقل كما تقول المعتزلة. وإنما أوجب عز وجل ذلك على نفسه بطريق الشرع؛ تفضلًا منه وإحسانًا.

٤٤- أن من عمل سوءًا بسفه ثم تاب ورجع وأناب إلى الله تعالى، مقلعًا عن عمله السيئ، نادمًا عليه، عازمًا على عدم العودة إليه، مخلصًا لله تعالى في توبته، قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل بلوغ الروح الحلقوم؛ وأصلح حاله وعمله؛ فإن الله يتوب عليه ويغفر له ويرحمه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٤٥- التحذير من عمل السوء، والترغيب في التوبة ممن حصل منه ذلك.

٤٦- إثبات صفة المغفرة لله تعالى، وأنه ذو المغفرة الواسعة، يستر الذنب عن الخلق، ويتجاوز عن العقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ﴾.

٤٧- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، وأنه سبحانه ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾.

٤٨- أنه كما فصل عز وجل في هذه الآيات يفصل آياته كلها؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان (٣٠)، وأبو داود في الزهد (٤٢٩٦)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣).

(٢) سبق تخريجه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ وذلك إيضاحًا وبيانًا للحق، وإقامة للحجة على الخلق.

٤٩- فضل الله عز وجل ومنته على العباد بتفصيل الآيات وبيانها رحمة بهم.

٥٠- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، فإن من حكمة الله تعالى في تفصيل الآيات بيان طريق المجرمين لاجتنابه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾ في الآيات الثلاث خطاب للنبي ﷺ؛ للتأكيد والاهتمام الخاص، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾، أي: نهاني ربي، ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: عن عبادة الذين تدعون غير الله، من الأنداد والأوثان، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)﴾ [غافر: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ الآية [الأنعام: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ الآية [الأنعام: ٤٦].

وأجرى هذه المعبودات مجرى العقلاء في إطلاق اسم الموصول «الذين» عليهم، لأنهم عاملوهم معاملة من يعقل باعتقادهم فيهم النفع والضر، أو لأن من بين معبوداتهم من يعقل كالملائكة والإنس والجن.

﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: تعبدونهم وتسألونهم قضاء الحاجات، ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾، ولم يقل: «مع الله» مع أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]؛ لأن من أشرك مع الله غيره فهو لم يعبد الله، وعبادته له كالعدم، كما قال عز وجل في

الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشّركاء عن الشّرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشِركه**»[١].

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾؛ كرر الأمر ﴿قُلْ﴾؛ لتأكيد قطع أطماعهم، و«الأهواء»: ما تهواه النفوس من غير تحكيم العقل والشرع.

أي: قل: لا أتبع أهواءكم فيما تدعونني إليه من عبادة غير الله، وطرد المؤمنين وغير ذلك.

ولم يقل: «لا أتبعكم»؛ للإشارة إلى أنهم في دينهم تابعون للهوى، نابذون لدليل العقل، كما نبذوا دليل الشرع، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

وقد أحسن القائل:

وَآفَـةُ العَقْـلِ الهَـوَى فَمَـنْ عَـلَا عَـلَى هَـوَاهُ عَقْلُـهُ فَقَـدْ نَجَـا[٢]

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾؛ جواب لشرط مقدر، أي: إن اتبعت أهواءكم إذَنْ قد ضللت؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، أي: لو كان معه من إله إذَنْ لذهب كل إله بما خلق.

وقدم جواب «إذن» على «إذن» في قوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾؛ للاهتمام بالجواب؛ ولهذا أكد بـ«قد» مع كونه مفترضًا، وليس بواقع؛ للإشارة إلى أن وقوعه محقق لو تحقق الشرط المقدر الذي دلت عليه «إذَن».

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ مؤكد لها، أي: إن اتبعت أهواءكم إذن قد ضللت وخرجت عن عداد المهتدين، وهذا من تأكيد الشيء بنفي ضده؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وقوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٩].

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» ٢/ ١٣٣.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أشد من لو قال: وما أنا مهتد؛ لأن مفارقة المرء فئته بعد أن كان منها أشد عليه من اتصافه بما يخالف صفاتهم قبل الاتصال بهم. وفيه تعريض بالمشركين وعدم هدايتهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين: ﴿إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾، وأكد الجملة بحرف التأكيد «إن»؛ لأنهم ينكرون أن يكون على بينة من ربه.

﴿مِّن رَّبِّى﴾ صفة لـ«بينة»، أي: إني على يقين من معرفة ربي وتوحيده، وأنه عز وجل أحد فرد صمد، دلت على وجوده ووحدانيته وتمام وقدرته، آياته ومخلوقاته.

وفي هذا قطع لطمعهم في صرفه ﷺ عما هو عليه من التوحيد، كما أن فيه تعريضًا بالمشركين وما هم عليه من اضطراب في آلهتهم.

ويحتمل أن تكون «من» ابتدائية، فيفيد قوله: ﴿مِّن رَّبِّى﴾ تعظيم هذه البينة وكمالها، أي: إني فيما جئتكم به على بينة جاءت من ربي بما أوحاه الله إلي في الكتاب والسنة، أي: على يقين بيِّن وبصيرة بصحة ما أدعوكم إليه.

﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ الجملة حالية، وفيها معنى التعجب، أي: والحال أنكم كذبتم به مع وضوح البينة، والضمير في «به» يعود إلى المفهوم من قوله: ﴿إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾، أي: وكذبتم بهذا البيان، أي: بما دعوتكم إليه من توحيد الله تعالى، وبما أوحاه إليّ من القرآن والسنة.

بل إنهم إمعانًا منهم بالتكذيب والعناد طلبوا تعجيل العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ

صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: ٤٨]؛ ولهذا قال هنا:

﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾، «ما» الأولى نافية، و«ما» الثانية موصولة، و«عند» ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ للدلالة على الحصر، أي: ما عندي الذي تستعجلون به من العذاب، أي: ليس ذلك بيدي ولا في مقدرتي، و«الاستعجال»: طلب التعجيل.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ تصريح بمفهوم القصر السابق وتأكيد له، و«إن» نافية بمعنى «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما الحكم إلا لله، أي: ما الحكم في تعجيل العذاب لكم أو تأجيله وتأخيره، وفي غير ذلك من الأحكام الكونية والشرعية؛ إلا لله عز وجل وحده، له في ذلك الحكمة البالغة، والحجة الدامغة؛ فإن شاء عجّل عذابكم، وإن شاء أجله وأنظركم.

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾؛ قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وعاصم: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ بالصاد من القصص، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]. ومعنى ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾، أي: يخبر بالحق ويبينه ويقوله، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤].

وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوب: «يَقْضِ الحق» بالضاد من القضاء، بمعنى الحكم والفصل، أي: يقضي بالحق ويحكم به.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾، «خير» اسم تفضيل، و«الفاصلين» جمع «فاصل»، و«الفصل» يكون بالحكم ويكون بالقول، قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠].

والله عز وجل خير الفاصلين في قوله وحكمه؛ فهو خير الفاصلين في قوله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾ [الطارق: ١٣]، وقال تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وهو خير الفاصلين في حكمه وقضائه بين عباده في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [السجدة: ٢٥].

فقوله فصل، وخبره صدق، وحكمه وقضاؤه عدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأقوال والأخبار، وعدلًا في الأحكام.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ ﴾، «لو» شرطية، و«ما» موصولة، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء المكذبين المتعجلين بالعذاب؛ جهلًا وعنادًا: لو أن عندي الذي تستعجلون به من العذاب.

﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، اللام واقعة في جواب «لو». وبني الفعل «قضي» لما لم يسم فاعله؛ لأن الذي يقضي بذلك معلوم، وهو الله وحده.

ومعنى «قضي»: تم وانتهى، كما قال تعالى: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [مريم: ٣٩].

والأمر: الخلاف والنزاع، أي: قل: لو أن عندي أمر الذي تستعجلون به من العذاب؛ لانتهى الأمر بيني وبينكم وتم بإيقاع الله العذابَ عليكم.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أظهر في مقام الإضمار؛ لإشعارهم بأنهم ظالمون بشركهم وتكذيبهم الله ورسوله واستعجالهم العذاب، وتهديدهم بالعذاب عاجلًا أو آجلًا، وكذا غيرهم من الظالمين ممن سلك مسلكهم.

والمعنى: والله أعلم بالظالمين منكم ومن غيركم، لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يهملهم.

وقد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، هل أتى عليكم يوم كان أشد من يوم أُحد؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردتّ،**

فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثّعالب[١]، فرفعت رأسي؛ فإذا بسحابةٍ قد أضلّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إنّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال؛ لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال، وسلّم عليّ، ثم قال: يا محمد، إنّ الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربّك إليك؛ لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين[٢]»، فقال رسول الله ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، لا يشرك به شيئًا**»[٣].

ولا تنافي بين هذا وبين الآية؛ لأنه في هذا الحديث عرض عليه تعجيل عذابهم من غير طلب منهم، فسأل تأخير عذابهم؛ لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئًا.

وأما قوله تعالى في الآية: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، ففيه أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم.

قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

دلت الآيات السابقة على أن هناك من يرفع الرسول ﷺ فوق منزلته، ويطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله؛ لقوله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾، ثم بين في هذه الآية أن ذلك كله عند الله عز وجل.

قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾، «مفاتح» جمع «مِفْتَح»، كما أن «مفاتيح» جمع

---

(١) قرن الثعالب: هو ميقات أهل نجد «قرن المنازل».

(٢) الأخشبان: هما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبًا وشمالًا.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد، ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥).

«مِفْتاح»، و«مفاتح الغيب» جمع مضاف يعم كل المغيبات، أي: كل مفاتح الغيب وخزائنه، و«الغيب» ما غاب عن الناس؛ عن علمهم، وعن أعينهم وحواسهم. وقدم الظرف «عنده»؛ لإفادة الاختصاص، أي: وعنده وحده مفاتح الغيب.

﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الجملة حالية، وفيها توكيد وبيان لقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾، و«إلا» أداة حصر، أي: لا يعلم مفاتح الغيب إلا هو وحده دون غيره، فهو المختص المستأثر بها؛ لأنه طوى علمها عن الخلق أجمعين؛ من الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين، وسائر الخلق أجمعين، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

عن سالم بن عبد الله، عن أبيه رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]»(١).

وفي حديث عمر رضي الله عنه في قصة مجيء جبريل إلى النبي ﷺ في صورة رجل، وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان؛ قال ﷺ: «**خمسٌ لا يعلمهنّ إلا الله**»، ثم قرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية(٢).

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾.

و«ما» اسم موصول يفيد العموم، أي: ويعلم جميع الذي في البر والبحر من الذوات؛ من حيوان ونبات وجماد، ومن المعاني، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا هو.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾، أو معطوف على قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؛ لقصد زيادة تعميم علمه

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤).

عز وجل بالجزئيات، وهو مؤذن بأن إحاطة علمه عز وجل بما هو أعظم من باب أولى.

و«من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: وما تسقط من ورقة من ورق الأشجار في البر والبحر، ﴿إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾؛ يعلمها، ويعلم سقوطها، وسببه، ووقته، وغير ذلك، ويعلم حركات جميع المخلوقات؛ من الجمادات والنباتات والحيوانات، كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ﴾ الواو عاطفة، و«لا» زائدة في المواضع الثلاثة؛ لتأكيد النفي.

و«حبة» مجرورة لفظًا، وكذا «رطب» و«يابس»، عطفًا على «ورقة».

﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ صفة لـ«حبة»، أي: ولا حبة مظروفة في طبقات الأرض إلى أبعد عمق ممكن.

﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ﴾ من عطف العام على الخاص.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾، «إلا» أداة حصر. ﴿فِي كِتَٰبٖ﴾ وهو اللوح المحفوظ، كتبت فيه هذه الأشياء، وكتب فيه كل شيء وما يتعلق به؛ علمًا وتقديرًا وخلقًا، فعلمه عز وجل وكتابه محيط بجميع الأشياء والحوادث.

﴿مُّبِينٖ﴾، أي: بيِّن واضح.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ﴾، وقوله: ﴿نُهِيتُ﴾.

٢- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ عن عبادة غير الله وما عليه المشركون من الشرك والدعوة إليه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٣- أن من أشرك مع الله غيره فهو لم يعبد الله وإن زعم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وفي الحديث قوله عز وجل: «أنا أغنى الشّركاء عن

الشّرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[(١)].

٤- إعلان ثباته ﷺ على التوحيد، وتأكيد براءته من الشرك ومن اتباع أهواء المشركين فيما يدعونه إليه من الشرك وطرد المؤمنين ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾.

٥- أن المشركين فيما هم عليه من الضلال- من دعاء غير الله وغير ذلك- إنما يتبعون أهواءهم بلا عقل ولا نقل.

٦- ينبغي الحذر من اتباع الهوى؛ لأنه يعمي صاحبه عن رؤية الحق، ويصم أذنيه عن سماعه.

٧- أن من اتبع أهواء الكفرة والمشركين فقد ضل وخرج من عداد المهتدين؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

٨- إثبات أنه ﷺ على بينة من ربه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾، أي: على بينة من توحيد ربي وتفرده بالإلهية؛ لعظيم آياته ومخلوقاته، وعلى بينة فيما أدعو إليه من وحي الله تعالى إليّ في القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّى﴾.

١٠- شدة عناد المشركين وتكذيبهم بما جاءهم به الرسول ﷺ من توحيد الله تعالى وشرعه، مع بيان الآيات ووضوح الأدلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾.

١١- الإشارة إلى استعجال المكذبين العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾، وهذا يدل على سفه عقولهم.

١٢- أن الرسول ﷺ ليس بيده ولا في مقدوره الإتيان بالعذاب وتعجيله أو تأجيله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾.

١٣- أن الحكم في إيقاع العذاب وتعجيله أو تأجيله وفي غير ذلك من الأحكام

---

(١) سبق تخريجه.

الكونية والشرعية لله تعالى وحده، ومقرون بحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

١٤- الثناء على الله عز وجل أنه يقص الحق ويقوله ويبينه، ويقضي ويحكم به؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُصُّ ٱلۡحَقَّ﴾.

١٥- أنه عز وجل خير الفاصلين؛ بقوله، وبقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾. فقوله عز وجل فصل، كما قال تعالى في وصف القرآن: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾ [الطارق: ١٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٣]. وحكمه عز وجل وقضاؤه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

١٦- أنه لو كان عنده ﷺ ما يستعجلون به من العذاب لقضي الأمر بينه وبينهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾، أي: لقضى الله الأمر بينه وبينهم بإنزال عذابه عليهم.

١٧- التهديد للمشركين المكذبين المستعجلين للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٨- أن الله عز وجل أعلم بالظالمين المستحقين للعذاب بسبب ظلمهم وشركهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٩- ظلم هؤلاء المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالإظهار بدل الإضمار، فلم يقل: «والله أعلم بكم» للتسجيل عليهم بالظلم، والتهديد لهم ولغيرهم من الظالمين.

٢٠- سعة علم الله عز وجل، وإحاطته واختصاصه بجميع مفاتح الغيب وخزائنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾.

٢١- أن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وفي هذا إبطال

لقول الرافضة الإمامية الجهلة الخرافيين: إن الإمام يعلم الغيب- أخزاهم الله-.

٢٢- إحاطة علم الله تعالى بكل ما في البر والبحر من المخلوقات من الذوات والمعاني؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

٢٣- علم الله تعالى التام بجميع الجزئيات والحركات والسكنات؛ من الحيوانات والنباتات والجمادات، وبكل ورقة تسقط من الأغصان والأشجار، وبكل حبة من الحبوب والبذور وغيرها، وبكل رطب ويابس، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

٢٤- أن كل ما في هذا الكون وما يجري فيه؛ كل ذلك معلوم لله تعالى، مقدر مكتوب في اللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

*   *   *

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ذكر عز وجل سعة علمه واختصاصه بعلم الغيب، وإحاطته بكل شيء، وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ، ثم أتبع ذلك ببيان عظيم قدرته وتفرده بتدبير عباده؛ منامًا ويقظة وغير ذلك، ونفوذ سلطانه فيهم، وحفظه لأعمالهم، ومن ثم قبض أرواحهم، وردهم إليه، وحسابه لهم؛ على طريقة القرآن الكريم في ذكر دلائل وحدانيته في أنفس الناس عقب ذكر دلائلها في الآفاق. وفي ذلك تقرير إلهيته، وتقرير البعث والحساب.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾، الواو عاطفة.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ صيغة قصر لتعريف جزأي الجملة، أي: وهو وحده عز وجل الذي يتوفاكم بالنوم بالليل، أي: ينيمكم فيه فترتاح أبدانكم بعد التعب والعناء؛ ولهذا قال تعالى ممتنًا على العباد: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾ [النبأ: ٩]، أي: قاطعًا للتعب وراحة لأبدانكم.

وهذا هو التوفي الأصغر؛ لأن الوفاة نوعان:

النوع الأول: وفاة صغرى تكون بالنوم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، أي: متوفيك بالنوم، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

وسمي النوم وفاة؛ لانقطاع الإدراك والتمييز والإحساس عند النائم.

والنوع الثاني: الوفاة الكبرى بالموت ومفارقة الروح والبدن.

والخطاب يحتمل أن يكون عامًّا لجميع الناس؛ المؤمن وغيره، ويحتمل أن يكون

موجهًا للمشركين؛ لقوله فيما سبق: ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٨]، وقوله فيما يأتي: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٤].

ولما كان هذا الحال غير خاص بالمشركين علم منه أن الناس فيه سواء.

وتخصيص النوم بالليل؛ لأنه وقت النوم المعتاد الموافق للفطرة التي فطر الله الناس عليها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [الفرقان: ٤٧]، أي: ساترًا بسواده ووقتًا للسكون والنوم؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان: ٤٧]، كما قال تعالى في سورة النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ٩-١١].

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ الجملة معطوفة على ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾، وهي أيضًا معترضة من حيث المعنى بين قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾؛ للدلالة على إحاطة علم الله عز وجل بخلقه، في ليلهم ونهارهم، وفي سكونهم وحركتهم، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

و«ما» موصولة. ومعنى ﴿جَرَحْتُم﴾، أي: ويعلم الذي كسبتم وعملتم من طاعة ومعصية وخير أو شر؛ ولهذا سميت «اليد» جارحة؛ لأنه يكتسب بها، وسميت الجوارح، وهي الكواسب من السباع والطيور؛ لأنه يصاد ويكتسب بها، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤].

وإذا كان الخطاب مع المشركين فالمعنى: ويعلم ما كسبتم من الإثم خاصة، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿بِٱلنَّهَارِ﴾؛ خص النهار؛ لأنه وقت الكسب والمعاش والعمل المعتاد، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١١]، وقد يكون العمل في الليل، والله عز وجل يعلم ذلك كله.

وفي الآية تحذير من اكتساب الشر، وحث على اكتساب الخير.

والنوم وجعل الليل وقتًا له، والنهار وقتًا للعمل؛ كل ذلك آية من آيات الله تعالى، ونعمة من نعمه، ورحمة لعباده، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

فقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، أي: في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: في النهار، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١٠-١١].

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ معطوفة على قوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾. والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى النهار، أي: ثم يبعثكم في النهار، وقيل: ثم يبعثكم في المنام. «والبعث»: اليقظة والإفاقة من النوم، أي: ثم يوقظكم في النهار.

﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن يقضى أجل مسمى. وبني الفعل «يقضى» لما لم يسم فاعله؛ لأن الذي يقضي ذلك معلوم، وهو الله عز وجل. ومعنى «يقضى» يُتم ويُنهى. ﴿أَجَلٌ﴾: وقت. ﴿مُّسَمًّى﴾: معلوم معين محدود معدود بالسنين والشهور، والأيام والليالي، وهو زمان النوم واليقظة.

والمعنى: ليقضى أجل مسمى لكل واحد من الناس، وهو مدة ومقدار حياته وعمره الذي كتبه الله له إلى أن يموت، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: **«فيرسل إليه ملك، فيكتب رزقه وأجله وعمله»**[1].

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ قدم الخبر «إليه» للدلالة على الحصر، أي: ثم إليه عز وجل وحده رجوعكم، أي: مصيركم ومردكم ومعادكم يوم القيامة بالبعث بعد الموت.

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧).

وهذه الآية كقوله تعالى في أول السورة: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢]؛ فالأجل الأول أجل الموت، والأجل الثاني أجل البعث.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾، أي: يخبركم. والنبأ: الخبر الهام، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ: ١-٢].

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، «ما» مصدرية، أو موصولة تفيد العموم، أي: ثم يخبركم بجميع عملكم، أو بجميع الذي كنتم تعملون في ليلكم ونهاركم، ويحاسبكم ويجازيكم عليه خيرًا كان أو شرًّا.

وفي هذا وعد لمن آمن وعمل صالحًا، ووعيد لمن كفر وعمل السوء.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾؛ تعريف المبتدأ والخبر للدلالة على الحصر، أي: وهو وحده القاهر، ذو الغلبة والقوة والسلطان، الذي قهر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته كل شيء.

﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ بذاته، وصفاته، ونفوذ أمره تعالى فيهم. والمراد بالعبودية هنا: العبودية العامة.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، أي: ويرسل عليكم أيها الناس من الملائكة حفظة يحفظون أبدانكم؛ رعاية لكم، وعناية بكم، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

ويحفظون أعمالكم ويحصونها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾ [ق: ٤].

وفي الحديث: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل**» الحديث[١].

قال قتادة في معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ الآية، «يقول: حفظة يا ابن آدم، يحفظون عليك عملك ورزقك وأجلك، إذا توفيت ذلك قبضت إلى ربك»[٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، «حتى» للغاية، أي: ويرسل عليكم حفظة يحفظونكم ويحفظون أعمالكم، إلى غاية حضور أجل أحدكم واحتضاره، فإذا جاء أحدكم الموت:

﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾؛ قرأ حمزة: «توفاه» بألف ممالة بعد الفاء. وقرأ الباقون بتاء ساكنة بعد الفاء: ﴿تَوَفَّتْهُ﴾.

أي: ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ بقبض روحه وإخراجها من بدنه ﴿رُسُلُنَا﴾؛ وهم: ملك الموت وأعوانه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧].

﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ الجملة حالية. والتفريط: التقصير في العمل، والإضاعة في الذوات، أي: وهم لا يقصرون في فعل ما أمروا به، ولا يضيعون ما وكل إليهم، كما قال تعالى في وصف ملائكته: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦]، فلا يفرطون في قبض روح من حان أجله، وحفظها وتسليمها لملائكة الرحمة إن كانت من المؤمنين، أو تسليمها لملائكة العذاب إن كانت من الكافرين، وينتهى بأرواح الأبرار إلى الجنة في عليين، وبأرواح الكفار إلى النار في سجين أسفل سافلين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾، أي: ثم- بعد توفيهم وانتهاء الحياة البرزخية- أرجعوا إلى الله

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٥)، ومسلم في المساجد (٦٣٢)، والنسائي في الصلاة (٤٨٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٠٦).

بالبعث يوم القيامة؛ ليحاسبهم ويجازيهم، فيحكم فيهم بعدله، ويمن على من يشاء منهم بفضله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠)﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧)﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿مَوْلَاهُمُ﴾ الذي يتولى أمورهم ويحاسبهم ويجازيهم في ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

﴿الْحَقِّ﴾ صفة لـ«مولاهم»، أي: مولاهم العدل الذي لا يحكم إلا بالحق.

﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾، «ألا» أداة استفتاح وتنبيه لأهمية الأمر، وقدم الخبر «له»؛ للدلالة على الاختصاص، أي: ألا له وحده الحكم في مجازاتهم، كما أن له وحده الحكم فيما شرع لهم، وفيما قدر عليهم؛ فله عز وجل الحكم الجزائي، والحكم الشرعي، والحكم الكوني.

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾؛ لكمال علمه عز وجل بخلقه، وحفظه لأعمالهم وأعدادهم وأحوالهم وآجالهم وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك: ١٤].

ولقدرته التامة على حساب الخلائق بأسرع وقت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس: ٨٢].

ولأن حسابه آت وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان في هذه الدنيا قصير؛ فما أسرع ما يرتحل منها ويلقى ربه فيحاسبه.

وهو أسرع الحاسبين- أيضًا- حيث يجد الإنسان شيئًا من جزاء عمله في الدنيا؛ فإن عمل خيرًا ظهر أثر ذلك في سعادته وتيسر أموره، وإن عمل شرًّا ظهر عليه ضد ذلك، وهذا أمر معلوم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات عظمة الله تعالى وتمام قدرته وتفرده بالتدبير؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ الآية.

٢- نعمة الله تعالى على عباده، ورحمته لهم، وآياته العظيمة؛ في جعل النوم، وخلق الليل والنهار، وجعل الليل وقتًا للنوم والنهار وقتًا للعمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي

﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾.

٣- أن النوم أخو الموت، لكنه وفاة صغرى دون الموت.

٤- أن وقت النوم المعتاد والمناسب للفطرة التي فطر الله الناس عليها هو الليل؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾.

٥- علم الله تعالى التام بما يعمله العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، وهو سبحانه يعلم ما يعملون بالليل والنهار، والسر والجهار، وإنما خص النهار؛ لأنه الوقت المعتاد للعمل.

٦- التحذير من ارتكاب المعاصي، ووجوب مراقبة الله تعالى ليلًا ونهارًا.

٧- أن الوقت المعتاد والمناسب للعمل هو النهار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾.

٨- أن ما خرج عن المعتاد من جعل الليل وقتًا للعمل، والنهار وقتًا للنوم؛ إنما هو انتكاس ومخالفة للفطرة التي فطر الله الناس عليها، وتشبه بأخس المخلوقات، وهي الكلاب، فهي التي تنام في النهار وتبحث عن الطعام في الليل.

ولا يخفى ما في هذا من اضطراب لحياة الناس؛ وبخاصة المسلمين. والمصيبة أن غير المسلمين بقوا على الفطرة في النوم ليلًا والعمل نهارًا، بينما عكس كثير من المسلمين هذا فجعلوا الليل وقتًا للسهر والنهار وقتًا للنوم.

وفي الحديث: «**يكره النّوم قبل العشاء، والحديث بعدها**»[1]، أي: بعد العشاء؛ لأنه وقت النوم.

وفي الحديث الآخر: «**بورك لأمّتي في بكورها**»[2]. والبكور: القيام مبكرًا في الصباح للعمل، وبركة هذا الوقت أمر معلوم وملحوظ لمن وفقه الله للاستفادة من هذا الوقت وعدم تضييعه بالنوم، كما هو حال الكثيرين.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٦٨)، ومسلم في المساجد (٦٤٧)، وأبو داود في الصلاة (٣٩٨)، والنسائي في المواقيت (٤٩٥) من حديث أبي برزة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٦)، والترمذي في البيوع (١٢١٢)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٣٦) من حديث صخر الغامدي رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن».

٩- أن الإفاقة من النوم والاستيقاظ منه نوع من البعث؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

١٠- أن لكل إنسان أجلًا مسمى ومدة محدودة في بقائه في هذه الحياة تنتهي بالموت، لا يتقدم عنها ولا يتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

١١- مرد الخلائق كلهم ورجوعهم إلى الله تعالى بالبعث بعد الموت يوم القيامة، ومحاسبته لهم ومجازاتهم على أعمالهم خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

١٢- الوعد لمن آمن وعمل صالحًا، والوعيد لمن كفر وعمل السيئات.

١٣- إثبات اسم الله تعالى «القاهر»، وأنه عز وجل ذو القهر والغلبة والسلطان التام والحكم النافذ؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾.

١٤- إثبات الفوقية والعلو لله تعالى على خلقه، فهو عال عليهم بذاته، وصفاته، ونفوذ أمره فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

١٥- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِهِۦ﴾.

١٦- رعاية الله تعالى لخلقه وعنايته بهم، وحفظهم وحفظ أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾.

١٧- وجوب مراقبة الله تعالى فيما نقول ونفعل؛ لأن الله أرسل علينا حفظة يحفظون أعمالنا.

١٨- أن الموت غاية كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

١٩- أن الله عز وجل وكل رسلًا من ملائكته بقبض أرواح بني آدم، وهم ملك الموت وأعوانه؛ لقوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾.

٢٠- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لأنه ذو العظمة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلُنَا﴾ بضمير الجمع.

٢١- ثناء الله تعالى على رسله من الملائكة الموكلين بقبض الأرواح، وأنهم لا يفرطون فيما وكل إليهم القيام به؛ من قبض الأرواح حين أجلها، وفي حفظها وجعلها حيث شاء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

٢٢- إثبات ولاية الله تعالى العامة لجميع العباد؛ لقوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، فهو يتولى حسابهم وجزاءهم وغير ذلك.

٢٣- أن الله عز وجل هو الحق والعدل؛ لقوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦، ٦٢، لقمان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٥].

٢٤- اختصاصه وحده عز وجل بالحكم؛ الحكم الجزائي، والحكم الشرعي، والحكم الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

٢٥- أن الله عز وجل أسرع الحاسبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾؛ قرأ يعقوب بالتخفيف «يُنجِيكم». وقرأ الباقون بالتشديد ﴿يُنَجِّيكُم﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين بالله الداعين معه آلهة أخرى؛ ملزمًا لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية:

﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، «من» اسم استفهام للتقرير، أي: من الذي ينجيكم؛ أي يخلصكم وينقذكم.

﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾؛ كظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة الرياح والعواصف التي يلتبس فيها الطريق، ويخشى فيها من العدو وضلال الطريق.

﴿وَٱلْبَحْرِ﴾، أي: ومن ظلمات البحر التي فيها زيادة على ظلمات البر ظلمة لجة البحر وأمواجه؛ مما يخشى معه من الغرق، والعدو، وضلال الطريق، قال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٣].

أي: من ينجيكم من ظلمات البر والبحر وشدائدها ومخاوفها غير الله تعالى وحده.

﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ الجملة حالية، أي: تفزعون إليه بالدعاء، أي: تدعونه دعاء مسألة وطلب.

﴿تَضَرُّعًا﴾ جهرًا، مظهرين الضراعة والتذلل له والاستكانة.

﴿وَخُفْيَةً﴾؛ قرأ أبو بكر عن عاصم بكسر الخاء: «وخِفية». وقرأ الباقون بضمها

﴿وَخُفْيَةً﴾.

أي: مسرِّين بالدعاء، أي: تدعونه في حال الشدة متضرعين إليه ظاهرًا وباطنًا؛ استجابة لمحض الفطرة السليمة.

﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾؛ هكذا قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف بألف بعد الجيم. وقرأ الباقون: «أنجيتنا» بياء بعد الجيم ثم تاء.

والجملة في محل نصب بقول محذوف، أي: قائلين: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾، واللام موطئة للقسم، أي: والله لئن أنجانا، أو لئن أنجيتنا.

﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾، أي: من هذه الظلمات والشدة والضائقة.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله لنكونن من الشاكرين، أي: لنكونن بعدها من الشاكرين لك بالتوحيد وإخلاص العبادة لك. ومبالغة منهم لم يقولوا: «لنكونن شاكرين»، بل قالوا: ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: من الشاكرين الشكر المطلق الكامل، لا مطلق الشكر.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله: ﴿قُلِ﴾؛ أمره تعالى بالجواب؛ تنبيهًا على ظهوره وتعينه عندهم، وعدم إنكارهم ذلك.

﴿ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾، أي: ينقذكم ويخلصكم منها، أي: من هذه الشدة الخاصة.

﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾، أي: ويخلصكم من كل كرب، أي: من جميع الكروب العامة، و«الكرب»: الشدة والضيق.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾؛ ثم للعطف الرتبي، أي: ثم أنتم بعد ذلك تشركون، أي: ثم أنتم بعد اعترافكم أنه لا ملجأ إلا إلى الله، ودعائكم إياه تضرعًا وخفية، وإقسامكم أن تكونوا من الشاكرين إن أنجاكم؛ تشركون بالله تعالى وتدعون معه غيره لما كشف الشدة عنكم؛ فتشركون به من قبل ومن بعد، وتنكثون أيمانكم وتكفرون نعمته ولا تشكرون، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ

فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

وقوله: ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بالمضارع؛ لإفادة تجدد شركهم، وأن ذلك التجدد والدوام عليه أعجب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

ذكر في الآية السابقة قدرته التامة وحده على الإنعام عليهم بالنجاة، لكنهم بعد ذلك يشركون، ثم ذكر قدرته على الانتقام منهم؛ تهديدًا لهم وتخويفًا.

قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين إذا أنجاهم الله عادوا إلى الشرك؛ مخوفًا لهم ومحذرًا من عذاب الله:

﴿هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾؛ تعريف طرفي الجملة يفيد القصر، أي: هو الله وحده القادر على أن يرسل عليكم عذابًا بعد إنجائه إياكم وشرككم به، وعدم شكركم، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٦-٦٩].

﴿ٱلْقَادِرُ﴾، أي: ذو القدرة على فعل الشيء من غير عجز، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، والتقدير: على بعث.

﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾، أي: من السماء؛ بإرسال حجارة، أو حاصب، أو بالصواعق، أو الرياح الشديدة والعواصف والغرق.

﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، أي: من الأرض؛ بالخسف والزلازل والطوفان والبراكين، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الإسراء: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤].

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾، أي: يجعلكم ملتبسين مختلطين مختلفين.

﴿شِيَعًا﴾ فرقًا وأحزابًا متناحرة، كما هو حال المسلمين اليوم؛ صاروا فرقًا وأحزابًا وجماعات، يكيد بعضهم لبعض على حساب الإسلام، ولمصلحة أعدائهم، كما قال الشاعر:

فَتَفَرَّقُوا شِيَعًا فَكُلّ جزيرةٍ ... فِيهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْبَرُ[1]

وقال الآخر:

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ ... أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدِ

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ[2]

قال ﷺ: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقةً، وافترقت النّصارى على اثنتين وسبعين فرقةً، وستفترق هذه الأمّة على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، كلّها في النّار إلا واحدةً»**[3].

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، أي: يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل، و«البأس»: القتل، كما قال تعالى: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: **«أعوذ بوجهك»** ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: **«أعوذ بوجهك»** ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله

---

(١) البيت بلا نسبة؛ كما في «ديوان الحماسة» (١/ ١٧٦). ورواه بعضهم: «...فكل مدينة».

(٢) البيتان لابن رشيق القيرواني. انظر: «ديوانه» (ص٥٩).

(٣) أخرجه أبو داود في السنة (٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

ﷺ: **«هذا أهون»** أو قال: **«هذا أيسر»**(١).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ الله زوى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمّتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين؛ الأحمر والأبيض، وإنّي سألت ربّي لأمّتي ألّا يهلكها بسنةٍ عامّةٍ، وألّا يسلّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها- أو قال: من بين أقطارها- حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»**(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلًا، قال: **«سألت ربّي ثلاثًا: سألته ألّا يهلك أمّتي بالغرق؛ فأعطانيها، وسألته ألّا يهلك أمّتي بالسَّنَة**(٣)**؛ فأعطانيها، وسألته ألّا يجعل بأسهم بينهم؛ فمنعنيها»**(٤).

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾، أي: انظر وتأمل بقلبك كيف ننوع الآيات الكونية والشرعية، ونأتي بها على أوجه كثيرة ونبينها؛ بالترغيب تارة، والترهيب تارة، وغير ذلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يفقهوا، أي: يفقهوا هذه الآيات وما تدل عليه من وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده.

الفوائد والأحكام:

١- افتتاح الكلام بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾؛ للاهتمام.

٢- أن المشركين يقرون بتوحيد الربوبية، ويلجؤون في الشدة إلى الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ الآيتين.

٣- تقرير أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وفي هذا إفحام للمشركين؛

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنعام (٤٦٢٨)، والترمذي في التفسير (٣٠٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في الفتن، هلاك الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩)، وأبو داود في الفتن (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢١٧٦).

(٣) السَّنة: الجدب والقحط.

(٤) أخرجه مسلم في الفتن، هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٩٠)، وأحمد (١/ ١٧٥).

كيف يقرون بربوبيته ويشركون معه غيره؟!

٤- ينبغي أن يكون دعاء الله تعالى على وجه التضرع والخضوع والاستكانة، وأن يكون خفية؛ لقوله تعالى: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

٥- أن المخلص والمنقذ من ظلمات البر والبحر، ومن الشدائد والكروب كلها؛ هو الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾.

٦- أن المشركين يلجؤون إلى الله تعالى ويخلصون له في الشدة، ويشركون به في الرخاء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٧- كذب المشركين في وعدهم بالشكر وإقسامهم عليه إن أنجاهم الله، فلما أنجاهم أشركوا وكفروا ولم يشكروا.

٨- قدرة الله تعالى التامة على إرسال العذاب على المكذبين والمشركين؛ من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومن كل جهة، وأن يلبسهم شيعًا، ويذيق بعضهم بأس بعض؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

٩- التهديد للمشركين الذين بدلوا نعمة الله عليهم بالكفر والشرك.

١٠- أن ما حصل في الأمة من اختلاف وتفرق، وحروب وتقاتل، ومن اختلاف حتى بين المسلمين؛ مصداق لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

١١- ذم الاختلاف والتفرق شيعًا وأحزابًا وجماعات، ووجوب الحذر من ذلك، والاعتصام بحبل الله جميعًا، ونبذ الاختلاف والفرقة؛ امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

تَأْبَى الرِّمَاحُ إِذَا اجْتَمَعْنَ تَكَسُّرًا ... وَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكَسَّرَتْ آحَادَا

١٢- إقامة الحجة على الخلق بتصريف الآيات وتنويعها وبيانها؛ لأجل أن يفهموا ويعتبروا ويهتدوا بها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

١٣- ينبغي النظر والتأمل في كيفية تصريف الآيات وبيانها للناس.

١٤- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله تعالى وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾، الواو استئنافية.

﴿بِهِۦ﴾، أي: بالقرآن الكريم؛ وهو معلوم، وقد سبق في قوله: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾، أي: وكذبتم بالقرآن.

﴿قَوْمُكَ﴾؛ قريش وأهل مكة، والخطاب للنبي ﷺ، وكان الواجب أن يكونوا أولى الناس بتصديقه؛ لأنهم قومه ﷺ وقرابته.

ولهذا قال الله تعالى له: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، أي: إلا أن تودوني وتحبوني لقرابتي.

ولهذا أمره الله تعالى بإنذار الناس عامة، وإنذار الأقربين منه خاصة، فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وتكذيب قومه له- وبخاصة الأقربين منهم- أشد عليه وأعظم. وكما قال الشاعر:

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً ... عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ[1]

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الجملة مستأنفة أو حالية، أي: وهو الحق الذي لا ريب فيه؛ فهو حق في نفسه، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]. وطريق وصوله حق، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-

(١) البيت لطرفة بن العبد. انظر: «ديوانه» (ص٢٧).

١٩٤]. وهو مشتمل على الحق؛ فأخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال بعضهم: الضمير في «به» يعود للعذاب، أي: وكذب قومك بالعذاب الموعود به، وهو الواقع لا محالة.

﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ الوكيل: الحفيظ، أي: قل لست عليكم بحفيظ أمنعكم من التكذيب وأحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

بيَّن في الآية السابقة تكذيب قومه ﷺ بالقرآن، وأنه ليس وكيلًا عليهم يمنعهم من التكذيب، ثم توعدهم في هذه الآية وهددهم.

قوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، «النبأ» الخبر الهام العظيم، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ: ١-٢].

﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾، «المستقر» وقت الاستقرار والحصول، أي: لكل نبأ مما أخبر الله تعالى به وقت للوقوع، ولو بعد حين؛ سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة، لا يتقدم عنه ولا يتأخر، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد: ٣٧].

﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، أي: وسوف تعلمون في المستقبل ما توعدون به من العذاب عند حلوله بكم؛ في الدنيا، أو في الآخرة، وهذا وعيد وتهديد لهم. وقد عد بعض المفسرين من هذا ما حصل للمشركين في بدر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾، الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: وإذا رأيت الذين يتكلمون بالطعن والاستهزاء في آياتنا، ويتكلمون بالباطل والمنكر وما يخالف الحق، من هؤلاء المكذبين، وهم أشدهم عنادًا وتكذيبًا. ولم يقل: وإذا رأيتهم؛ لأنه ليس كل المكذبين ممن يخوضون بالآيات، و«الخوض»: الكلام بالباطل، وهو مذموم، قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، أي: فلا تجالسهم في حال خوضهم واترك الجلوس معهم.

وفي التعبير بالموصول «الذين» تعليل للأمر بالإعراض، أي: فأعرض عنهم؛ لأنهم يخوضون في آياتنا.

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾، «حتى» للغاية، أي: حتى يأخذوا في حديث غير الخوض بآيات الله؛ لزجرهم وقطع الجدال معهم، ولعلهم يرجعون عن عنادهم.

وعبر عن انتقالهم إلى حديث آخر بالخوض؛ إما من باب المشاكلة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، أو لأنهم لا يتكلمون إلا فيما لا فائدة فيه.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ هذا تأكيد للأمر بالإعراض عنهم.

قرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد السين «ينَسّينك»، من التنسية مبالغة من النسيان، وقرأ الباقون: ﴿يُنسِيَنَّكَ﴾ بسكون النون وتخفيف السين، أي: فإن أنساك الشيطان الإعراض عنهم، فتقعد معهم، أو فقعدت معهم ناسيًا.

﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، «القعود» هنا: ضد الإعراض، و«الذكرى» اسم «للتذكر»، ضد النسيان، أي: فلا تقعد بعد تذكر الأمر بالإعراض.

﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بخوضهم بالطعن والاستهزاء بآيات الله. والنهي للتحريم.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «فلا تقعد معهم»؛ للتسجيل عليهم بالظلم، وليشملهم هذا النهي وغيرهم من الظالمين، فلا يجوز الجلوس معهم.

وهذه الآية هي المشار إليها في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى

حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أمر عز وجل بالإعراض عن الذين يخوضون في آياته واجتنابهم وعدم القعود معهم، ثم بين في هذه الآية أنه ما على من اتقى الله وأعرض عنهم واجتنبهم؛ من حسابهم من شيء.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدًا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ يعني إذا قمتم عنهم فما عليكم تبعة ما يقولون في حال مجانبتكم إياهم؛ إذ ليس عليكم جري ذلك، وما عليهم أن يمنعوهم»[1].

قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، أي: وما على الذين يتقون الله بالإعراض عن هؤلاء الخائضين بآيات الله، أو بالإنكار عليهم إذا جالسوهم؛ من حسابهم من شيء، فلا هم مسؤولون عنهم، ولا يتحملون من آثامهم شيئًا؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] إذا أنكرتم عليهم.

﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾، أي: من حساب الخائضين في آيات الله.

﴿مِّن شَيْءٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾، الواو عاطفة، و«لكن» حرف استدراك. ﴿ذِكْرَىٰ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي: ولكن عليهم ذكرى.

ويجوز كون «ذكرى» منصوبًا على المفعول المطلق، أي: ولكن يُذكِّرون ذكرى.

والمعنى: ولكن عليهم إذا رأوهم يطعنون في آيات الله ويستهزئون بها؛ أن يذكروهم ويعظوهم ويخوفوهم غضب الله وعقابه.

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ١٠٥).

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، الضمير يعود إلى الخائضين، أي: لعل هؤلاء الخائضين في آيات الله يتقون الله بترك الخوض في آياته بسبب إعراض المتقين عنهم وإنكارهم عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾.

ذكر في الآيات السابقة تكذيب قومه ﷺ بالقرآن، وتوعدهم وهددهم، وأمره بالإعراض عن الخائضين بآيات الله وعدم الجلوس معهم، ثم أمره في هذه الآية بترك الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا وغرتهم الحياة الدنيا، وعدم المبالاة بهم، والاستمرار بالتذكير بالقرآن.

قوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ الواو استئنافية، والخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح له، أي: واترك الذين جعلوا دينهم الذي أمروا أن يدينوا به لله تعالى لعبًا في الأبدان، ولهوًا في القلوب، بالتكذيب والطعن به والاستهزاء.

أو جعلوا ما يتدينون به وينتحلونه ويتقربون به إلى الله لعبًا ولهوًا وعبثًا، واتخذوا ذلك عادة ودأبًا لهم وديدنًا، أي: دعهم، ولا تبالهم ولا تهتم بهم، ولا تكترث باستهزائهم؛ فأمر عقابهم إلي، كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١)﴾ [المدثر: ١١]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]، وفي هذا وعيد وتهديد لهم؛ ولهذا قال بعده:

﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، أي: وخدعتهم الحياة الدنيا بزينتها وزخارفها ومتاعها الزائل، وظنوا أنْ لا حياة بعدها، وأن نعيمها دائم لهم، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الجاثية: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١].

وذكر تعالى قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾ [المؤمنون: ٣٧]، وقولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾، أي: وذكرهم وغيرهم بالقرآن، و«التذكير»: الوعظ به بذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب؛ ففي التذكير بالقرآن التذكير بالله عز وجل وعظمته، وبأحكامه الشرعية وحدوده ووعده ووعيده، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥].

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله على حذف مضاف، أي: مخافة أن تبسل نفس، أي: لئلا تبسل نفس؛ كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلوا.

ومعنى ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾، أي: أن تحبس وترتهن، و«نفس» عام لكل نفس؛ كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤، الانفطار: ٥].

﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، الباء للسببية، و«ما» موصولة، أي: بالذي كسبت، أي: بالذي جنت من شر؛ لقوله: ﴿تُبْسَلَ﴾، أي: تحبس وترتهن وتؤخذ بالذي عملت من التكذيب بالقرآن، والخوض بآيات الله، واتخاذ الدين لعبًا ولهوًا، والاغترار بالدنيا، وغير ذلك من الأعمال السيئة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ [المدثر: ٣٨-٣٩].

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: ليس لها سوى الله وغيره.

﴿وَلِىٌّ﴾؛ قريب أو صديق أو غيرهما؛ يتولاها وينصرها، أو يرفع عنها عذاب الله.

﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾، أي: وليس لها من دون الله شفيع يشفع لها بمنع العذاب عنها أو رفعه، كما قال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾، الواو عاطفة، أي: وإن تفتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهبًا، وهذا على سبيل الفرض؛ لأن هذا محال وغير ممكن.

﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾، أي: لا يقبل منها ولا يفيد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم

﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [يونس: ٥٤].

وحيث انتفت أسباب التخلص من القهر والغلب- المتعارف عليها- فلا ولي لهم من دون الله، ولا شفيع ولا فدية تقبل منهم، فلم يبق سوى العذاب؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾، الإشارة للذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا وغرتهم الحياة الدنيا.

﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ﴾، أي: أخذوا وحبسوا وارتهنوا وأُسلموا للهلاك.

﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي كسبوه، أو بكسبهم، أي: ارتهنوا وأخذوا بذنوبهم.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾، هذا بيان لما أبسلوا وأخذوا به.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾، أي: من ماء بالغ الحرارة يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء، قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾، «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم موجع؛ حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله، كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ٤].

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب قومه ﷺ بالقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾، وهو محمول على الغالب؛ فأكثر قومه ﷺ كذبوه، وخاصة في أول دعوته.

٢- في قوله: ﴿قَوْمُكَ﴾ ما يشير إلى أنه كان الأجدر بهم أن يكونوا هم أول من يصدقه.

٣- أن القرآن الكريم هو الحق؛ فهو حق، وطريق وصوله حق، ومشتمل على الحق في أخباره وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

٤- أنه ﷺ ليس وكيلًا على الناس يلزمهم الهداية ويمنعهم من الغواية، وإنما هو منذر ومبلغ؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

٥- تسليته ﷺ وتقوية قلبه تجاه تكذيب قومه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، فلا يظنوا أنه ملزم بهدايتهم ويضارونه بتكذيبهم.

٦- الوعيد والتهديد للمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٧- أن لكل خبر أخبر الله تعالى به- من وعد ووعيد وغير ذلك- وقت لوقوعه وحصوله؛ سواء كان في الدنيا، أو في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

٨- وجوب الإعراض عن الخائضين بالطعن والاستهزاء بآيات الله، وعن مجالسهم ومجالس الباطل كلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

٩- تحريم الجلوس في مجالس الطعن بآيات الله والاستهزاء بها، ومجالس الباطل والمنكر والظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٠- أن من نسي فجلس في هذه المجالس فعليه القيام عنها بعد التذكر وعدم القعود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفي الحديث قوله: «﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ **قال الله: قد فعلت**»[1].

١١- أن الرسول ﷺ عرضة للنسيان كغيره من البشر، وأن النسيان سببه الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

١٢- أن الذين يخوضون بآيات الله ظالمون؛ لقوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «فلا تقعد معهم»؛ بهدف وصفهم بالظلم، وليشملهم النهي وغيرهم من الظالمين.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

١٣- أنه ليس على من اتقى الله فأعرض عن هؤلاء الخائضين وعن مجالسهم، أو جالسهم وأنكر عليهم، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؛ شيء من حسابهم، فليس عليه إلزامهم بالتقوى، ولا يتحمل شيئًا من آثامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

١٤- أن كل إنسان إنما يحاسب عن نفسه، فليس عليه هداية غيره، ولا يتحمل إثم غيره.

١٥- أن على من رأى الذين يخوضون بآيات الله بالطعن والاستهزاء فيها والكلام بالباطل؛ أن يذكروهم ويعظوهم ويخوفوهم عذاب الله، لعلهم يتقون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

١٦- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾، وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

١٧- ينبغي ترك من جعلوا دينهم لعبًا ولهوًا واغتروا بالحياة الدنيا، وعدم الاكتراث والاهتمام بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٨- ذم الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا واغتروا بالحياة الدنيا، والتحذير من مسلكهم.

١٩- الحذر من الاغترار بالحياة الدنيا وزينتها وزخارفها، وأنها متاع غرور، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ﴾ [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥].

٢٠- أن الدين الحق جد إيمان بالله وعبادة له عز وجل؛ رجاء ثوابه، وخوفًا من عقابه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد: ١١].

وفي الحديث: «**إن العقبة كؤود، لا يجوزها المثقلون**»(١).

فالأمر جد وليس بهزل، وكما قيل:

أَلأَمْـرُ جِـدٌّ وَهْـوَ غَـيْرُ مِـزَاحِ ... فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ صَالِحًا يَا صَاحِ(٢)

وقال الآخر:

قَدْ رَشَّحُوكَ لأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ ... فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الهَمَلِ(٣)

٢١- وجوب التذكير بالقرآن والتحذير من شؤم الذنوب والمعاصي وعقابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

٢٢- أن القرآن أعظم واعظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾.

٢٣- أن مما يوعظ به: التخويف من الأخذ بالذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾، كما أن مما يُرَجَّى به: الثواب على الطاعة.

٢٤- في الاقتصار على التذكير بالأخذ والعقوبة على كسب السوء؛ دلالة على أنه يجوز الاقتصار أحيانًا على ذكر الترهيب أو الترغيب، حسب السياق ومناسبة الخطاب.

٢٥- أن كل نفس بما كسبت رهينة؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر: ٣٨]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾.

٢٦- لا ولي ولا شفيع لأحد من الخلق يدفع عنه العذاب أو يرفعه سوى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

٢٧- الإشارة إلى حال الناس في الدنيا بالانتفاع بينهم بالموالاة والشفاعة، لكن في الآخرة هيهات إلا بعد إذن الله ورضاه.

٢٨- أن من ارتُهن بكسبه لو بذل كل فداء لم يؤخذ منه، ولم يدفع عنه عذاب الله أو

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٦١٨)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

(٣) البيت للطغرائي. انظر: «لامية العجم» ص١٢٢.

يرفعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾.

٢٩- أن كل واحد من أهل النار مستعد- لما يرى من شدة الهول والعذاب- أن يفتدي من ذلك بكل شيء لو ملك ذلك وأمكنه الافتداء به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ [يونس: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ﴾ [الزمر: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج: ١١-١٤].

٣٠- تأكيد أخذ الذين جعلوا دينهم لعبًا ولهوًا واغتروا بالحياة الدنيا بما كسبوا من الأعمال السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾.

٣١- شدة ما أعد الله للذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا واغتروا بالحياة الدنيا واستمروا على الكفر من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾.

٣٢- التحذير من الكفر؛ لأنه سبب لأخذ الله عز وجل وعذابه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل- يا محمد- للمشركين الداعين لكم إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام: ﴿أَنَدْعُوا۟﴾، أي: أنعبد، و«الدعاء»: العبادة؛ سواء كان دعاء تعبُّد، أو دعاء مسألة. وفي الحديث: «**الدعاء هو العبادة**»(١).

والاستفهام للإنكار والنفي والتيئيس، أي: لا يمكن أن نفعل ذلك.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: سوى الله الذي بيده النفع والضر.

﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، «ما» اسم موصول، أو نكرة موصوفة، وهي في محل نصب، أي: أنعبد من دون الله شيئًا لا ينفعنا ولا يضرنا، أو الذي لا ينفعنا ولا يضرنا، أي: الذي لا يقدر على نفعنا إن دعوناه، ولا على ضرنا إن تركناه، من الأصنام والأنداد.

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ معطوف على «ندعو»، داخل في حيز الإنكار والنفي.

و«الرد» الإرجاع إلى المكان الذي يؤتى منه، و«الأعقاب» جمع «عقب»، وهو مؤخر القدم؛ يقال: رجع على عقبه، أو على عقبيه، أو نكص على عقبيه، أي: رجع إلى المكان الذي جاء منه. وفي الحديث قوله ﷺ: «**اللّهمّ أمض لأصحابي هجرتهم، ولا**

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٧٩، والترمذي في الدعوات ٣٢٣٣، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٢٨؛ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

تردّهم على أعقابهم»[1].

والمعنى: ونُرجع إلى الوراء على أدبارنا في الشرك بالله. وهذا أبلغ من لو قال: ونرجع إلى الكفر بعد الإيمان.

﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، «إذ» مراد به الزمان، أي: بعد الزمان الذي هدانا الله فيه، أي: بعد هداية الله تعالى لنا إلى التوحيد والإيمان والإسلام، كما قال أولو الألباب: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ قرأ حمزة: «استهواه» بألف ممالة بعد الواو. وقرأ الباقون ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾ بتاء ساكنة بعد الواو.

والكاف للتشبيه بمعنى «مثل»، أي: فيكون مثلنا وحالنا ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: هوت به وأضلته الشياطين في الأرض القفر المهلكة عن الجادة والطريق الواضح، أي: فيكون مثلنا إن دعونا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا، ورددنا على أعقابنا في الشرك بعد هداية الله لنا؛ كمثل رجل أضلته الشياطين في الأرض عن الطريق.

﴿حَيۡرَانَ﴾ حال، وهو على وزن «فعلان» ممنوع من الصرف، أي: استهوته الشياطين حال كونه حيران في الأرض، لا يدري أين الطريق الأسلم.

﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ﴾ صفة لـ«حيران»، أو حال منه؛ أي حال كونه له أصحاب، أي: رفقة معه ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾ صفة لـ«أصحاب»، أي: ينادونه إلى الطريق الواضح ﴿ٱئۡتِنَا﴾، أي: يقولون له: ﴿ٱئۡتِنَا﴾، أي: هلم إلينا، فنحن على الطريق الواضح والجادة المستقيمة، ولكنه يأبى أن يستمع لهم؛ بسبب حيرته وإضلال الشياطين له.

وهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن عبد من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره، ورجع بعد الإيمان والهدى إلى الشرك والضلال، واستجاب لداعي الباطل، وأعرض عن داعي الحق. وهو مشتمل على مثلين:

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٥)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٤)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

الأول: تمثيل حال من رجع إلى الشرك والضلال بعد الإيمان والهدى؛ بمن خرج قاصدًا أمرًا، ثم رد على عقبيه دون تحقيقه.

والثاني: من استجاب لدعاة الباطل والضلال، وأعرض عن دعاة الحق والهدى؛ بمن كان يسير في طريق فأضلته الشياطين، ومعه رفقة على الطريق الواضح يدعونه للحاق بهم فيأبى.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ يزعم المشركون أن ما هم عليه وما يدعون إليه من عبادة غير الله هدى؛ ولهذا خاطبهم بصيغة القصر ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ بتعريف طرفي الجملة، وأكد ذلك بـ«إن»، وضمير الفصل «هم»، أي: ليس الهدى إلا هدى الله، وما عداه فهو ضلال وهلاك وردى.

وهدى الله هو وحيه ودينه الذي بعث به رسوله محمد ﷺ، وهو الإسلام؛ بقرينة قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

وقد وصف الله عز وجل ما بعث به ﷺ من الدين وهو الإسلام بأنه «هدى الله»، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، أي: القرآن هو الهدى، لا ما أنتم عليه.

وأيضًا: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: أن المهتدي حقًّا هو من هداه الله ووفقه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل: ٣٧].

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: وأمرنا- نحن الأمة المحمدية- كما أمر غيرنا من الأمم، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣١].

واللام في قوله: ﴿لِنُسْلِمَ﴾ للتعليل، أي: لأجل أن نسلم، أي: أمرنا بالإسلام.

أو بمعنى «أن»، أي: أن أسلموا، أو بأن أسلموا، أي: وأمرنا أن نستسلم لرب العالمين باطنًا بتوحيده، ونتخلص من الشرك، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وفي قوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل: «لله»؛ إشارة إلى تعليل الأمر وأحقيته؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية. وهو في مقابل قوله: ﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقوله فيما سبق: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِنُسْلِمَ﴾، أي: وأمرنا أن أقيموا الصلاة.

ويحتمل عطفه على قوله: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ فيكون من جملة القول، و«أن» مصدرية أو تفسيرية.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ معطوف على «أقيموا» من عطف العام على الخاص؛ فخص الأمر بإقام الصلاة لأهميتها، ثم عطف عليه الأمر بتقوى الله عمومًا.

والمعنى: وأمرنا ظاهرًا بإقام الصلاة إقامة تامة؛ بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وبتقواه بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، الواو استئنافية. وفي الجملة قصر حقيقي بتعريف طرفي الجملة، وتقديم معمول «تحشرون»، أي: وهو وحده الذي إليه تحشرون.

وفي هذا إثبات الحشر وتحقيقه، ووعد ووعيد، أي: وهو وحده الذي إليه تجمعون يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، وفيه قصر حقيقي، بتعريف طرفي الجملة، المقصود منه الاستدلال على أنه المستحق للعبادة دون غيره، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧].

أي: وهو وحده الذي خلق السموات والأرض وأوجدهما على غير مثال سبق.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾، الباء للملابسة، أي: بالعدل، أي: لإحقاق الحق، وإقامة العدل، وإبطال الباطل، وأن يعبد الله وحده، ويطاع، ويجازي كلًّا بما عمل؛ ولهذا قال:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾، كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأيضًا خلق السموات والأرض بقوله الحق؛ كما قال سبحانه: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١].

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾، «يوم» منصوب عطفًا على قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، والتقدير: واتقوا يوم يقول كن فيكون، أي: يوم البعث يوم القيامة؛ لقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

ويجوز كونه معطوفًا على قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: وخلق يوم يقول كن فيكون. أو منصوبًا بفعل مقدر، أي: اذكر يوم.

فأعقب قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾؛ للدلالة على قدرته التامة على بعثهم وحشرهم بخلقه السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وعلى كون أمره نافذًا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨١-٨٢].

﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾، أي: قوله الحق الثابت؛ فخبره تعالى صدق، وحكمه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام. وفي الحديث: «**قولك حق ووعدك حق**»[1].

وفي ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ صيغة قصر، بتعريف طرفي الجملة، أي: أنه سبحانه وحده الذي قوله كله حق.

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ قدم الخبر؛ لإفادة الاختصاص، أي: وله وحده الملك كله، فهو المالك لكل شيء.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾.

ويحتمل أن يكون ظرفًا لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، أي: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾، أي: يوم القيامة.

وخصه بالذكر، مع أنه عز وجل له الملك من قبل ومن بعد، له مُلك الدنيا والآخرة؛ لأنه في ذلك اليوم تنقطع جميع الأملاك، وينتهي الملوك وما ملكوا، فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار، كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩].

والمراد بالصور: «القَرْن» الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال أعرابي: يا رسول الله، ما الصور؟ قال: «**قرن ينفخ فيه**»[2].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول: «**كيف أنعم وصاحب الصّور قد التقم الصّور، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر متى يؤمر؟!**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٢٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٩)، وأبو داود في الصلاة (٧٧١)، وابن ماجه في الصلاة (١٣٥٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة (٤٧٤٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٠)، وأحمد (٢/ ١٢٦، ١٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٧٣).

وفي رواية عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ؟!**»[(١)].

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ۝٩٩﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ [النبأ: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات: ٦-٧]، والمراد بالراجفة: النفخة الأولى، والرادفة: النفخة الثانية.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾؛ بيَّن عز وجل في الآيات السابقة أنه إليه حشر الخلائق وحسابهم، ثم أتبع ذلك بما يدل على أن محاسبته لهم عن علم تام، وحكمة، وخبرة واسعة بهم وبأعمالهم وبكل شيء.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو عالم الغيب والشهادة.

و«الغيب»: ما هو غائب، و«الشهادة» ضد «الغيب»، وهي الأمور التي يشاهدها الناس. والتعريف في «الغيب» و«الشهادة» للاستغراق، أي: عالم كل غيب وكل شهادة، فهو سبحانه عالم الغيب كله، والشهادة كلها، بل الغيب عنده كالشهادة والعلانية، ولا تخرج الأشياء عن هذين الوصفين، فهو العالم بكل شيء.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ عطف على قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، و«الحكيم» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» مشتق من الحكم والحكمة، يدل على أن له الحكم التام؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة البالغة؛ الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين الذين يدعون إلى عبادة غير الله من الأصنام ونحوها مما لا ينفع ولا يضر؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.

---

(١) أخرجها الترمذي في «التفسير» (٣٢٤٣)، وقال: «حديث حسن».

٢- تيئيس المشركين من ارتداد المسلمين عن دينهم وعبادتهم غير الله.

٣- أن الدعاء هو العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَدْعُواْ﴾، أي: أنعبد. وسواء كان الدعاء دعاء عبادة أو دعاء مسألة فكل ذلك عبادة.

٤- أن كل ما عبد من دون الله لا ينفع ولا يضر؛ فلا يجلب لعابده نفعًا، ولا يدفع عنه ضرًّا؛ ولا ينفع من عبده، ولا يضر من تركه.

٥- أن كل من عبد مع الله غيره فهو لم يعبد الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: سوى الله، وقد قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشّركاء عن الشّرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»[1].

٦- أن من رجع بعد الإيمان والهدى إلى الشرك والضلال كمن رجع على عقبيه وخاب مسعاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

٧- أن الهادي والموفق هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

٨- أن الخير من الله والشر ليس إليه؛ ولهذا بني الفعل «ونرد» لما لم يسم فاعله، بينما أسند الهدى إلى الله فقال: ﴿هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

٩- أن من استجاب لدعاة الباطل والضلال، وأعرض عن دعاة الحق والهدى؛ كمن سار في طريق فأضلته الشياطين في ذلك الطريق، وله رفقة على الطريق الواضح يدعونه للحاق بهم، ويأبى ذلك بسبب حيرته وإضلال الشياطين له عن قصد الطريق؛ لقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾.

١١- ضرب الأمثال في القرآن لتقريب الأمور المعنوية بتشبيهها بالأشياء الحسية.

١٢- بلاغة القرآن في التنفير مما يراد التنفير منه، فقد شبه من رجع إلى الشرك بعد الهدى بمن خرج قاصدًا لأمر فرد على عقبيه وخاب مسعاه. كما شبه من عدل عن الهدى، وأعرض عن الدعاة إليه، وسلك طريق الضلال واستجاب لدعاته؛ بمن كان يسير في الأرض في طريق فأضلته الشياطين، وكان له رفقة على الطريق الواضح يدعونه إليه، ولكنه لا يستجيب لهم؛ لحيرته وإضلال الشياطين له.

---

(١) سبق تخريجه.

١٣- يجب الحذر من الشيطان وجنوده وأتباعه دعاة الضلال.

١٤- ينبغي الاسترشاد بدعاة الحق والهدى.

١٥- أن هدى الله هو الهدى وحده، وهو ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه، وأعظم ذلك وأجله ما جاء في القرآن الكريم، كما أن المهتدي حقًّا هو من وفقه الله تعالى وهداه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

١٦- أن ما سوى هدى الله فهو ضلال وعمى.

١٧- وجوب الاستسلام لله باطنًا بتوحيده والإخلاص له، والبراءة من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ وهذا أمر لجميع الأمة، كما أمر بذلك من قبلها.

١٨- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل: «لله» للإشارة إلى هذا المعنى.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٢٠- وجوب الاستسلام لله ظاهرًا بإقامة الصلاة وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾.

٢١- عظم مكانة الصلاة في الإسلام؛ لهذا خصها بالذكر، وأن الواجب إقامتها إقامة تامة؛ بشروطها وأركانها وواجباتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢٢- إثبات الحشر وجمع الخلائق إليه عز وجل وحده، وحسابه لهم ومجازاتهم بأعمالهم. وفي هذا وعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

٢٣- إثبات تمام قدرة الله تعالى وعظمة خلقه، فهو الذي خلق السموات والأرض وأوجدهما على غير مثال سبق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

٢٤- أن السموات والأرض من أعظم مخلوقات الله تعالى؛ لأن الله كثيرًا ما يستدل على قدرته وعظمة خلقه بخلقهما، ويقدم السموات؛ لأنها أعظم.

٢٥- أن الله عز وجل خلق السموات والأرض وهذا الكون كله بالحق، أي: بالعدل وبقوله الحق؛ لإحقاق الحق، وإقامة العدل، وإبطال الباطل، وأن يعبد وحده ويطاع، وليجازي كلًّا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٦- الاستدلال على إثبات الحشر وقدرة الله التامة على ذلك بخلقه عز وجل السموات والأرض بالحق، ونفوذ أمره؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر حشر الناس إليه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ...﴾ الآية.

٢٧- نفوذ أمره عز وجل، وأن قوله حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾.

٢٨- أن الملك كله لله خاصة، ويظهر ذلك تمام الظهور يوم القيامة عندما تنقطع جميع الأملاك ويتبين تمام تفرده بالملك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

٢٩- إثبات النفخ في الصور؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

٣٠- إثبات سعة علم الله تعالى وشموله للغيب والشهادة ولكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٣١- إثبات اسم الله تعالى «الحكيم»، وأنه ذو الحكم التام، بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٣٢- إثبات اسم الله تعالى «الخبير»، وأنه ذو الخبرة الواسعة والاطلاع على كل شيء، مهما دق وخفي وبطن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾، «إذ» ظرف بمعنى «حين»، متعلق بمحذوف تقديره: اذكر.

و«إبراهيم» هو إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام نبي الله، ثاني أولي العزم بعد محمد ﷺ.

﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ قرأ يعقوب: «آزرُ» بضم الراء على النداء. وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ءَازَرَ﴾، على أنه عطف بيان أو بدل من «أبيه» مجرور وعلامة جره الفتحة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة.

و«آزر» اسم أبي إبراهيم، هذا ما يدل عليه ظاهر الآية، وعليه دلت السنة؛ كما في حديث: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة**»(١).

وفي كتب بني إسرائيل وعند علماء النسب اسمه «تارح»، وكذا رُوي عن بعض السلف أن اسمه «تارح»، وآزر اسم للصنم(٢).

قال ابن كثير(٣): «كأنه غلب عليه آزر؛ لخدمته ذلك الصنم».

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٤٢-٣٤٤)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٣٢٤-١٣٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٨٢).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ٢٨٢).

وقال الطبري[1] بعد أن صوب أن اسمه «آزر» وذكر ما رُوي أن اسمه «تارح»: «بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقبًا».

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أتجعل وتصير.

﴿أَصْنَامًا﴾ مفعول أول لـ«تتخذ»، والأصنام: جمع صنم، والصنم: الصورة التي تمثل على شكل إنسان أو حيوان أو غير ذلك، وتعبد من دون الله، وهو الوثن.

﴿ءَالِهَةً﴾ مفعول ثان لـ«تتخذ»، وهي جمع «إله»، أي: معبودات تعبدها من دون الله.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾، أي: إني أراك في اتخاذك الأصنام آلهة ﴿وَقَوْمَكَ﴾ الذين اتخذوها آلهة معك، و«إن» لتوكيد الخبر.

﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في تيه وبعد عن الحق بيِّن واضح؛ حيث عبدتم من لا يستحق العبادة ولا يملك من الأمر شيئًا، وتركتم عبادة خالقكم ورازقكم ومدبركم.

وهذا من إبراهيم عليه السلام من النصيحة والموعظة لأبيه، ونهيه عن عبادة الأصنام.

وقد سلك عليه السلام سبلًا ووسائل شتى في دعوته لأبيه؛ ترغيبًا وترهيبًا؛ تارة بالشدة كما في هذه الآية، وتارة باللين، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترةٌ وغبرةٌ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا ربِّ إنَّك وعدتَّني ألَّا تخزيني يوم يبعثون، وأيّ خزيٍ أخزى**

---

(١) في «جامع البيان» (٩/ ٣٤٦).

من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إنّي حرّمت الجنّة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر، فإذا بذِيخ ملتطخ[١]، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النّار»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، الواو عاطفة، والكاف للتشبيه بمعنى «مثل»، أي: ومثل ما أرينا إبراهيم وأعلمناه بوجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والبراءة من الشرك، وأن ما يتخذ من دونه آلهة من الأصنام فهو ضلال مبين؛ كذلك نريه ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: نبين له ونطلعه على عظمة ملك السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات العظيمة؛ كالشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وغير ذلك، ودلالة ذلك على عظمة الله تعالى ووحدانيته في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه.

وقد تكون الإشارة في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إلى مصدر الفعل بعده: ﴿نُرِىٓ﴾، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾، الواو عاطفة، أي: نريه ملكوت السموات والأرض؛ ليكون على بصيرة وعلم.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾، اللام للتعليل، أي: ولأجل أن يكون من المتصفين باليقين المطلق، لا بمطلق اليقين؛ ولهذا كان إمام الحنفاء في إخلاص التوحيد، والدعوة إليه، والبراءة من الشرك وأهله واجتنابه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ۝٧٦﴾.

---

(١) الذِّيخ- بكسر الذال وسكون الياء-: ذكر الضباع. ملتطخ: أي ملتطخ برجيعه أو بالطين.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٣٥٠).

قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾، الفاء عاطفة، و«لما» ظرف بمعنى «حين». ﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾، الضمير في «عليه» يعود إلى إبراهيم عليه السلام.

والمعنى: فلما أظلم عليه الليل وتغشاه وستره. ومنه سمي الجنان، وهو العقل؛ لاستتاره، وسمي الجنين والجن لذلك، وسمي المجن؛ لأنه يستتر به في الحرب.

﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾، أي: نجمًا، ويظهر- والله أعلم- أنه من الكواكب المضيئة؛ لتخصيصه بالذكر، وللتدرج منه إلى القمر ثم إلى الشمس؛ ولهذا قيل: إنه الزهرة، وقيل: المشترى.

وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريقة النظر والاستدلال، وأن هذه الآلهة التي يعبدونها مربوبة لله تعالى؛ فلا يصح أن تعبد من دون الله.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾، أي: قال هذا ربي على وجه التنزل وإرخاء العنان معهم- من غير اعتقاد لذلك- أي: هذا ربي كما تزعمون أنه ربكم، فهلم ننظر هل يستحق الربوبية، وهل يقوم لنا دليل على ذلك.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾، أي: فلما غاب واختفى ذلك الكوكب.

﴿قَالَ﴾، أي: قال إبراهيم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾، أي: لا أحب الذي يغيب ويختفي عمن عبده؛ لعلمه أن ربه عز وجل دائم لا يزول، رقيب على خلقه على الدوام. وفي هذا تلميح إلى أن مثل هذا الكوكب لا ينبغي أن يعبد.

وجمع «الآفلين» جمع من يعقل بناء على اعتقاد قومه أن الكواكب عاقلة، وأنها تتصرف في الكون.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾، البزوغ: ابتداء الشروق، أي: لما رأى القمر شارقًا طالعًا، ورأى زيادة نوره على نور الكوكب، ومخالفته له.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾؛ تنزلًا كما سبق.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾؛ أي غاب.

﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهذا حق؛ فهو في أشد الافتقار والحاجة إلى هداية الله تعالى، ومن لم يهده الله سيكون من الضالين.

واللام في قوله: ﴿لَئِن﴾ موطئة للقسم، وفي قوله: ﴿لَأَكُونَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم، أي: والله لئن لم يهدني ربي، أي: يرشدني ويوفقني، لأكونن من القوم الضالين، أي: في عدادهم. وفي هذا تعريض بضلال أبيه وقومه.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾، أي: طالعة.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾؛ تذكير اسم الإشارة لتذكير الخبر «ربي».

﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾، أي: هذا الطالع أكبر وأعظم إضاءة. وجملة ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ جارية مجرى العلة لجملة ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مقتضية نقض ربوبية الكوكب والقمر؛ ونفي الربوبية عنهما، وحصرها في الشمس؛ ولذلك حذف المفضل عليه لظهوره، أي: هي أكبر منهما.

وفي هذا تعريض بفساد ما هم عليه؛ إذ كيف يعبدون المخلوق الأصغر، ويتركون عبادة الكبير المتعال سبحانه.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾، أي: فلما غابت ظهر الحق وبان، فأعلن عليه السلام براءته من معبوداتهم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، «ما» موصولة. والعائد محذوف لأجل الفاصلة، أي: إني بريء من الذي تشركون به.

ومعنى «بريء»، أي: لا صلة بيني وبين الذي تشركون به من الأصنام، أي: لا أعبد هذه الأصنام التي تشركون بها مع الله، بل أتبرأ منها.

ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، أي: بريء من إشراككم. وكونها موصولة أولى؛ لقوله بعد ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، كما سيأتي بيانه.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ الجملة بدل من قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. أو استئنافية، أي: أخلصت قصدي وديني وأفردت عبادتي.

﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: للذي خلق السموات والأرض وابتدعهما على غير مثال سبق.

وفي هذا إيماء لعلة عبادته له عز وجل، وهي كونه فطر السموات والأرض بما فيهما من هذه الكواكب والآلهة التي يعبدونها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿حَنِيفًا﴾ حال، أي: حال كوني حنيفًا، والحنف: الميل، أي: مائلًا عن الشرك إلى التوحيد، أي: موحدًا؛ ولهذا أكد ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، والجملة معطوفة على الحال، فأعلن أولًا إخلاصه التوحيد وميله عن الشرك، ثم نفى صلته بالمشركين.

وفي هذا براءة من الشرك أيضًا، فتبرأ أولًا من معبوداتهم بقوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، ثم أعلن إخلاصه التوحيد وميله عن الشرك والبراءة منه ومن أهله بقوله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ كما قال في سورة الممتحنة هو والذين معه لقومهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤].

وهذا إنما هو من إبراهيم عليه السلام في مقام المناظرة لقومه؛ ليبين لهم خطأ ما هم عليه من عبادة الأصنام والكواكب، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

قال ابن القيم[(١)] رابطًا بين قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣] وبين هذه الآيات في مناظرة إبراهيم عليه السلام؛ قال: «لكن شكر الصابئة كان من جهة الكواكب والعلويات؛ ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه في بطلان إلهيتها بما حكاه الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام؛ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٤-٧٩]؛ أحسن مناظرة وأبينها، ظهرت فيها حجته، ودحضت حجتهم، فقال بعد أن بيَّن بطلان إلهية الكواكب والقمر والشمس بأفولها، وأن الإله الحق لا يليق به أن يغيب ويأفل، بل لا يكون إلا شاهدًا غير غائب، كما لا يكون إلا غالبًا قاهرًا غير مغلوب ولا مقهور، نافعًا

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٥١-١٥٢).

لعباده، يملك لعابده الضر والنفع، فيسمع كلامه، ويرى مكانه، ويهديه ويرشده، ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه، وذلك ليس إلا لله وحده، فكل معبود سواه باطل.

فلما رأى إمام الحنفاء أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة؛ صعد منها إلى فاطرها وخالقها ومبدعها، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾، وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة إليها، ولا قوام لها إلا بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويدبرها ويربها، والمحتاج المخلوق المربوب لا يكون إلهًا».

وقال ابن كثير[1]: «والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرًا لقومه، مبينًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام؛ فبيَّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، وبيَّن في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة؛ وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشترى، وزحل. وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم: الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة.

فبيَّن أولًا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا تملك لنفسها تصرفًا، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية.

ثم انتقل إلى القمر فبيَّن فيه مثل ما بيَّن في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع؛ قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعًا ثم لا تنظرون».

وقال السعدي[2]: «وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٨٥-٢٨٦).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٢٥).

المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها. وأما من قال: إنه مقام نظر في طفوليته؛ فليس عليه دليل».

ويؤيد هذا ويدل عليه- وهو أنه عليه السلام كان في هذا في مقام المناظرة لقومه فيما كانوا فيه من الشرك- قوله تعالى بعد هذه الآيات: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢].

وأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما مما يقتضي أن هذا من إبراهيم عليه السلام كان في مقام النظر لا المناظرة[1]، واختار هذا الطبري مستدلًّا له بقوله: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[2]؛ فهذا غير صحيح، وكيف يكون هذا من إبراهيم عليه السلام من باب النظر، وهو الذي قال الله تعالى في حقه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٣﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وقال تعالى عنه أنه قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣٦﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦].

وقال تعالى عنه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢٨﴾ [الزخرف: ٢٦].

وقال تعالى مخاطبًا نبينا محمدا ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٦١﴾ [الأنعام: ١٦١].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٣٥٦).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٦١).

وقال تعالى مخاطبًا هذه الأمة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَٰهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةُ وَالْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]؟!

الفوائد والأحكام:

١- التذكير والتنويه بذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع أبيه وقومه، والثناء عليه في دعوته لهم إلى التوحيد، ونهيهم عن الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٢- وجوب النصيحة في الدين، لا سيما للأقربين، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

وقال ﷺ: «**يا عبّاس عم رسول الله، ويا فاطمة بنت محمدٍ، ويا صفيّة عمّة رسول الله ﷺ، أنقذوا أنفسكم؛ لا أغني عنكم من الله شيئًا**»[1]. وقال ﷺ: «**وابدأ بمن تعول**»[2].

٣- أن الإنكار والتوبيخ والذم إذا كان على وجه النصيحة في الدين فليس من العقوق.

٤- الرد على من زعم أنه لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافرًا، كما تقول الشيعة الإمامية، ويزعمون أن آزر عم إبراهيم لا أبوه، وهذا باطل.

٥- أن اتخاذ الأصنام آلهة ضلال في غاية البيان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لأن هذه الأصنام لا تملك نفعًا ولا ضرًّا.

٦- امتنان الله تعالى على إبراهيم عليه السلام في إطلاعه على عظمة ملكوت السموات والأرض، ودلالة ذلك على عظمة الله عز وجل، ووحدانيته في ملكه وخلقه، وربوبيته، وإلهيته، ومنحه اليقين المطلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧)، وفي التفسير (٤٧٧١)، ومسلم، في الإيمان (٢٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و(١٤٢٧) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه، وأخرجه مسلم، في الزكاة (١٠٣٤)، من حديث حكيم أيضًا.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾.

٧- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾.

٨- مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه في عبادتهم الكواكب؛ لإثبات بطلان عبادتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾.

٩- أن قوم إبراهيم عليه السلام- وهم الكلدانيون- كانوا يعبدون الكواكب؛ لهذا ناظرهم عليه السلام ليلًا في عبادة هذه الكواكب، وكانوا على دين الصابئة، يعبدون الكواكب ويصورونها.

١٠- في قول إبراهيم عليه السلام لما رأى الكوكب والقمر: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ إرخاء العنان مع قومه؛ بإظهار موافقته لهم- من غير اعتقاد لذلك- لإفحامهم وإبطال قولهم بالاستدلال، وقد يكون هذا سائغًا في مقام المناظرة؛ لبيان الحق وإبطال الباطل، وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وإذا كان هذا سائغًا لإنقاذ نفس واحدة من الهلاك، فقد يكون جوازه لإنقاذ فريق من الناس من الهلاك في الدنيا والآخرة أولى.

١١- في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ إشارة إلى أن الإله الحق الذي ينبغي أن يتأله له العبد، ويحبه ويرضى به إلهًا؛ هو من له البقاء الدائم، لا الذي يأفل ويغيب عن عابده، وفي هذا ما لا يخفى من تشكيكهم في عبادة الكواكب.

١٢- الإشارة إلى تمام رقابة الله تعالى وقيومته على الخلق.

١٣- في قول إبراهيم عليه السلام لما أفل القمر: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ إعلان شدة افتقاره إلى هداية الله، وأنه إن لم يهده الله كان من القوم الضالين، وفي هذا تعريض بضلالهم، وحاجتهم وغيرهم إلى هداية الله تعالى.

١٤- أن الهداية بيد الله عز وجل، فمن لم يهده الله تعالى ويوفقه للطريق المستقيم ضل؛ مما يوجب صدق الإنابة والتضرع إليه، وسؤاله الهداية.

١٥- في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾ تنبيه إلى استحقاق الله عز وجل وحده للعبادة؛ لأنه أكبر من كل شيء.

١٦- إعلان إبراهيم عليه السلام براءته من الشرك، وإخلاصه التوحيد لله تعالى، والبراءة من المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

١٧- تَدَرجُ إبراهيم عليه السلام في مناظرة قومه من الكوكب إلى القمر إلى الشمس، فتدرج من الأقل إلى ما هو فوقه، إلى ما هو أكبر منهما، وتدرج من قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ إلى أن أعلن البراءة مما هم عليه من الشرك، وصدع بإخلاص التوحيد لمن فطر السموات والأرض وما فيهما من الكواكب والمخلوقات، وتبرأ من المشركين فقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وبهذا أقام الدليل القاطع والبرهان الساطع على أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده، لا شريك له، وأن كل ما يعبد من دونه من الأصنام والكواكب وغير ذلك فهو باطل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

هذه الآية وما بعدها فيها الدلالة الواضحة- كما سبقت الإشارة- إلى أن ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ الآيات الثلاث إنما هو من قبيل المناظرة من إبراهيم عليه السلام، وليس من باب النظر.

قوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ الواو استئنافية، والضمير يعود إلى إبراهيم عليه السلام، والمحاجة: مفاعلة من الحجة، وهي الدليل المؤيد للدعوى، أي: وجادله قومه عليه السلام، وناظروه في الله عز وجل، أي: في وحدانيته؛ لقوله بعده: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ الآية.

﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: «أتحاجونِي» بنون واحدة خفيفة، وأصله: «أتحاجونني» بنونين، فحذفت إحداهما للتخفيف، وقرأ الباقون بتشديد النون: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾، بإدغام نون الرفع في نون الوقاية؛ للتخفيف أيضًا.

والاستفهام للإنكار والتعجيب، وتيئيسهم من رجوعه إلى معتقدهم، أي: أتجادلونني وتخاصمونني في توحيد الله تعالى وعبادته وحده، وإخلاص العمل له، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وتطمعون أن تستنزلوني عن توحيده.

﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ حال مؤكدة للإنكار، أي: والحال أنه قد هداني، وحذفت الياء من ﴿هَدَىٰنِ﴾ للتخفيف؛ منهم من حذفها وقفًا فقط، ومنهم من حذفها وقفًا ووصلًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والمعنى: وقد أرشدني ووفقني إلى الحق، وهو معرفة وحدانيته، فكنت على بينة

وعلى يقين أنه لا شيء يستحق العبادة سواه.

وفي هذا إشارة لغلق باب المجادلة وختم لها، أي: فلا تحاجوني في الله وقد هداني، فلا جدوى لمحاجتكم إياي، فهي عبث؛ كالمحاجة في طلوع الشمس في رابعة النهار، ولأنها محاجة للرجوع من الحق إلى الباطل، ومن العلم إلى الجهل، ومن الهدى إلى الضلال، ومن الإبصار إلى العمى.

ومجمل ما احتجوا به فيما هم عليه من الشرك التقليد الأعمى لآبائهم، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٦].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٤] وما بعدها من الآيات.

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ الجملة استئنافية، والظاهر- والله أعلم- أنهم خوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء؛ كما قال قوم هود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] فقال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، و«ما» موصولة، والضمير «به» يعود على اسم الجلالة، أي: ولا أخاف الذي تشركون بالله من الأصنام أن تنالني بسوء أو مكروه؛ لأنها لا تضر، ولا تنفع.

ويجوز كون الضمير في «به» يعود إلى «ما» الموصولة، فتكون الباء للسببية، أي: الأصنام التي بسببها أشركتم.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن إن شاء ربي شيئًا نالني وأصابني، فهو الذي أخافه وأرجوه، وله المشيئة النافذة، والقدرة التامة، وبيده

النفع والضر.

وفي هذا تعريض بحقارة آلهتهم وضعفها؛ لأنها لا مشيئة لها ولا قدرة لها على شيء، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٥].

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ هذه الجملة تعليلية؛ للاستثناء قبلها، فيها ظهور أدبه عليه السلام مع الله، أي: إلا أن يشاء ربي أن ينالني شيء من السوء فهو أعلم وأحكم؛ لأنه أحاط بكل شيء علمًا، وهذا غاية التفويض والتبرؤ من الحول والقوة وأسباب النجاة، وأنها بيد الله تعالى وحده.

وهكذا قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، وقدمت على فاء العطف؛ لأن لها الصدارة، والأصل: فألا تذكرون، أي: تتعظون وتعتبرون.

والاستفهام للإنكار عليهم؛ لعدم تذكرهم، مع وضوح دلائل التذكر في صفات الله تعالى الموجبة لعبادته وحده، وفي صفات معبوداتهم المنافية لمقام الألوهية؛ فيعلمون ما هم عليه من الباطل في إشراكهم مع الله من لا مشيئة له ولا علم، ولا قدرة له على النفع والضر.

وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد، فيما قص الله عنهم في كتابه، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ الآية [هود: ٥٣-٥٦].

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا

تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ و«كيف» اسم استفهام، والاستفهام هنا للإنكار والتعجيب، و«ما» موصولة في محل نصب مفعول «أخاف»، أي: وكيف أخاف الذي أشركتم به، أي: وكيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وهي لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، ولا لغيرها.

﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ الواو حالية، أي: والحال أنكم لا تخافون أنكم أشركتم.

ويجوز كونها معطوفة على جملة «أخاف» والتقدير: وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله.

والمصدر المؤول «أنكم أشركتم» في محل نصب مفعول «تخافون»، أي: وأنتم لا تخافون إشراككم، و«ما» موصولة، أي: الذي لم ينزل به عليكم ﴿سُلْطَٰنًا﴾، أي: حجة وبرهانًا، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، أي: ولا تخافون أنكم أشركتم بالله الذي لم ينزل به عليكم حجة ولا برهانًا، وهو سبحانه وتعالى المستحق للعبادة، الذي بيده النفع والضر، ويجب الخوف منه وحده.

فعدم خوفي من آلهتكم أقل عجبًا من عدم خوفكم من الله، وكيف تخوفونني وأنا في موضع الأمن، وتؤمنون أنفسكم وأنتم في موضع الخوف؟!

قال ابن القيم[1]: «وهذا من أحسن قلب الحجة، وجعل حجة المبطل بنفسها دالة على فساد قوله وبطلان مذهبه؛ فإنهم خوفوه بآلهتهم التي لم ينزل الله عليهم سلطانًا بعبادتها، وقد تبين بطلان إلهيتها، ومضرة عبادتها، ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى».

﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن أدركتم قولي فأي الفريقين، و«أي»: اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، والاستفهام هنا للتقرير، و«الفريق» الطائفة، أي: فأي الفريقين والطائفتين أولى وأجدر بالأمن من عذاب الله؟ من عبد الله تعالى وخافه وحده، أو من عبد غيره مما لا يضر ولا ينفع بلا دليل؟، أي:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٥٣).

أهو فريق الموحدين أنا ومن معي، أو فريق المشركين، وهم أنتم؟

و«أل» في «الأمن» للجنس، وهو ضد الخوف.

﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، أي: إن كنتم ذوي علم. وجواب الشرط محذوف، أي: إن كنتم تعلمون أي الفريق أحق بالأمن فأخبروني، أي: لا شك أن الأحق بالأمن والأولى به هو من عبد الله تعالى وخافه وحده؛ لأن له عز وجل المشيئة النافذة، والقدرة التامة، وبيده النفع والضر.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾.

هذا جواب على الاستفهام في قوله: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِ﴾، أي: هم الذين آمنوا، وهذا من حكاية كلام إبراهيم عليه السلام، أجاب عن استفهامه بنفسه؛ تبكيتًا لهم؛ لأن هذا مما لا يسع المسؤول إنكاره، ويحتمل أن يكون هذا مستأنفًا من كلام الله تعالى.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم لما أوجب الله الإيمان به؛ من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبكل ما يجب الإيمان به، وانقادوا بجوارحهم لفعل ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه.

والإيمان في اللغة: التصديق، قال تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام أنهم قالوا لأبيهم يعقوب عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، أي: ويصدق للمؤمنين.

وفي الشرع: قول باللسان واعتقاد بالجنان وهو «القلب» وعمل بالأركان، وهي «الجوارح».

والمراد: الذين آمنوا، أي: أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾، أي: ولم يخلطوا إيمانهم بظلم، أي: بشرك. ولبس الشيء بالشيء: خلطه وتغطيته به، وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه إلا الشرك، فهو أظلم الظلم، كما قال تعالى فيما حكاه عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: ١٣].

فجمعوا بين الإخلاص لله تعالى في العبادة والسلامة من الشرك، بخلاف المشركين الذين خلطوا إيمانهم بالشرك، فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣٠] فحبطت أعمالهم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس، وقالوا: يا رسول الله، فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «**إنه ليس الّذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصّالح:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟ **إنما هو الشّرك**»، وفي رواية: «لما نزلت: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد؛ لرفعتهم وعظيم منزلتهم، وقدم الخبر ﴿لَهُمُ﴾ للحصر والاختصاص، أي: لهم الأمن خاصة، أي: لهم الأمن من جميع المخاوف في الدنيا والآخرة، على حسب إيمانهم ويقينهم وإخلاصهم، وبعدهم عن المعاصي، فلهم في الدنيا الأمن النفسي والاجتماعي؛ لقوة إيمانهم ويقينهم؛ فهم لا يخافون إلا الله، ولا يرجون إلا الله، ولا يعتمدون إلا على الله، يعلمون أن من حفظ الله حفظه الله، وأن الله يدافع عن الذين آمنوا، وأنه يتولى الصالحين، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، وأنهم مأجورون على ما يصيبهم، كما قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(٢).

وقد أحسن القائل:

سَأَعِيشُ رَغْمَ الدَّاءِ وَالأَعْدَاءِ ... كَالنَّسْرِ فَوْقَ القِمَّةِ الشَّمَّاءِ
أَلنُّورُ فِي جَنْبِي وَبَيْنَ جَوَانِحِي ... فَعَلَامَ أَخْشَى السَّيْرَ فِي الظَّلْمَاءِ(٣)

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٩)، وفي تفسير سورة الأنعام (٦٩٣٧)، ومسلم في الإيمان (١٢٤)، والترمذي في التفسير (٣٠٦٧)، وأحمد (١/ ٣٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص١١.

ولهم الأمن في الآخرة من مخاوف القيامة وأهوالها، ومن عذاب النار.

﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الجملة في محل رفع معطوفة على قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ أو في محل نصب على الحال، أي: لهم الأمن خاصة، وهم مهتدون، أو حال كونهم مهتدين بإيمانهم ونبذهم الشرك. ومفهوم هذا أن من لم يؤمنوا، وخلطوا إيمانهم بشرك فلا أمن لهم، وليسوا بمهتدين.

الفوائد والأحكام:

١- محاجة قوم إبراهيم عليه السلام له في توحيده وإفراده الله بالإلهية، وإخلاصه العبودية له، وبراءته من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾.

٢- إنكار إبراهيم عليه السلام على قومه محاجتهم له في الله، وتعجبه من ذلك، وقد هداه الله تعالى فأرشده إلى الحق، وبيَّنه له، ووفقه إليه، وفي هذا غلق لباب المحاجة، وختم لها، وأنه لا جدوى لها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾.

٣- من يهده الله فلا مضل له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾.

٤- قوة إيمان إبراهيم عليه السلام ويقينه، وعدم خوفه إلا من الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾.

٥- أن كل ما يعبد من دون الله لا يضر ولا ينفع، فلا ينبغي أن يخاف أو يرجى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾.

٦- أدب إبراهيم عليه السلام مع ربه؛ لاستدراكه بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾، أي: لكن إن شاء ربي أن ينالني شيء ويصيبني فمشيئته نافذة.

٧- إثبات المشيئة النافذة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بإبراهيم عليه السلام وبأنبيائه عز وجل وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾.

٩- سعة علم الله عز وجل، وإحاطته بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

١٠- ثناء إبراهيم عليه السلام على ربه بنفوذ مشيئته، وسعته كل شيء علمًا، وأن

له المشيئة النافذة، والقدرة التامة، والعلم الواسع لكل شيء، والحكمة البالغة فيما يقدره أو يحكم به، من أحكام كونية أو شرعية.

١١- الإنكار على المشركين الذين لا يتذكرون ولا يعتبرون فيعبدون من ليس أهلًا للعبادة من الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ويعدلون عن عبادة خالقهم ومالكهم ومدبرهم، الذي بيده النفع والضر؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

١٢- أن الأولى بالخوف هو من أشرك بالله ما لم ينزل به سلطانًا؛ لأنه أشرك بالله غيره، والأولى بعدم الخوف هو من لم يشرك بالله؛ لأنه عبد الله وحده؛ فلا يخاف ما سواه من المعبودات؛ لأنها لا تضر ولا تنفع؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾.

١٣- أن عدم خوف المشركين من الله مع شركهم أعجب من عدم خوف إبراهيم عليه السلام من معبوداتهم التي يشركون بها مع الله.

١٤- أن كل ما يعبده المشركون من دون الله لا حجة عليه، ولا دليل، وإنما لمحض اتباع الهوى، وتقليد آبائهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾.

١٥- يجب أن يكون التعبد لله تعالى بما ثبت بالدليل القاطع من الكتاب والسنة.

١٦- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات. وفي هذا أيضًا إثبات أن القرآن منزل غير مخلوق.

١٧- تقرير أن الأحق بالأمن هم الموحدون دون المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٨- اختصاص المؤمنين الموحدين بالأمن في الدنيا والآخرة؛ الأمن النفسي، والأمن الاجتماعي، والأمن من عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾.

١٩- التحذير من الشرك، وأنه ظلم، بل هو أظلم الظلم، وهو سبب المخاوف كلها.

٢٠- أن من آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك هم المهتدون؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم

مُّهۡتَدُونَ﴾.

٢١- أن من لم يؤمنوا، أو خلطوا إيمانهم بشرك؛ فلا أمن لهم، وهم ضالون؛ لمفهوم قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

ذكر عز وجل محاجة قوم إبراهيم عليه السلام له في توحيده لربه وبراءته من الشرك، وما أجابهم به من الحجج الدامغة، ثم نوّه عز وجل بتلك الحجة، وأشاد بها، وبما منّ به على إبراهيم من رفعة الدرجات والعلم.

قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ الإشارة بقوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ إلى ما أراه الله إبراهيم من الحجج على وجوب توحيد الله، والبراءة من الشرك في محاجته لقومه، ومنها قوله عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾، «هي قول إبراهيم حين سألهم ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾»[1]. وفي رواية عنه: «صدقه الله، وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾»[2].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٣٦٧، ٣٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٣٢).
(٢) ذكره ابن كثير (٣/ ٢٨٩-٢٩٠).

وأشار إليها بإشارة البعيد «تلك» تنويهًا بها، وأضافها عز وجل إليه؛ تعظيمًا لها، وأنها لا يمكن نقضها.

﴿ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أعطيناها إبراهيم، وألهمناها إياه، وعلمناه إياها ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ فحجهم بها، وعلا عليهم، وغلبهم بالعلم والحكم.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ بالتنوين، وقرأ الباقون: «درجاتِ مَن» بالإضافة إلى «مَن».

و«درجات» جمع «درجة»، أي: منازل ومقامات رفيعة، و«من» موصولة، أي: نرفع ونعلي درجات ومنازل ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾، أي: من نريد من عبادنا، ونعلي شأنهم؛ كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة بالعلم والحكم والنبوة، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للنبي محمد ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله، وقدره وشرعه، وأمره ونهيه، ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة البالغة بقسميها؛ الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

﴿عَلِيمٌ﴾ ذو العلم التام، الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

فله عز وجل تمام الحكم والحكمة والعلم في هداية من شاء، وإضلال من شاء، وفي رفع من شاء، ووضع من شاء وفي كل شيء، يضع الأمور مواضعها، ويعطي كلًّا ما يستحقه، وباجتماع الحكم التام، والحكمة البالغة، والعلم الواسع في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ

وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ الآية.

ذكر عز وجل امتنانه على عبده وخليله إبراهيم عليه السلام في إتيانه الحجة على قومه، وتعليمه إياها، ورفع درجته بالعلم والحكم والنبوة، ثم أتبع ذلك بذكر امتنانه عليه مرة أخرى؛ بهبته له إسحاق ويعقوب، وهدايتهما، وجعل النبوة في ذريته.

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، «الهبة» العطية بلا عوض، أي: ووهبنا لإبراهيم «إسحاق» ابنًا له لصُلبه، و«يعقوب» ابنًا لابنه «إسحاق».

وذلك مجازاة له عليه السلام في إخلاصه التوحيد لربه، والبراءة من الشرك وأهله، والهجرة إلى ربه، واعتزال قومه وعشيرته لما هم عليه من الشرك بالله، فعوضه الله ورزقه أولادًا صالحين على دينه، واصطفاهم للنبوة، وهداهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فولد له «إسحاق» من امرأته سارة، بعد أن طعنا في السن، وأيسا من الولد، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٢-٧٣].

وولد له «يعقوب» من ابنه إسحاق في حياته وحياة زوجه سارة، والنعمة بولد الولد والفرحة به كالنعمة بالولد والفرحة به؛ وذلك لما فيه من بقاء النسل والعقب؛ ولهذا قال تعالى مبشرًا سارة بالولد وولده: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

و«يعقوب» هو إسرائيل، وذريته هم المعروفون بـ«بني إسرائيل».

ولم يذكر «إسماعيل»، وهو أكبر ولد إبراهيم، قيل: لأن المقصود بالذكر هنا أنبياء بني إسرائيل.

﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾، «كلًّا» مفعول لـ«هدينا» قدم عليه للاهتمام، أي: كل هؤلاء هدينا- يعني: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب- أرشدناهم ووفقناهم إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم؛ امتنانًا من الله تعالى عليهم، وتنويهًا بإسحاق ويعقوب، وأنهما نبيان نالا هدى الله كإبراهيم، كما قال تعالى: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩].

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ الواو عاطفة، «نوحًا» مفعول لـ«هدينا» قدم عليه للاهتمام، أي: ونوحًا هديناه من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وذكر نوحًا هنا مع إبراهيم؛ لأن لكل منهما خصوصية عظيمة، فأما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به- وهم الذين صحبوه في السفينة- جعل ذريته هم الباقين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧]، فالناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام.

وأما إبراهيم عليه السلام فإن الله لم يبعث نبيًّا بعده إلا من ذريته، فأنبياء بني إسرائيل كلهم من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وخاتم الرسل وسيدهم محمد ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهم جميعًا الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ [مريم: ٥٨].

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾، أي: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ والضمير في قوله: «ذريته» يحتمل عوده إلى «نوحًا» لأنه أقرب مذكور، وهذا ظاهر، وهو صحيح من حيث المعنى؛ لأن الله جعل ذريته هم الباقين، فكل من جاء بعده فهم من ذريته.

ويحتمل عود الضمير المذكور إلى إبراهيم؛ لأن السياق في مدحه والثناء عليه، ويقوي القول الأول: أن من بين الأنبياء المذكورين «لوطًا» وهو ليس من ذرية

إبراهيم[١].

قال ابن كثير[٢]: «وعوده إلى إبراهيم؛ لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل على ذلك «لوط» فإنه ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه «ماران بن آزر» اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليبًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣] فإسماعيل عمه ودخل في آبائه تغليبًا».

﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ابن داود ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ ابن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم ﴿وَمُوسَىٰ﴾ ابن عمران ﴿وَهَٰرُونَ﴾ أخو موسى.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الجملة معترضة بين المتعاطفات، والكاف للتشبيه بمعنى «مثل»، والإشارة إلى ما سبق من هداية إبراهيم ونوح والأنبياء من ذريتهما، أي: مثل جزائنا لهؤلاء الأنبياء بهدايتنا لهم كذلك نجزي كل محسن بالهداية والتوفيق، والذكر الحسن، والذرية الصالحة.

أو أن هؤلاء المهديين- إبراهيم ونوح وذريتهما- أحسنوا فكان جزاء إحسانهم أن جعلناهم أنبياء، ورفعنا ذكرهم، وأعلينا قدرهم.

والجزاء: مكافأة العامل على عمله، ويستعمل في المجازاة بالثواب على العمل الصالح، والمجازاة بالعقاب على العمل السيئ.

فمعنى ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ نثيبهم، ونكافئهم على إحسانهم بالأجر العظيم؛ لأن الله عز وجل يعطي العطاء الجزيل على العمل القليل.

و«المحسنين» جمع «محسن» وهم الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى بالإخلاص له والمتابعة لشرعه، وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٨١-٣٨٢).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٢٩١).

قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ معطوف على (داود)، أي: وهدينا من ذريته «زكريا» ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ ابنه ﴿وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم ﴿وَإِلْيَاسَ﴾.

وذكر عيسى عليه السلام في ذرية «نوح» أو «إبراهيم» على القولين مع أن عيسى عليه السلام- ولد بنت- علمًا أن الذرية على الصحيح من أقوال أهل العلم لا يدخل فيهم أولاد البنات؛ لأن عيسى عليه السلام لا أب له فأمه أبوه.

وقيل بأن الذرية يدخل فيهم أولاد البنات استدلالًا بهذه الآية.

﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الجملة معترضة بين المتعاطفات كالتي قبلها، أي: كل من هؤلاء المذكورين- زكريا ويحيى وعيسى وإلياس- من الصالحين الذين جمعوا بين الإخلاص لله تعالى واتباع شرعه.

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)﴾.

قوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ معطوف كالذي قبله على ﴿دَاوُودَ﴾، أي: وهدينا من ذريته ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ وهو «إسماعيل بن إبراهيم» أبو العرب، ومن ذريته نبينا محمد ﷺ، وليس من ذرية إسماعيل نبي سوى محمد ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين.

﴿وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ﴾ ابن متى ﴿وَلُوطًا﴾، وهو من ذرية نوح، وليس من ذرية إبراهيم.

وقد ذكر في هذه الآيات ثمانية عشر نبيًّا ورسولًا من مجموعة من ذكر في القرآن من الأنبياء والرسل، وهم خمسة وعشرون نبيًّا ورسولًا.

قال البيجوري:

فِي ﴿تِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ مِـنْهُمْ ثَمَانِيَـةٌ مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمُ
إِدْرِيسُ هُودٌ شُعَيْبٌ صَالِحٌ وَكَذَا ذُو الكِفْلِ آدَمُ بِالمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا[1]

واقتصر- والله أعلم- في هذه الآيات على تسمية هؤلاء الثمانية عشر من بين سائر الأنبياء من ذرية إبراهيم ونوح؛ إما لكونهم معروفين لأهل الكتاب، وللمشركين الذين

(١) انظر: «جوهرة التوحيد» ص١٨٥.

يقتبسون معرفة الأنبياء من أهل الكتاب، أو لغير ذلك.

﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الجملة معترضة بين المعطوفات كالجملتين قبلها، و«كلًّا» مفعول لـ«فضلنا» قدم عليه للاهتمام، أي: وكلًّا من الأنبياء المذكورين الثمانية عشر، إبراهيم ونوح ومن ذكر من ذريتهما فضلناهم على العالمين؛ لأن الأنبياء والمرسلين في المرتبة الأولى في الفضل، فهم أفضل من الصديقين والشهداء والصالحين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

ذكر عز وجل منته على من سمى من الأنبياء بالهداية في الآيات السابقة، ثم أتبع ذلك بذكر منته على أصولهم وفروعهم وإخوانهم بالهداية.

قوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ الواو عاطفة، و«من» تبعيضية، أي: وهدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم بأن جعلنا منهم أنبياء؛ كآدم وإدريس من آباء نوح، وهود وصالح من ذريته، وشعيب من ذرية إبراهيم، والأسباط إخوة يوسف، وغيرهم، وجعلنا أيضًا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم أناسًا صالحين، وإن لم يكونوا أنبياء.

﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ الضمير يعود إلى كل من ذكر من الأنبياء تفصيلًا، وإلى آبائهم وذرياتهم وإخوانهم إجمالًا ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾، أي: واصطفيناهم واخترناهم ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أرشدناهم ووفقناهم.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾، أي: إلى طريق. ونكَّر للتعظيم ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: عدل، لا اعوجاج فيه، بتوحيد الله، والبراءة من الشرك، وإخلاص العبادة لله، والإيمان بالأصول التي اتفقت عليها الشرائع، وهو صراط الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم

﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٨٨﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة هدايته لمن ذكر من أنبيائه، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، واجتباءهم وهدايتهم الصراط المستقيم، ثم أتبع ذلك بامتداح هداه، وأنه يهدي به من يشاء من عباده، ولا هادي سواه.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر في الآيات السابقة من هدايته أنبياءه ورسله، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، واجتبائهم وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وأشار عز وجل إليه بإشارة البعيد «ذلك» تعظيمًا لهداه وامتداحًا له، ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ إرشاده وتوفيقه الذي لا هدى إلا هداه.

﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾، أي: يهدي ويوفق بهداه ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، «من» موصولة، والمشيئة بمعنى الإرادة الكونية، أي: الذي يريد من عباده.

وفي هذا امتنان من الله تعالى عليهم، وتوجيه لطلب الهدى منه وحده، فلا هادي سواه.

كما أن في هذا تعريضًا بالشرك وأهله الذين يزعمون أنهم على هدى؛ ولهذا قال بعده تنبيهًا على خطر الشرك:

﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر امتنانه بهداية أنبيائه ومن ذكر معهم أتبع ذلك ببيان ما يدل على أنه لا نسب ولا حسب بينه وبين أحد من الخلق، فمن كان أهلًا للهداية هداه، ومن كان أهلًا للضلالة أضله، وأن من أشرك بالله حبط عمله أيًّا كان، حتى ولو كان من الأنبياء، وحاشاهم عن ذلك.

قوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ﴾ الواو عاطفة، و«لو» شرطية ﴿أَشْرَكُواْ﴾ فعل الشرط، أي: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء بأن عبدوا غير الله. وحاشاهم عن ذلك.

﴿لَحَبِطَ عَنْهُم﴾ جواب الشرط «لو» واللام واقعة في جواب «لو» و«حبط»، أي: بطل، و«ما» موصولة تفيد العموم، أو مصدرية، أي: لبطل كل الذي كانوا يعملونه، أو عملهم. وإذا كان هؤلاء الصفوة لو أشركوا لحبط عملهم فغيرهم من باب أولى.

وفي هذا ما لا يخفى من الوعيد والتشديد في أمر الشرك وتغليظ شأنه، كما قال

تعـــــالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

امتدح الله تعالى هداه الذي منّ به على أنبيائه، ويهدي به من يشاء من عباده، ثم أتبع ذلك بالثناء على هؤلاء الأنبياء في إشارة أنهم أهل لهدايته، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة للأنبياء المذكورين في الآيات السابقة ومن ذكر معهم، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تنويهًا بعلو مكانتهم وشرفهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: أعطيناهم الكتاب، وأنزلناه عليهم نعمة منا عليهم، ورحمة للعباد و«ال» في «الكتاب» للجنس، أي: الكتب، فما من نبي من أنبياء الله إلا أنزل الله عليه كتابًا؛ من ذلك صحف إبراهيم، والتوراة التي أنزلها الله على موسى، والزبور الذي آتاه الله داود، والإنجيل الذي آتاه الله عيسى عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَٱلْحُكْمَ﴾، أي: وآتيناهم الحكم بشرع الله، والحكمة، والفصل بين العباد، والفهم بالكتاب، ومعرفة ما فيه من أحكام، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، أي: وآتيناهم النبوة، أي: جعلناهم أنبياء بما أنزلنا عليهم من الكتب والوحي.

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: فإن يكفر بما آتى الله أنبياءه من الكتاب والحكم والنبوة، وبنبوة محمد ﷺ، وما أنزل الله عليه من الآيات ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾

يقول: ومن يكفر بالقرآن»[1].

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني المشركين من أهل مكة، كما قال الله عنهم: ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

أي: فإن يجحد المشركون من قومك نبوتك، ونبوة من قبلك من الأنبياء، وما آتاهم الله من الكتاب والحكم والنبوة، وذلك أن الكفر به ﷺ كفر بجميع الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط «إن» لاقترانه بـ«قد» التي للتحقيق، أي: فقد هيأنا ووفقنا للإيمان بها والقيام بحقها؛ علمًا وعملًا وجهادًا لأعدائها ودفاعًا عنها، ﴿قَوْمًا﴾ وهم الأنبياء وأتباعهم المؤمنون، وفي مقدمتهم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم إلى يوم الدين، أي: كل من وفقه الله للإيمان بها والقيام بحقها إلى قيام الساعة.

وفي التعبير بقوله: ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾ دون أن يقول: «وفقنا للإيمان بها» ونحو ذلك إشارة لعظم مسؤولية القيام بها، مما يوجب العناية والاهتمام بها، كما أن فيه دلالة على أنه سينصر نبيه ﷺ، ويظهر دينه، وهكذا وقع.

وهذا التوكيل توكيل رحمة من الله وإحسان، وتوفيق واختصاص، لا توكيل حاجة، كما يوكل الإنسان من يتصرف عنه لحاجته إليه؛ لأن الله عز وجل ليس بحاجة إلى الخلق، بل هو الغني الحميد، وإنما هم الفقراء إليه المحتاجون لتوفيقه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

﴿لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، «بها» متعلق بقوله: ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾، قُدِّم عليه لرعاية الفاصلة، أو للاهتمام بما عاد إليه الضمير، وهو الكتاب والحكم والنبوة.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٣٨٨).

والباء في قوله: ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ لتوكيد النفي.

والجملة صفة لـ«قومًا»؛ للدلالة على مسارعتهم للإيمان بها بمجرد دعوتهم إلى ذلك، ودوام نفي الكفر عنهم.

وفي هذا تسلية له ﷺ، أي: وإن يكفر هؤلاء المشركون بنبوتك ونبوة من قبلك فلا يضيرك ذلك؛ لأنا قد وفقنا قومًا للإيمان بك وبهم.

كما أن فيه أيضًا إغراءً للمؤمنين وتحريضًا لهم على المبادرة إليها، وإظهار محبته عز وجل لمن قاموا بها، وإيثارهم بهذه النعمة، وازدراءً لمن كذبها، وعدم مبالاة بهم.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ الإشارة للمشار إليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، أي: للأنبياء المذكورين وآبائهم وذرياتهم وإخوانهم.

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» لعلو منزلتهم، ورفعة شأنهم، وتعريف طرفي الجملة للدلالة على القصر، أي: أولئك الذين هداهم الله ووفقهم إلى صراط مستقيم هم أهل الهداية لا غيرهم.

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ الهاء في قوله: ﴿ٱقۡتَدِهۡ﴾ للسكت. قرأ حمزة والكسائي وخلف بإثباتها في الوقف وحذفها في الوصل، وقرأ الباقون بإثباتها وصلًا ووقفًا، وقدم المتعلَّق وهو قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ على عامله؛ للاهتمام بذلك الهدى.

والمعنى: فبهداهم اقتد واتبع، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٣﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ [الشورى: ١٣] والأمر له ﷺ بالاقتداء بهم أمر له ولأمته؛ لأنهم تبع له.

وفيه دلالة على أنه ليس بدعًا من الرسل، وأن الله جمع له فضائلهم، مع ما خصه الله تعالى به من الفضائل؛ لأنه ﷺ اقتدى بهم، واتبع ما يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأحقاف: ٩].

عن مجاهد أنه سأل ابن عباس، أفي «ص» سجدة؟ فقال: «نعم، ثم تلا: ﴿وَوَهَبۡنَا

لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ﴾ إلى قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ ثم قال: هو منهم» وفي رواية عن مجاهد قال: قلت لابن عباس، فقال: «نبيكم ﷺ ممن أُمر أن يقتدي بهم»[1].

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المعرضين: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجرة وعوضًا، فيكون ذلك من أسباب إعراضكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [يوسف: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧﴾ [الفرقان: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ [ص: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

كما قال كل من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

وقال نوح أيضًا: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وقال هود: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾ [هود: ٥١].

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، «إن» نافية بمعنى «ما»، أي: ما هو، أي: القرآن. ﴿إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: تذكرة وعظة لجميع الناس، يتذكرون به، ويعرفون ما ينفعهم وما يضرهم، فيسترشدون به من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشد، ومن الكفر إلى الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، ص: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: ٤٥] وبهذا صار أكبر نعمة أنعم الله بها عليهم يجب عليهم قبولها وشكرها.

فأُشعروا بانتفاء الأجر؛ ليتبين أنه ذكر لهم ونصح لنفعهم، وغنم لهم لا غرم فيه، وأنه ذكرى لغيرهم من الناس، وليس خاصًّا بهم.

الفوائد والأحكام:

١- التنويه بما أعطاه الله عز وجل لإبراهيم من الحجة على قومه، والتعظيم لها،

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنعام (٤٦٣٢).

والامتنان عليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ فأشار إليها بإشارة البعيد تنويهًا بها، وأضافها إلى نفسه تعظيمًا لها.

٢- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لتكلمه بضمير الجمع؛ كما في قوله تعالى: ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ﴾، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، ﴿وَوَهَبْنَا﴾، ﴿هَدَيْنَا﴾، ﴿فَضَّلْنَا﴾، ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾.

وبالإظهار مقام الإضمار؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وقوله: ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾.

٣- الامتنان على إبراهيم عليه السلام بما منحه الله عز وجل من رفعة الدرجات بالعلم والحكم والنبوة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وأنه عز وجل يرفع من يشاء بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة به ﷺ وبأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

٦- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ في قوله: ﴿رَبَّكَ﴾.

٧- إثبات صفة الحكم والحكمة لله عز وجل في خلقه وقدره وشرعه، وأمره ونهيه، فهو حاكم، له الحكم الكوني والشرعي والجزائي، ومحكم متقن، له الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾.

٨- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٩- في اقتران وصفه عز وجل بأنه «حكيم» مع وصفه بأنه «عليم» كمال إلى كمال.

١٠- امتنان الله تعالى على إبراهيم بما وهبه له من الولد والذرية، وهدايته عز وجل لهم، وجعل النبوة والكتاب فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾، وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ

وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

١١- أن النعمة بابن الابن كالنعمة بالابن؛ لما في ذلك من بقاء النسل والعقب؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ و«يعقوب» ابن «إسحاق».

١٢- أن النعمة بالولد والذرية إنما تكون إذا هداهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أما إذا ضلوا فهم نقمة، نسأل الله العافية.

١٣- التذكير بنعمة الله تعالى على نوح بهدايته، وهداية من ذكر في الآيات من ذريته؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فكل الأنبياء المذكورين في الآيات من ذرية نوح، كما أنهم من ذرية إبراهيم، عدا لوط فإنه ليس من ذرية إبراهيم.

١٤- أنه مثل ما جزى الله هؤلاء الأنبياء على إحسانهم بهدايته لهم واصطفائهم للنبوة يجزي كل من أحسن؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: فهؤلاء الأنبياء أحسنوا فجوزوا بما ذكر، وكذلك يجزي الله المحسنين.

١٥- أن عيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم، كما أنه من ذرية نوح عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وإنما عُدّ من ذريتهما مع أنه «ولد بنت» لأنه لا أب له؛ ولهذا الولد من الزنا ترثه أمه فرضًا وتعصيبًا، وقيل: إن الذرية يدخل فيهم أولاد البنات استدلالًا بالآية، وبقوله ﷺ في الحسن: «**إن ابني هذا سيدٌ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»[1]. قالوا: فسمى الحسن ابنًا له، وهو ابن ابنته فاطمة رضي الله عنهما.

والأظهر- والله أعلم- أن ابن البنت لا يدخل في الذرية، وإنما عد عيسى من ذرية إبراهيم ونوح؛ لما تقدم من أنه لا أب له، فصارت أمه بمنزلة أبيه وأمه.

---

(١) أخرجه البخاري، في الصلح (٢٧٠٤)، وفي الفتن (٧١٠٩)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

وأما قوله ﷺ في الحسن: «**إن ابني هذا سيّد**» فهذا على سبيل التجوز والتحبب، وقد كان ﷺ يقول لأنس رضي الله عنه: «**يا بني**».

قال الشاعر:

بنونـا بنـو أبنائنـا وبناتُنـا ... بنـوهنّ أبنـاءُ الرّجـال الأباعـدِ[1]

وعلى هذا فلو أوقف الإنسان وقفًا على ذريته لم يدخل فيهم أولاد البنات على الصحيح من أقوال أهل العلم، لكن لو أدخلهم بالنص عليهم، بأن قال هذا وقف على ذريتي بما فيهم أولاد البنات، فلا إشكال في دخولهم.

١٦- ثناء الله عز وجل على زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، بكونهم من الصالحين؛ لقوله تعالى بعد ذكرهم: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١٧- تفضيل الأنبياء والرسل على من عداهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهم أفضل من سائر الخلق؛ أفضل من غيرهم من المؤمنين، وأفضل من الملائكة.

١٨- امتنان الله عز وجل على من ذكر من الأنبياء بهدايتهم، وهداية بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واصطفائهم، وهدايتهم إلى صراط مستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١٩- امتداح الله تعالى لهداه، وأنه سبحانه يهدي به من يشاء، ولا هادي سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٢٠- أنه لا حسب ولا نسب بين الله تعالى وبين أحد من الخلق، فلو أشرك هؤلاء الأنبياء- وحاشاهم من ذلك- لبطلت أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٢١- ثناء الله تعالى على أنبيائه ورسله الذين هداهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾.

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «الإنصاف في مسائل الخلاف» ١/ ٥٦، «التذييل والتكميل» ٣/ ٣٣٧.

٢٢- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بالاقتداء بهدى الأنبياء قبله؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ وهذا إنما هو في أصول الدين من توحيد الله تعالى، واجتناب الشرك مما اتفقت عليه الرسالات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وكذا ما اتفقت عليه الرسالات من أصول الشرائع؛ كالدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة والمثل الحميدة، والنهي عن ضدها.

٢٣- فضل نبينا محمد ﷺ؛ لأن الله جمع له فضائل الأنبياء، وأمره بالاقتداء بهم.

٢٤- أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] وعلى هذا جمهور العلماء من الأصوليين وغيرهم.

وقيل: إن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

٢٥- الإعذار ممن أعرضوا عن دعوته ﷺ، بأنه لم يطلب منهم عوضًا على إبلاغهم دعوته فيستثقلوا ذلك ويحتجوا به؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

٢٦- أن القرآن الكريم إنما هو تذكرة وعظة لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

٢٧- عموم رسالته ﷺ لجميع الناس.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾.

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الواو استئنافية، و«ما» نافية، والضمير الواو في قوله: ﴿قَدَرُوا﴾ يعود إلى المشركين والمكذبين، أي: إلى ما عاد إليه اسم الإشارة في قوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وإلى المخاطبين بقوله: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

وذهب بعضهم إلى أن الضمير في قوله: ﴿قَدَرُوا﴾ عام لكل من لا يؤمنون بجميع كتب الله المنزلة؛ من المشركين واليهود وغيرهم[(١)].

﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾، «حق» منصوب على المصدرية، وهو في الأصل صفة للمصدر «قدره»، أي: قدر الحق، فأضيف إليه من إضافة الصفة إلى الموصوف، والمعنى: وما عظموا الله حق تعظيمه.

قال ابن القيم[(٢)]: «وأخبر سبحانه أن من جحد أن يكون قد أرسل رسله، وأنزل كتبه لم يقدره حق قدره، وأنه نسبه إلى ما لا يليق به، بل يتعالى ويتنزه عنه، فإن في ذلك إنكار دينه وإلهيته وملكه وحكمته ورحمته، والظن السيئ به، وأنه خلق خلقه عبثًا باطلًا، وأنه خلاهم سدى وهملًا، وهذا ينافي كماله المقدس، وهو متعال عن كل ما ينافي كماله، فمن أنكر كلامه وتكليمه وإرساله الرسل إلى خلقه فما قدره حق قدره، ولا عرفه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٦٢).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٦٥).

حق معرفته، ولا عظمه حق عظمته».

﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، «إذ» ظرف بمعنى «حين»، أي: حين قالوا مبالغة منهم في إنكار نزول القرآن على رسول الله ﷺ.

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، «ما» نافية. ﴿بَشَرٍ﴾ نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: ما أنزل الله على أيٍّ من البشر، أو على أحد من البشر ﴿مِّن شَىْءٍ﴾، «من» للاستغراق في عموم النفي، أي: ما أنزل الله على أحد من البشر أيّ شيء من الكتب والوحي؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١].

وقد كان المشركون والعرب قاطبة؛ لجهلهم يستبعدون إرسال رسول من البشر، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ الاستفهام في قوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ﴾ للتقرير، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المنكرين أن يكون الله أنزل على أحد من البشر شيئًا، ملزمًا لهم بفساد قولهم، ومقررًا لهم بما به يقرون: من الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى؟ وهو التوراة، وهذا على قاعدة نقض السالبة الكلية بموجبة جزئيّة؛ لأنهم لا يستطيعون إنكار رسالة موسى عليه السلام ومجيئه بالتوراة، فهذا أمر مشهور معلوم لهم ولغيرهم متواتر في بلاد العرب، وهم يعرفون ذلك من خلال علاقتهم باليهود الذين يترددون للتجارة بين مكة والمدينة، وبهذا انتقض قولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ حال من «الكتاب»، أو من ضميره، أي: حال كونه نورًا وهدى للناس، أي: نورًا يستضاء به من ظلمات الجهل والحيرة والشكوك والشبهات والشهوات.

﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ الهدى: العلم النافع الذي يهدي للإيمان والحق والعدل، ويعصم بإذن الله من الضلالة، وبه يعرف الحق من الباطل، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً

وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقوله: ﴿لِّلنَّاسِ﴾ عام أريد به الخصوص، أي: الناس الذين هم قومه- بنو إسرائيل في زمانه- إلى أن بعث محمد ﷺ، وأنزل عليه القرآن المهيمن والناسخ لجميع الكتب قبله.

﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر ويعقوب بياء الغيبة: «يجعلونه»، «يبدونها» «ويخفون» وقرأ الباقون بتاء الخطاب فيها كلها.

فعلى قراءة الغيبة أن أهل الكتاب يجعلون هذا الكتاب الذي أنزل على موسى قراطيس يبدونها ويخفون كثيرًا. وعلى قراءة الخطاب هو أيضًا خطاب لمن فعلوا ذلك.

قال ابن القيم[1]: «فهو خطاب لهذا الجنس الذين فعلوا ذلك، أي: تجعلونه يا من أنزل عليه كذلك» وقال أيضًا: «وهذا من أعلام نبوته أن يخبر أهل الكتاب بما اعتمدوه في كتابهم، وأنهم جعلوه قراطيس، وأبدوا بعضه، وأخفوا كثيرًا منه، وهذا لا يعلم من غير جهتهم إلا بوحي من الله، ولا يلزم أن يكون قوله: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ خطابًا لمن حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾».

﴿قَرَاطِيسَ﴾ جمع «قرطاس»، وهي الصحيفة من ورق أو غيره، أي: تجعلونه قراطيس قطعًا وأجزاء وأوراقًا متفرقة، تكتبونها من الكتاب الأصل الذي بأيديكم بقصد إظهار بعضها وإخفاء كثير منها.

﴿تُبۡدُونَهَا﴾ صفة لـ«قراطيس»، أي: تظهرونها، أي: تظهرون بعضها؛ لقوله بعده: ﴿وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا﴾ فيظهرون منها ما وافق أهواءهم.

﴿وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا﴾، أي: وتخفون كثيرًا منها وتكتمونه، وهو ما خالف أهواءهم وأغراضهم. وهذا ذم لهم؛ لأن الله أنزل كتبه للهدى، فيجب إظهارها، ويحرم كتمانها.

﴿وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ الواو حالية، و«ما» موصولة، أي: والحال أنكم علمتم بهذا الكتاب، أي: علمكم الله بهذا الكتاب الذي أنزله إليكم- وهو القرآن- على لسان محمد ﷺ الذي لم تعلموه أنتم.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٦٢).

﴿وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡ﴾، أي: ولم يعلمه آباؤكم من الأخبار السابقة واللاحقة، والأحكام والآداب وغير ذلك. والخطاب على هذا للمؤمنين، ومن بعث فيهم النبي ﷺ.

أو: وعلمتم يا أهل الكتاب الذي أنزل على موسى، أي: وعلمكم الله بهذا الكتاب ﴿مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ﴾، أي: الذي لم تعلموه ﴿أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡ﴾.

فما حصل عليه أهل الكتاب من علوم فهو من تعليم الله لهم في التوراة، وما حصل عليه المؤمنون فهو من تعليم الله لهم في القرآن الكريم.

وكل ما حصلوا عليه من العلوم هم وآباؤهم لا ينال إلا من جهة الرسل، وهذا دليل على صحة النبوة والرسالة، فكيف يقولون: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾؟!

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، أي: قل: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى.

وأمره بالإجابة عنهم؛ لوضوح الجواب وتعينه؛ لأنه لا يمكن أن يكون غير الله أنزله، ولا يمكن إنكار ذلك وتجاهله.

﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾، أي: ثم بعد تبليغهم وإقامة الحجة عليهم وتبكيتهم وقطع معاذيرهم اتركهم ﴿فِي خَوۡضِهِمۡ﴾ الخوض: الحديث في الباطل، قال تعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: ٦٩]، أي: ثم ذرهم في حديثهم بالباطل وكفرهم وضلالهم.

﴿يَلۡعَبُونَ﴾، أي: يُضيِّعون أعمارهم وحياتهم بما لا فائدة فيه، ولا نفع، بل بما يضر، وفي هذا ما لا يخفى من الوعيد والتهديد، كما قال تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٤٢﴾ [المعارج: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾.

في الآية السابقة رد على المكذبين للرسل المنكرين للنبوات والرسالات، وإنزال الكتب على البشر، وقرر ذلك وأثبته، ثم أتبع ذلك بالثناء على القرآن وعلى الذين يؤمنون به.

قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ الواو استئنافية والإشارة للقرآن الكريم، أي: وهذا القرآن، وهو وإن لم يكن مصرحًا به في الآية السابقة، فهو معلوم من السياق، وهو

أيضًا معهود معلوم؛ ولهذا أشار إليه بإشارة القريب «هذا».

﴿كِتَٰبٌ﴾ نُكِّر للتعظيم، أي: وهذا كتاب عظيم. والقرآن أعظم وأفضل كتب الله على الإطلاق.

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ تكلم عز وجل بضمير الجمع تعظيمًا لنفسه؛ لأنه العظيم سبحانه، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

﴿مُبَارَكٌ﴾ صفة لـ«كتاب»، والبركة: كثرة الخير ونماؤه، ومنه سميت بركة الماء؛ لكثرة مائها. فهذا الكتاب كثير الخير، جم المنافع والفوائد، فيه الهدى لكل خير، والتحذير من كل شر. مشتمل على مصالح الدارين، وعلوم الأولين والآخرين، مبارك في ألفاظه ومعانيه وأحكامه، يحصل لقارئه، والمعلم له، والعامل بأحكامه الخير الكثير، من استنارة العقل والفكر، وزكاء النفس وطهارتها، وصفاء العقيدة، وسلامة النهج، والسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة ثم تلا: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾»[1] [طه: ١٢٣].

﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، «مصدق» صفة ثانية لـ«كتاب»، أي: مصدق الذي سبقه من كتب الله إجمالًا، وتفصيلًا لما ذكر منها فيه، كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى. وهو مصدق لما سبقه من الكتب من وجوه عدة:

منها: شهادته بصدقها، وأنها حق من عند الله تعالى فيها الهدى والنور.

ومنها: أنه مصداق ما أخبرت به هذه الكتب؛ لأنه جاء فيها البشارة بالنبي ﷺ ومبعثه ونزول القرآن عليه، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٥].

ومنها: أنه مصدق لها بموافقته لها في الدعوة إلى توحيد الله تعالى والنهي عن الشرك، والدعوة إلى محاسن الأخلاق والآداب، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ١٩١)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٧١).

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم «ولينذر» بالغيبة، وقرأ الباقون بالخطاب ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ والواو في قوله ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ عاطفة، واللام للتعليل، أي: ولأجل أن تنذر به أم القرى ومن حولها.

والإنذار: التخويف والتحذير بما يتوقع من ضرر، وضده البشارة، كما قال ﷺ: «**أنا النذير العريان**»[١]، أي: الذي أذهله عن لبس ثيابه ما يخافه على قومه من الشر، فبادر إلى إنذارهم، فجاءهم عريانًا مسرعًا.

كما قال لقيط الإيادي منذرًا ومحذرًا قومه كسرى وجموعه من قصيدة بعنوان «صرخة غيور»:

أبلغ إيادًا وخلّل في سراتهمُ ... إني أرى الرّأي إن لم يعص قد نصعَا

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غُيُرًا ... على نسائكم كسرى وما جمعَا

هذا كتابي إليكم والنّذير معًا ... لمن رأى رأيه منكم ومن سمعَا

وقد بذلتُ لكم نصحي بلا دخلٍ ... فاستيقظوا إنّ خير العلم ما نفعَا[٢]

والمراد بالإنذار في الآية التخويف والتحذير من عذاب الله تعالى، واقتصر عليه؛ لأن المقصود تخويف المشركين: ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة المكرمة، سميت بذلك؛ لأنها أقدم القرى وأشهرها وأعظمها، فيها أول بيت وضع للناس وقبلة أهل القرى، ومقصد حجهم وعمرتهم.

والمراد: لتنذر أهلها؛ كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: واسأل أهل القرية.

و«القرى» جمع «قرية»، وهي «البلد» و«المدينة» التي تجمع أناسًا كثيرين، سميت «قرية» أخذًا من «القري»، وهو «الجمع»، ومنه سمي «القرآن الكريم»؛ لأنه يجمع

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٢)، ومسلم في الفضائل، شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٢٢٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوان لقيط» ص٤٠. وانظر: «المطالب العالية» ١٦/ ٣٨٣، «أحاديث الشعر» ص١٠٩، «الحماسة البصرية» ١/ ٨٩، «الذخائر والعبقريات» ٢/ ٢٢٢.

سورًا وآيات كثيرة، ومنه سمي «قرو الماء»؛ لأنه يجمع ماءً كثيرًا.

﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾، أي: وتنذر من حولها من أحياء العرب والقبائل، وسائر البلدان.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ يعني بـ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مكة ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ من القرى إلى المشرق والمغرب»[1].

ووجه الاقتصار على أم القرى ومن حولها في هذه الآية- والله أعلم- لأنهم الذين جرى معهم الكلام والجدال في قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ﴾ [الأنعام: ٦٦].

ولأنهم أقرب الناس إليه مكانًا ونسبًا، فهم أولى من ينبغي البدء بإنذارهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]. والأقربون أولى بالمعروف.

وهذا لا ينافي عموم رسالته ﷺ لجميع الناس، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال ﷺ: «**وبعثت إلى النّاس عامّةً**»[2].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ الواو عاطفة، و«الذين» اسم موصول يفيد العموم، أي: والذين يصدقون بالدار الآخرة، أي: بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: يصدقون بهذا القرآن، أي: وكل الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بهذا القرآن؛ لأن من لازم الإيمان بالآخرة الإيمان بالقرآن، كما أن من لازم الإيمان بالقرآن الإيمان بالآخرة.

﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ هذا زيادة ثناء على المؤمنين، مؤذن بكمال إيمانهم وصدقه.

﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾ متعلق بـ«يحافظون» قدّم عليه للعناية والاهتمام بالصلاة، أي: يحافظون على صلاتهم في أوقاتها ويداومون عليها، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، كما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، والنسائي في التيمم (٤٣٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وخصها بالذكر من بين سائر العبادات؛ لعظم مكانتها في الإسلام، فهي عمود الإسلام وقاعدته ورحاه التي يدور عليها، من حفظها حفظه الله، ووفقه في دينه ودنياه وأخراه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، وخسر دينه ودنياه وأخراه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات عظمة الله تعالى، ووجوب تقديره حق قدره، وتعظيمه حق تعظيمه؛ لإنكاره عز وجل على المشركين والمكذبين بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

٢- الإنكار على المشركين والمكذبين عدم تقديرهم لله تعالى حق قدره، حين نفوا أن يكون الله أنزل على بشر كتابًا ووحيًا، مما فيه إنكار دينه وإلهيته وملكه وحكمته ورحمته والظن السيئ به، وأنه خلق الخلق عبثًا، وتركهم سُدى، مما ينافي كماله المقدس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

٣- جرأة هؤلاء المكذبين على الله تعالى؛ حيث نفوا إرساله الرسل وإنزاله الكتب.

٤- إثبات علو الله تعالى على خلقه، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ﴾ وقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ وقوله: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾.

٥- أن الرسل إنما يكونون من البشر، لا من الملائكة، ولا من الجن؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

٦- إفحام المشركين، وإثبات ما نفوه من إنزال الله الكتب على البشر، بما لا يستطيعون دفعه، لا هم ولا غيرهم، وهو رسالة موسى عليه السلام، ومجيؤه بالتوراة، فهذا معلوم مشهور لديهم ولدى غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ الآية.

ولهذا أمره الله عز وجل أن يجيب عنهم؛ لِتَعَيُّن الجواب، وعدم إمكانية إنكاره فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾.

٧- أن التوراة منزلة من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾.

٨- إثبات رسالة موسى عليه السلام ونزول الكتاب عليه.

٩- دفاع الله تعالى عن نبيه، وتلقينه الحجة على المكابرين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

١٠- ثناء الله تعالى على كتاب موسى «التوراة»، وأن فيه النور والهدى؛ لقوله تعالى: ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وهو أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم.

١١- ذم أهل الكتاب والتنديد بهم؛ لجعلهم كتاب الله «التوراة» قراطيس وأجزاء متفرقة، وإظهار بعضها مما لا يخالف أهواءهم وإخفاء الكثير منها؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

١٢- أن من بلاغة القرآن الكريم وإيجازه الاستدلال بما ذكر على ما لم يذكر؛ لقوله تعالى: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، فدل قوله: ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ على أن المراد بـ﴿تُبْدُونَهَا﴾، أي: تبدون بعضًا منها. كما دلت الهاء في قوله: ﴿تُبْدُونَهَا﴾ على المحذوف من قوله: ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، أي: وتخفون كثيرًا منها.

١٣- أن كل ما عُلِّمه أهل الكتاب من العلوم فهو مما علمهم الله إياه في «التوراة»، وكل ما عُلِّمه المؤمنون ومن بُعث فيهم ﷺ فهو مما علمهم الله إياه في القرآن الكريم، وكل ما عُلِّمه الناس فهو مما علمهم الله إياه فيما أنزل من كتبه.

١٤- جواز أن يتولى السائل الجواب عن السؤال، بل قد يحسن ذلك؛ للدلالة على تعيُّن الجواب، وأنه لا يمكن تجاهله أو إنكاره؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ الآية، ثم أمره عز وجل أن يجيب عن ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، أي: قل: الله أنزله.

١٥- أن مهمة الرسول ﷺ هي تبليغ الدعوة، وإقامة الحجة على الخلق، وليس عليه هدايتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، وفي هذا تسلية له ﷺ.

١٦- الوعيد والتهديد للمكذبين المنكرين لرسالته ﷺ وإنزال الكتاب عليه؛ لقوله

تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾.

١٧- أن كل ما لا ينفع الإنسان في دينه ويسعده في أخراه فهو خوض بالباطل ولعب لا فائدة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾.

١٨- أن الحياة جد وليست بهزل، فهي مزرعة للآخرة لمن وفقه الله، وفرصة للعمل بما يسعد الإنسان في دينه ودنياه وأخراه.

١٩- امتداح الله للقرآن الكريم وتعظيمه له؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾.

٢٠- أن القرآن الكريم منزل من عند الله، وهو كلامه تكلم به بحرف وصوت، وليس بمخلوق كما يقول المعتزلة.

٢١- تعظيم الله تعالى لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ بضمير الجمع والعظمة.

٢٢- بركة القرآن الكريم وكثرة خيره؛ لما فيه من الهدى والدعوة إلى كل خير، والتحذير من كل شر، والاشتمال على مصالح الدارين وعلوم الأولين والآخرين، والنفع لمن قرأه وتعلمه وعمل به، وكونه سبب السعادة لمن تمسك به في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿مُبَارَكٌ﴾.

٢٣- تصديق القرآن الكريم للكتب السماوية السابقة، بشهادته بصدقها، وكونه مصداق ما أخبرت به وبشرت، وموافقته لها في أصول الشرائع من الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والنهي عن الشرك، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والنهي عن مساوئها، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾.

٢٤- أن القرآن أنزل لأجل الإنذار والتحذير من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾.

وهو لإنذار جميع الناس، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. وتخصيص الإنذار في الآية هنا بأم القرى ومن حولها لا ينافي ما دلت عليه هذه النصوص وغيرها

من عموم رسالته ﷺ.

٢٥- أن مكة المكرمة هي أم القرى؛ لقوله تعالى: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وهي مدينة وأم المدن.

٢٦- أن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بالقرآن ويصدقون به؛ لأن الإيمان بالآخرة يستلزم الإيمان بالقرآن، كما أن الإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بالآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٢٧- إثبات الدار الآخرة، ووجوب الإيمان بها.

٢٨- الثناء على المؤمنين بالآخرة بإيمانهم بالقرآن، ومحافظتهم على صلاتهم؛ مما يدل على كمال إيمانهم وصدقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وفيه تعريض بذم الذين يكذبون بالقرآن.

٢٩- فضل الصلاة، وعظم مكانتها في الإسلام؛ لهذا خصها بالذكر من بين سائر العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

٣٠- الترغيب بالمحافظة على الصلاة بأوقاتها، والمحافظة على شروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

أبطل عز وجل في الآيات السابقة قول المشركين تكذيبًا منهم لرسالته ﷺ: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ ثم أتبع ذلك ببيان أنه لا أظلم ممن افترى على الله كذبًا، أو ادعى أن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، وأنه سينزل مثل ما أنزل الله تعالى.

وفي هذا إبطال لما عليه المشركون من الشرائع الضالة من عبادة الأصنام، وزعمهم أنها تشفع لهم عند الله، ومن تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، ونحو ذلك، وبيان محض تناقضهم، فهم ينفون الرسالة عن البشر، وفي المقابل يزعمون أن الله أمرهم بكذا ونهاهم عن كذا.

كما أن في الآية تأكيدًا لصدق رسله، ولا سيما خاتمهم عليه الصلاة والسلام، فلا يمكن أن يتجرأ أحد منهم على الكذب على الله تعالى، وهم صفوة خلق الله وأفضلهم؛ ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ قائلًا: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. قال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله[1].

(١) سبق تخريجه.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الواو استئنافية، و«من» اسم استفهام للإنكار والنفي، و«أظلم» اسم تفضيل، أي: ومن أشد ظلمًا، أي: لا أحد أشد ظلمًا، ولا أعظم جرمًا ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

وفي هذا تعريض بأنهم الكاذبون بقولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، وإبطال لما هم عليه من الشرك والشرائع الضالة، وتأكيد لصدق رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، «ممن» «مِن» حرف جر، و«من» موصولة، أي: من الذي افترى على الله، أي: اختلق على الله كذبًا، فهو عام لكل من كذب على الله، فنسب له قولًا أو حكمًا، وهو تعالى بريء منه، أو جعل له شريكًا أو ولدًا، ونحو ذلك مما عليه أهل الظلم والكفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾، «أو» عاطفة تفيد التقسيم، والجملة معطوفة على صلة «من»، أي: والذي قال: أوحي إلي، أي: وكل من ادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله؛ لأن الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه. والوحي الشرعي لا يكون إلا من الله.

﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنه لم يوح إليه شيء.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها، و«من» موصولة، وكذا «ما» في قوله: ﴿مِثْلَ مَآ﴾، أي: وكل من قال: سأنزل مثل الذي أنزل الله، أي: ومن ادعى أنه يستطيع أن يعارض القرآن، وأن يأتي بمثله، بما يفتريه من القول، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١] وكما فعل مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والمختار بن عبيد الثقفي فلا أظلم ممن اختلق الكذب على الله، ولا أظلم ممن قال: أوحي إلي، ولم يوح إليه شيء، ولا أظلم ممن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ الآية.

لما ذم الظالمين المفترين على الله الكذب، والمدعين للنبوة، والمعارضين لكلام الله؛ ذكر ما أعد لهم من العقاب في حال الاحتضار وبعده، وهو وعيد لهم ولغيرهم من الظالمين.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية، و«لو» شرطية ﴿تَرَىٰٓ﴾ فعل الشرط.

والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له. والرؤية هنا يجوز كونها بصرية أو علمية.

«إذ» ظرف بمعنى «حين» و«الظالمون» جمع «ظالم» والظلم: النقص، ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان. وأظلم الظلم الشرك بالله؛ كما قال لقمان عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

والتعريف في «الظالمون» للجنس المفيد للاستغراق، فيشمل جميع الظالمين المشركين.

﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، «غمرات» جمع «غمرة» وهي: ما يَغمرُ، أي: يعم، وغمرات الموت: سكراته وكرباته وشدائده وأهواله، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾ [الذاريات: ١١] وجواب «لو» محذوف للتهويل، أي: لرأيت أمرًا عظيمًا فظيعًا.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ الواو حالية، فالجملة في محل نصب على الحال وبسط اليد: مدّها.

والمعنى: والملائكة مادّوا أيديهم إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، ولقبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٧-٢٨].

﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾، أي: تقول لهم الملائكة، أو قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾، أي: أخرجوا أرواحكم من أجسادكم، أي: هاتوا أرواحكم.

والأمر للإهانة والتغليظ والتشديد عليهم في قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾ [النازعات: ١-٢].

قال ابن القيم[1]: «وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة- وهم الصادقون- أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٦٦).

أن يقال لهم: اليوم تجزون».

وقال ابن كثير(١): «وذلك أن الكافر إذا احتضر بشّرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية».

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ اليوم: يوم قبض أرواحهم، أو يوم القيامة.

﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، أي: تجزون على ظلمكم وشرككم ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، «الهون» الهوان الشديد والذل، أي: العذاب الشديد الذي يهينكم غاية الإهانة ويذلكم غاية الإذلال، والجزاء من جنس العمل.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الباء للسببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تقولون على الله، أو بسبب قولكم على الله.

﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، أي: ما ليس بحق، بل هو باطل، وهذا يشمل الأقوال الثلاثة المتقدمة في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وغير ذلك من القول الباطل، والكذب على الله، ورد الحق، وتكذيب الرسل.

﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾، أي: تستكبرون عن اتباع آياته، وترتفعون عن الانقياد لها والعمل بها، وتعرضون عنها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

لما ذكر حالهم عند الموت وفي البرزخ أتبع ذلك بذكر حالهم عند ورودهم يوم القيامة.

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٢٩٥).

قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ الواو استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد جئتمونا فرادى، أي: يقول الله لهم هذا القول يوم معادهم.

ويبعد أن يكون هذا القول من قول الملائكة؛ لقوله بعده: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨].

وتكلم عز وجل بضمير الجمع في قوله: ﴿جِئْتُمُونَا﴾ وما بعده من ضمائر الجمع تعظيمًا لنفسه.

﴿فُرَادَىٰ﴾ حال، أي: حال كونكم فرادى.

و«فرادى» جمع «فردان»، مثل «سكارى» جمع «سكران»، و«فردان» بمعنى «المنفرد»، أي: كل واحد منهم جاء منفردًا بلا أهل ولا مال ولا أولاد، ولا شركاء ولا أنصار، ولا زاد ولا استعداد، أي: مفلسين منعزلين عن كل ما كنتم تتباهون به في الدنيا.

﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الكاف للتشبيه بمعنى «مثل» و«ما» مصدرية، أي: مثل خلقنا إياكم أول مرة، أي: كما بدأناكم أعدناكم، حفاة عراة غرلًا بهما، كما ولدتكم أمهاتكم، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وهو البعث الذي كانوا ينكرونه، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

وفي قوله: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تأكيد لقوله: ﴿فُرَادَىٰ﴾، أي: صفر اليدين، عارين من كل شيء.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾، «ما» موصولة، أي: وتركتم وخلفتم الذي خولناكم، أي: الذي أعطيناكم وملكناكم في الدنيا من النعم، من الأموال والأولاد والخدم والحشم وغير ذلك.

﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾، أي: خلفكم في الدنيا، فلم تحملوا منه شيئًا، ولم يغن عنكم شيئًا، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان**

ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»[١].

وعن مطرف عن أبيه رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي**»؛ قال: «**وهل لك يا ابن آدم من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للنّاس**»[٢].

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا...﴾ الآية.

تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوه في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أنها تنفعهم وتدفع عنهم، وفيه بيان وتقرير لقوله: ﴿فُرَٰدَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ الواو حالية، أي: والحال أننا لا نشاهد معكم شفعاءكم، أي: شركاءكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله، وتقولون: إنهم شفعاءكم، أي: يشفعون لكم عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وفي قوله: ﴿شُفَعَآءَكُمُ﴾ تهكم بهم؛ لأنهم لا شفعاء لهم؛ كقوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧].

﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا﴾ الزعم: القول الباطل، أي: الذين تزعمون باطلًا وكذبًا ﴿أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا﴾، أي: أن لهم نصيبًا من أنفسكم، وشركة في عبادتكم، فتشركونهم في العبادة مع الله، وتصرفون لهم جزءًا منها.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر والكسائي وحفص: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بنصب النون على الظرفية، أي: لقد تقطع ما بينكم من وصل، وقرأ الباقون: «بينُكم» بضم

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٤)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٠)، والنسائي في الجنائز (١٩٣٧)، والترمذي في الزهد (٢٣٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٥٨)، (٤/ ٢٤، ٢٦)، وأخرجه أحمد أيضًا (٢/ ٣٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النون على أنه فاعل، أي: لقد تقطع وصلكم.

واللام في قوله: ﴿لَقَد﴾ لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد تقطع بينكم، و«قد» للتحقيق.

والمعنى: لقد زال ما بينكم من وصل، أو لقد زال تواصلكم، أي: الذي كان بينكم في الدنيا من العلاقات والأسباب، وفي هذا بيان لقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ وزيادة تيئيس لهم.

والضمير في قوله: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ عائد إلى المخاطبين وشفعائهم، أي: فلا تواصل بينكم ولا تواد ولا تناصر، وقد كانوا في الدنيا يتواصلون ويتناصرون، ويقول قائلهم:

أخاك أخاك إنّ من لا أخًا له كساعٍ إلى الهيجا بدون سلاحِ[1]

لكن يوم القيامة ينقطع ذلك كله ويضمحل، ولا يبقى سبب للنجاة إلا العمل الصالح.

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ معطوف على ﴿تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ وهو من تمام التهكم والتيئيس، أي: وزال عنكم وغاب.

﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: وضل عنكم الذين كنتم تزعمون أنهم لكم شفعاء وفيكم شركاء.

أو: وضل عنكم زعمكم شفاعة هؤلاء الشركاء فيكم، وجلب الخير لكم، ودفع الضر عنكم.

كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩.

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

قرر عز وجل الرسالة والبعث، وأبطل شفاعة الشركاء ونفعهم، ثم أتبع ذلك ببيان كمال قدرته، وبديع صنعه، وسعة علمه ورحمته، وبلوغ حكمته، وعظم سلطانه الدال على استحقاقه وحده للعبادة وإبطال الشرك والإلحاد.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، «إن» حرف توكيد، ولفظ الجلالة اسمها، و﴿فَالِقُ﴾ خبرها، والفلق: بمعنى الشق، و«الحب» اسم جمع لما يثمره النّبت واحده حبة، و«ال» فيه للجنس، أي: يشق أنواع الحبوب، فتخرج منها الزروع والنباتات على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها وطعومها.

﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾، أي: وفالق النوى، و«النوى» اسم جمع «نواة» وهي قلب الثمرة، ويطلق على ما في الثمار من القلوب التي منها ينبت شجرها؛ كالعنب والزيتون، ويسمى «العَجَم» بالتحريك اسم جمع «عَجَمة».

والمعنى: الذي يفلق النوى، أي: يشقه، فيخرج منه الغرس والشجر؛ من النخيل والزيتون والعنب والرمان، وغير ذلك من أشجار الفواكه، المثمرة لأنواع الثمار المختلفة الطعوم والألوان والأشكال والمنافع.

وفي الإظهار مقام الإضمار، فلم يقل: «إني فالق»، بل قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ﴾- تعظيم لنفسه عز وجل.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الجملة في محل رفع خبر ثان عن اسم «إن»، وقد تكون استئنافًا بيانيًّا، فيها بيان المقصود من «الفلق» في الجملة قبلها.

و«الحي» كل ما فيه روح وهو الإنسان والحيوان، وكل ما ينمو وهو النبات، فهو عام في كل جسم به حياة، من حيوان أو نبات.

فيدخل في عموم قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كل جسم حي أخرجه الله من جسم ميت، ويدخل في عموم قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ كل جسم ميت أخرجه الله من جسم حي.

فيخرج الزرع والنبات الحي من الحب اليابس الميت، ويخرج الشجر والثمر الحي من النوى اليابس الميت، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يس: ٣٣].

ويخرج الحيوان الحي- كالدجاجة ونحوها من الطيور- من الميت وهي البيضة؛ كما يخرج المولود الحي من الإنسان والحيوان الميت.

ويخرج الحي معنويًّا، وهو المؤمن، من الميت معنويًّا، وهو الكافر، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ معطوف على ما قبله، وهو عام في كل جسم ميت أخرجه الله تعالى من جسم حي، فهو مخرج الحب والنوى اليابس الميت من الزرع والنبات الحي، ومخرج الشيء الميت؛ كالبيضة من الدجاجة، وغيرها من أنواع الطيور، كما أنه مخرج المولود الميت من الإنسان والحيوان الحي، ومخرج الميت معنويًّا وهو الكافر من الحي معنويًّا وهو المؤمن.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يخرج النطفة الميتة من الحي، ثم يخرج من النطفة بشرًا حيًّا»[1].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ تعظيم لنفسه عز وجل، أي: فاعل هذه الأشياء هو الله وحده لا شريك له، ذو القدرة التامة، والنعمة العظيمة.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ استفهام تعجب وإنكار، أي: فكيف تصرفون وتصدون عن

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٥٢).

عبادة من هذا شأنه، وتعدلون إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟!

وبُني «تؤفكون» للمجهول؛ لعدم تعين صارفهم، ولكثرة الصوارف؛ من وساوس الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، واتباع الهوى، ودعاة الضلال، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦﴾.

استدل عز وجل في الآية السابقة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وبلوغ حكمته بأحوال النبات والحيوان، ثم أتبع ذلك بالاستدلال على ذلك بما هو أعظم وهو الأحوال الفلكية؛ من خلق الصبح، وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا، وكل ذلك دال على عنايته بخلقه وكرمه وعظيم منته، وعلى تفرده بالإلهية وبطلان الشرك.

قوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾، أي: شاق الإصباح شيئًا فشيئًا بضوء الشمس بالنهار عن ظلمة الليل وسواده، و«الإصباح»: الصباح، والصبح، قال امرؤ القيس(1):

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي ... بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿وَجَعَلَ﴾ بصيغة الماضي ونصب ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَجَاعِلُ﴾ على أنه اسم فاعل مرفوع عطفًا على ﴿فَالِقُ﴾، وخفض ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ على إضافة «جاعل» إليه.

أي: وجعل كونًا ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، أي: صيره ﴿سَكَنٗا﴾، أي: ساجيًا مظلمًا، قال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضحى: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ [الليل: ١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ [الشمس: ٤].

وجعله وقتًا للسكون والنوم والراحة من التعب والعمل في النهار، يسكن فيه كل متحرك بالنهار، ويهدأ فيه، ويستقر في مسكنه ومأواه، الناس في دورهم والأنعام في مُرُحِها، والطيور في أوكارها.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١١٧).

ذكر أن امرأة صهيب الرومي عاتبته في كثرة سهره وقيامه، فقال لها: «إن الله جعل الليل سكنًا إلا لصهيب، إن صهيبًا إذا ذكر الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه»[1].

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ معطوف على «الليل» على قراءة نصبه، وعلى موضعه على قراءة خفضه.

أي: وجعل الشمس والقمر ﴿حُسْبَانًا﴾، أي: يجريان في أفلاكهما بحساب مقدر متقن دقيق، لا يضطرب، ولا يتغير، ولا يتبدل، إلى أن يأذن الله بانتهاء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥]، وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: ٤٠] وذلك تسخير من الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهو نعمة عظيمة من الله تعالى، ومنة منه على العباد؛ إذ بحركتهما وجريانهما، يعرف الليل والنهار، ويعلم عدد الأيام والشهور والفصول والسنين والحساب، وأوقات العبادات، وآجال المعاملات، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وكثير من الأمم يحسبون الشهور والفصول والأعوام بحساب سير الشمس بحلولها في البروج وتمام دورتها فيها.

والعرب يحسبون بسير القمر في منازله، وهو الذي جاء به القرآن وسار عليه المسلمون.

وعلى ذلك يترتب اختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا، واختلاف الفصول حرًّا وبردًا واعتدالًا، وما في ذلك من المنافع العظيمة التي لا تحصى للإنسان والحيوان والنبات، وغير ذلك.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الإشارة لما سبق من كونه عز وجل فالق الإصباح، وجاعل الليل سكنًا، والشمس والقمر حسبانًا، وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تنبيهًا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ٣٥٤) لكن ليس فيه «إلا» ويظهر أنها ساقطة سهوًا؛ لأن المعنى لا يستقيم بدونها. وقد أثبتها بعض المفسرين نقلًا عن ابن أبي حاتم.

على عظمة تقديره عز وجل الدال على عظمته سبحانه، أي: ذلك التقدير العظيم تقدير العزيز العليم.

و«التقدير»: وضع الأشياء على قدر معلوم، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢].

﴿الْعَزِيزِ﴾ اسم من أسماء الله تعالى يدل على أنه ذو العزة التامة؛ عزة القهر والغلبة، وعزة القوة، وعزة الامتناع.

﴿الْعَلِيمِ﴾ اسم من أسماء الله تعالى يدل على أنه عز وجل ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

أي: ذلك التقدير العظيم تقدير ﴿الْعَزِيزِ﴾ ذي العزة التامة، فلا يغالب، ولا يخالف، ولا يمانع؛ ﴿الْعَلِيمِ﴾ ذي العلم الواسع بما قدر وخلق، وبمصالح خلقه، وبكل شيء؛ ولهذا جاء تقدير هذه المخلوقات، وجريان هذه الأفلاك على أدق نظام، وأعظمه وأتقنه وأحكمه.

وباقتران اسميه «العزيز» و«العليم» وصفة العزة التامة، والعلم الواسع في حقه عز وجل يزداد كمالًا إلى كمال؛ ولهذا كثيرًا ما يختم عز وجل الكلام في خلق السموات والأرض والشمس والقمر بهذين الاسمين، كما قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٢﴾ [فصلت: ١٢]، وقال تعالى في سورة يس: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝٣٧ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨﴾ [يس: ٣٧-٣٨].

الفوائد والأحكام:

١- أنه لا أحد أظلم ممن كذب على الله، أو ادعى النبوة، أو قال إنه يستطيع أن يعارض كلام الله وأن يأتي بمثله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

٢- شدة حرمة هذه الأعمال الثلاثة، وكفر مرتكبها؛ لأن الله وصف مرتكبها بأنه لا أظلم منه، أي: أنه ارتكب أظلم الظلم وهو الشرك والكفر، مما يوجب الحذر منها.

٣- إبطال ما عليه المشركون من الشرك والشرائع الضالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

٤- الإشارة لصدق رسل الله عليهم الصلاة والسلام، ولا سيما خاتمهم عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ فمن قال: أوحي إلي، وقد أوحى الله تعالى إليه حقًّا فهو صادق.

وأيضًا فإن الرسل هم صفوة الخلق، فيبعد كل البعد أن يقع أحد منهم في مثل هذه الأعمال المذكورة.

وفي هذا رد على الذين كذبوهم وقالوا: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾.

٥- أنه لا يستطيع أحد من الخلق معارضة القرآن بالإتيان بمثله؛ لأن الله عد من قال إنه يستطيع هذا من أظلم الخلق، وقد تحدى الله العرب أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله.

٦- أن الوحي الحق لا يكون إلا من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله؛ لأن الموحي معلوم، وهو الله عز وجل.

٧- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات.

٨- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، وكذا غيره من كتب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

٩- شدة ما يلاقيه الظالمون من غمرات الموت وسكراته وأهواله وشدائده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾.

وهذا الوعيد الشديد شامل لمن ارتكبوا الأعمال المذكورة وغيرهم من الظالمين؛ لأن التعريف في ﴿الظَّالِمُونَ﴾ للجنس، فيشمل جميع الظالمين والمشركين.

١٠- إثبات غمرات الموت وشدائده وسكراته؛ لقوله تعالى: ﴿غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾[ق:١٩].

١١- ضرب الملائكة للظالمين عند الموت؛ لانتزاع أرواحهم؛ لقوله تعالى:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾.

١٢- إثبات وجود الملائكة الموكلين بانتزاع الأرواح وقبضها.

١٣- أن أرواح الظالمين والكافرين تتأبى عن الخروج، فتنزعها الملائكة بقوة بعد الضرب والتعذيب لهم والتشديد في القول؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ①﴾ [النازعات:١].

١٤- أن النفس تطلق على الروح؛ لقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾.

١٥- الوعيد للظالمين بالعذاب المهين عند احتضارهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ وفي هذا إثبات عذاب البرزخ ونعيمه؛ فإن هذا الوعيد لهم إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده.

١٦- أن سبب مجازاة الظالمين بعذاب الهون هو قولهم على الله غير الحق، واستكبارهم عن اتباع آياته والعمل بها؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

١٧- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾.

١٨- التحذير من الاستكبار عن اتباع الحق، وأن الجزاء من جنس العمل، فمن استهان بأمر الله، وتكبر عن اتباع الحق؛ جوزي بعذاب الهون الذي يذله ويهينه.

١٩- الإقسام لتأكيد الأخبار في القرآن؛ كما كان عليه العرب في تأكيد أخبارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ وقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾.

٢٠- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿جِئْتُمُونَا﴾، ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾، ﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾، ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾ بضمير الجمع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ بالإظهار مقام الإضمار، فلم يقل: إني فالق الحب والنوى. ولم يقل: ذلك تقديري.

٢١- مجيء الناس القيامة فرادى عارين من كل شيء، كما خلقهم الله أول مرة، بلا أهل، ولا مال، ولا أولاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٢٢- قدرة الله تعالى التامة على بعث الخلق، وإعادة خلقهم كما بدأهم؛ لقوله

تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

٢٣- مجيء الظالمين والمشركين يوم القيامة مفلسين منعزلين عن كل ما كانوا يتباهون به في الدنيا من أموال وأولاد وشركاء وأنصار، بلا زاد ولا استعداد، ولا مهاد ولا وساد.

٢٤- أن كل ما خوله الناس في الدنيا من النعم هو من الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾.

٢٥- أن كل ما خُوِّله الله للناس في الدنيا من الأموال والأولاد وسائر النعم لا يغنيهم من الله شيئًا، بل هم تاركوه خلف ظهورهم، وقادمون على الله عارين من ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

٢٦- يجب الحذر من فتنة الدنيا والاغترار بزينتها ومتاعها الزائل؛ فإنها متاع الغرور. وقد قال ﷺ: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**»[1].

٢٧- تخلي الشركاء عن المشركين في أشد المواقف عند مجيئهم إلى الله تعالى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾.

٢٨- اعتقاد المشركين أن معبوداتهم تشفع لهم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾، أي: حسب زعمكم أنهم يشفعون لكم.

٢٩- زعم المشركين الكاذب أن لمعبوداتهم- التي يعتقدون شفاعتها لهم- شرك في أنفسهم وفي عبادتهم مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾.

٣٠- انقطاع ما بين المشركين وشركائهم من صلات وأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾.

٣١- زوال ما كان يزعمه المشركون من شفاعة الشركاء لهم، وضلال هؤلاء

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٥٨)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧) من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

الشركاء، وغيابهم عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

ولهذا يناديهم الله تعالى على رؤوس الخلائق تبكيتًا لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤]، وكما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٩٢-٩٣].

٣٢- تأنيب المشركين، وتبكيتهم، والتهكم بهم في عبادتهم من دون الله ما لا ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

٣٣- بيان كمال قدرة الله تعالى، وبديع صنعه، وسعة علمه ورحمته، وبلوغ حكمته، وعظيم سلطانه، وتمام نعمته على عباده، بفلق الحب والنوى عن النبات، وإخراج الحي من الميت، والميت من الحي، وفلق الإصباح، وجعل الليل سكنًا، والشمس والقمر حسبانًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾.

٣٤- الإنكار والتعجب من حال المشركين في انصرافهم عن عبادة الله تعالى، الذي له تمام الخلق والملك والتدبير والسلطان والعظمة والقدرة والنعمة، إلى عبادة ما لا ينفع ولا يضر؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

٣٥- فيما ذكر عز وجل من الدلائل على بديع صنعه، وتمام قدرته ونعمته، وغير ذلك استدلال على كمال ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته، وتفرده بالإلهية، وبطلان الشرك.

٣٦- التذكير بنعمة الله عز وجل ومنته العظيمة على الخلق في إخراج النباتات والزروع والثمار، وإخراج الحي من الميت، والميت من الحي، وفي فلق الصبح، وجعل النهار وقتًا للمعاش، والليل سكنًا ووقتًا للراحة، وفي جعل الشمس والقمر يجريان بحساب دقيق؛ لنعرف بهما الأزمنة، وأوقات العبادات، وآجال المعاملات، وعدد الأيام والشهور والأعوام، وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا، واختلاف الفصول بين حر وبرد واعتدال؛ لما في ذلك من مصالح عظيمة للإنسان

والحيوان والنبات.

٣٧- تعظيم الله عز وجل؛ لتقديره ودلائل قدرته في خلقه، وتعظيمه سبحانه لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

٣٨- إثبات اسم الله «العزيز» وأنه عز وجل ذو العزة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾.

٣٩- إثبات اسم الله «العليم»، وأنه سبحانه ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾.

٤٠- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«العليم» كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

ذكر عز وجل دلائل قدرته في فلق الصبح، وجعل الليل سكنًا، والشمس والقمر حسبانًا، ونعمته على الخلق بذلك، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته ونعمته بجعل النجوم للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾، أو على قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ وتعريف المسند والمسند إليه في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ في هذه الآية والآيتين بعدها؛ لإفادة القصر، أي: وهو وحده، وتكلم عن نفسه بضمير الغيبة فيها كلها تعظيمًا لشأنه عز وجل.

و«جعل» هنا من الجعل الكوني، وهي بمعنى «خلق» تنصب مفعولًا واحدًا، وهو هنا «النجوم».

﴿لَكُمُ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجلكم، وامتنانًا عليكم، والخطاب عام لجميع الناس و﴿ٱلنُّجُومَ﴾ جمع «نجم» وهي الكواكب المدورة المضيئة ليلًا في السماء، منها نجوم ثوابت، ومنها نجوم سيارة.

﴿لِتَهْتَدُواْ بِهَا﴾ اللام للتعليل وبيان الحكمة في هذا الجعل، وهو الاهتداء بها، أي: لأجل أن تستدلوا بها على معرفة الجهات والمسالك؛ إذا ضللتم الطريق أو تحيرتم فيها ليلًا، وتعرفوا بها الأوقات، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦].

﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، أي: في السير في ظلمات البر والبحر، و«ظلمات» جمع

«ظلمة» وصيغة الجمع مستعملة في القوة، أي: في ظلمات البر الشديدة التي تكون بسبب ظلمة الليل والسحاب والعواصف والرياح الشديدة والأعاصير.

﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ معطوف على «البر»، أي: وفي ظلمات البحر، وهي أشد؛ لأنه يجتمع فيها مع ظلمات البر ظلمات لجة البحر وأمواجه، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠].

وقدّم ظلمات البر مع أن البحر ظلماته أشد؛ لأن ركوب البحر وأسفاره- والله أعلم- أقل بكثير من أسفار البر.

قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»[1].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾، «قد» للتحقيق، ﴿فَصَّلْنَا﴾ بينّا ووضحنا. وتكلم عز وجل بضمير الجمع في قوله: ﴿فَصَّلْنَا﴾ وفي قوله بعد ذلك: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ وقوله: ﴿نُّخْرِجُ﴾ تعظيمًا لنفسه عز وجل.

﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ جمع «آية»، و«ال» فيها للاستغراق، فيشمل آية خلق النجوم وغيرها من الآيات الكونية. وقد يشمل الآيات الشرعية.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل قوم يعلمون، أي: لأهل العلم والمعرفة بالله، الذين ينتفعون بالآيات ويستدلون بها على تمام قدرة الله، وبديع صنعه، وعظيم منته، وسعة علمه، وبالغ حكمته، واستحقاقه للعبادة وحده، وهم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٩].

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا؛ قال النابغة الذبياني[2]:

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في بدء الخلق، باب في النجوم.

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٧٧).

يُنبِئْكَ ذو عرضِهم عنِّي وعالِـمُهم   وَلَـيْسَ جَاهِـلُ شَيْءٍ مِثْـلَ مَـنْ عَلِمَـا

وقال الآخر:

سَلِي إِنْ جَهِلْـتِ النَّاسَ عَنَّا وَعَنْهُمُ   فَلَـيْسَ سَـوَاءً عَالِـمٌ وَجَهُـولُ[1]

وفي الآية تعريض بمن لم ينتفعوا بتفصيل الآيات بأنهم قوم لا يعلمون.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

ذكر عز وجل دلائل قدرته ومنته في إخراج النبات، وإخراج الحي من الميت، والميت من الحي، وفي الأحوال الفلكية، ثم انتقل إلى ذكر دلائل قدرته ونعمته في إنشاء البشر من نفس واحدة وأحوالهم، وإثبات عظمته ووحدانيته واستحقاقه للعبادة وحده، وقدرته التامة على بعثهم.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، أي: وهو وحده الذي أوجدكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، أي: من آدم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وهم أيضًا من جنس نفس واحدة، أي: من جنس واحد، وفي هذا أيضًا زيادة منة عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح عن يعقوب «فمستقِر» بكسر القاف، اسم فاعل، وقرأ الباقون: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ بفتحها، فيكون مصدرًا ميميًّا، أو اسم مكان، والفاء للتفريع، و«مستقر» مبتدأ خبره محذوف متقدم عليه، أي: فلكم مستقر، و«مستقر» اسم مكان، أي: مكان استقرار، والاستقرار هو القرار، فالسين والتاء فيه للتأكيد، يقال: استقر في المكان، أي: قرّ فيه. ويجوز كون «مستقر» مصدرًا ميميًّا.

﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، «مستودع» اسم مكان، على وزن اسم المفعول، أي: مكان استيداع،

---

(١) البيت يقال للسموأل بن عادياء. انظر: «ديوانه» ص٩٢.

ويجوز كونه مصدرًا ميميًّا بمعنى الاستيداع، والاستيداع: كون الشيء وديعة ثم يسترجع، يقال: استودعه مالًا إذا جعله عنده وديعة، ثم يسترجعه، فالاستقرار مؤذن بوضع دائم، والاستيداع مؤذن بوضع مؤقت. قال الشاعر:

وَمَا المَالُ وَالأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعٌ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الوَدَائِعُ

وقد اختلف المفسرون على أقوال عدة في المراد بقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾:

فقال كثير من المفسرين: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾، أي: في الأرحام، كما قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥]، أي: فمستقر، أي: رحم المرأة تستقر فيه النطفة.

﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، أي: في أصلاب الرجال، تحفظ فيه النطفة.

وقيل بالعكس: فمستقر في أصلاب الرجال ومستودع في الأرحام.

وأكثر المفسرين على القول الأول، واستظهره ابن كثير(١).

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قال: «مستقر في الرحم، ومستودع في صلب لم يخلق سيخلق».

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قال: «المستقر: الرحم، والمستودع: في أصلاب الرجال والدواب»(٢).

وعن سعيد بن جبير قال: قال لي ابن عباس: «تزوجت؟ قلت: لا. قال: فضرب على ظهري، وقال: ما كان من مستودع في ظهرك سيخرج»(٣).

وقيل: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾، أي: فوق الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦].

ومستودع في القبور حتى البعث(٤).

(١) في «تفسيره» (٣/ ٢٩٩).
(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٣٦، ٤٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٥٥، ١٣٥٧).
(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٣٧).
(٤) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٤٢).

وقال السعدي[(١)]: «وجعل الله لهم مستقرًّا، أي: منتهى ينتهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار، التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكناها، وأوجدوا في الدنيا؛ ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها، وتعمر بها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم، وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك على وجه الوديعة التي لا تستقر ولا تثبت، بل يُنتقل منها، حتى يُوصل إلى الدار التي هي المستقر، وأما هذه الدار فإنها مستودع وممر».

وهذا من أجمع ما قيل في معنى الآية.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، أي: لقوم يفهمون الآيات ويعونها، أي: يفقهون عن الله آياته، ويفهمون حججه وبيناته، وينتفعون بها وهم المؤمنون؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وفيه تعريض بالمشركين المعرضين عن آيات الله بأنهم قوم لا يفقهون.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾.

ذكر عز وجل منته، وكمال قدرته في خلق البشر من نفس واحدة، وما هيأ لها من مستقر ومستودع، ثم أتبع ذلك بذكر نعمته، ودلائل قدرته في إنزال المطر وإخراج النبات والخضروات والحبوب، وأنواع الأشجار والثمار وما في ذلك من الدلالة على عظيم خلقه، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه.

قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: وهو وحده ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، «من» ابتدائية، والسماء أعلى طبقات الجو؛ حيث يتكون السحاب والأمطار، والعرب تسمي كل ما علا سماء. وإنزال الماء من السماء من أعظم نعم الله تعالى على خلقه، وكمال عظمته، ودلائل قدرته؛ ولهذا يمتن الله تعالى به كثيرًا على عباده،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٤١-٤٤٢)، وانظر: «التحرير والتنوير» (٤/ ٣٩٧).

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩-١١].

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الجملة معطوفة على جملة الصلة ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ﴿بِهِۦ﴾ الباء للسببية، والضمير المجرور عائد إلى الماء، أي: فأخرجنا بهذا الماء- أي: بسببه- نبات كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه: ٥٣].

والنبات: اسم لما ينبت ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي: كل شيء مما ينبت، أي: فأخرجنا بهذا الماء نبات كل شيء، أي: كل صنف من أصناف النبت كلها، من النباتات والزروع والأشجار المختلفة الثمار والطعوم والألوان، مع أنها تسقى بماء واحد، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

وعدل عن ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ وقوله: ﴿نُّخْرِجُ﴾ إظهارًا لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ الجملة معطوفة على جملة الصلة ﴿أَنزَلَ﴾ وهي تفصيل لمضمون جملة: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، ﴿مِنْهُ﴾، «من» ابتدائية، أو تبعيضية، والضمير المجرور عائد إلى النبات، أي: فأخرجنا من هذا النبات ﴿خَضِرًا﴾.

و«الخضر»: الذي لونه أخضر، أي: فأخرجنا من هذا النبات ﴿خَضِرًا﴾، أي: زرعًا وشجرًا أخضر رطبًا.

﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ صفة لـ«خضرًا». «منه»، «من» ابتدائية، والضمير المجرور عائد إلى «خضرًا» ﴿حَبًّا﴾، الحب: هو ثمر الزروع كلها ﴿مُّتَرَاكِبًا﴾ صفة لـ«حبًّا»، أي: نخرج من الخضر حبًّا يركب بعضه فوق بعض، ويلتصق بعضه ببعض؛ كما في سنبل الحنطة والشعير والأرز والذرة ونحو ذلك.

وقد جعل الله عز وجل فوق كل حبة من الحبوب المتراكبة في السنبلة ما يشبه الإبرة. قيل: الحكمة في ذلك- والله أعلم- لمنع الطيور من التقاط هذه الحبوب.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ﴾ معطوف على جملة الصلة ﴿أَنزَلَ﴾ أو على جملة ﴿نُّخۡرِجُ﴾، أو على جملة ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا﴾.

و«ال» في ﴿ٱلنَّخۡلِ﴾ للجنس؛ لأن النخل أنواع وأجناس كثيرة، وهو أيضًا معهود عند العرب، وفي ذكره وما بعده من أنواع الأشجار بيان لما يخرج من النوى من الشجر، إثر بيان ما يخرج عن الحب من النباتات.

﴿مِن طَلۡعِهَا﴾ بدل من قوله: «من النخل»، و«طلعها» هو «الكفرى» قبل خروج القنو منه، أي: فيخرج من ذلك الوعاء ﴿قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾.

﴿قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾، «قنوان» جمع «قِنْو» بكسر القاف وضمها، وهو عرجون وعذق التمر والرطب، كالعنقود للعنب، قال امرؤ القيس:

فَأَثَّــتْ أَعَالِيــهِ وَآدَتْ أُصُــولُهُ ... وَمَالَ بِقِنْوَانٍ مِنَ البُسْـرِ أَحْمَرَا[1]

﴿دَانِيَةٞ﴾ صفة لـ«قنوان»، أي: قريبة التناول، كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣﴾ [الحاقة: ٢٣].

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يعني بالقنوان الدانية قصار النخل لاصقة عذوقها بالأرض»[2].

وحتى لو طالت النخل فإن الله أوجد فيها كربًا ومراقي يسهل صعودها وجني رطبها من قنوانها المتدلية.

وقدم الزرع على النخل؛ لأن الزرع أعظم وأهم غذاء، وقدم الزرع والنخل على سائر الشجر؛ لأهميتها، ولأن كلا منهما غذاء، وغيرهما من الأشجار فواكه، والغذاء

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٤٦) «اللسان» مادة «أيد» وهو في ديوان امرئ القيس (ص٥٧). وروايته هكذا:

سـوامق جبَّـار أثيـث فروعـه ... وعالين قنوانًا من البسر أحمرَا

فأَثَّت أعاليه: يقال: أثّ النبات: إذا كثر والتف. وآدت أصوله: قويت.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٤٦).

مقدم على الفاكهة.

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ معطوف على «نبات»، أي: وأخرجنا به جناتٍ من أعناب، و«جنات» جمع «جنة»، وهي البساتين؛ سميت بذلك لأنها تجن، أي: تستر من بداخلها بكثرة أشجارها الملتفة وثمارها.

﴿مِّنْ أَعْنَابٍ﴾، أي: مكونة من أعناب، و«أعناب» جمع «عنب» وهي جمع «عنبة»، وهو في الأصل ثمر العنب، ويطلق على الشجر نفسه.

وذكر الأعناب بعد النخل؛ لأن العنب من أفضل أنواع الفواكه؛ لكثرة منافعه، وقدمهما على غيرهما من الأشجار؛ لأن النخل والعنب من أفضل الأشجار، وثمرهما أطيب الثمار وخيارها.

ولهذا امتن الله بهما على عباده بقوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] وذلك قبل التحريم. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ [يس: ٣٤].

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ معطوف على «نبات»، أي: وأخرجنا به الزيتون والرمان، والتعريف فيهما للجنس، وهما في الأصل اسم للثمرتين، ويطلقان على شجرتيهما.

﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ حالان من الزيتون والرمان معًا.

والاشتباه والتشابه مترادفان كالاستواء والتساوي؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]، أي: يشبه الزيتون والرمان بعضه بعضًا في شجره وورقه، وغير متشابه في ثمره، شكلًا وطعمًا ولونًا وطبعًا.

ويجوز جعل الحال في قوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ من جميع ما تقدم من قوله: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ فإن ذلك كله مشتبه وغير متشابه.

﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ثُمُره» بضم الثاء والميم، جمع «ثمار»، وقرأ الباقون: ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾ بفتحهما، جمع «ثمرة» والثمر: الجني الذي يخرجه الشجر.

أي: انظروا نظر اعتبار إلى ثمره ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾، أي: حين ابتداء إثماره، وتفكروا في أطواره ومراحل نموه، وانتقاله من حال إلى حال ﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ معطوف على «ثمره»، أي: وانظروا إلى ينعه.

و«الينع» الطّيْب والنضج، أي: وانظروا إلى إيناعه ونضجه وبلوغه حين يبلغ، فأمر عز وجل بالنظر إلى ثمره حين يثمر، أي: وقت طلعه ومراحل نموه، وإلى ينعه حين ينضج ويطيب ويبلغ؛ لما في ذلك من دلائل كمال قدرته وبديع صنعه، وعنايته بخلقه، ورحمته لهم ومنته عليهم، في تنوع الثمار واختلاف أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرعد: ٤].

والضمير في قوله: «ثمره» «وينعه» يعود إلى أقرب مذكور وهو الزيتون والرمان، أي: انظروا إلى ثمر المذكور من الزيتون والعنب، أو يعود إلى كل ما ذكر من النخل والأعناب والزيتون والرمان.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ﴾ الجملة تعليل للأمر بالنظر، والإشارة في ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى المذكور كله من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ وتأويل اسم الإشارة بتأويل المذكور.

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ اللام للتوكيد، أي: إن في ذلك المذكور لعلامات ودلالات على كمال قدرة الله عز وجل وحكمته، ورحمته بعباده وعنايته بهم، واستحقاقه للعبادة وحده، وقدرته على إحياء الموتى وبعثهم.

﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: لقوم يصدقون الله ويتبعون رسله، وخصهم بذلك؛ لأنهم هم الذين يعتبرون ويتفكرون بالآيات وينتفعون منها؛ لأن إيمانهم يحملهم على التفكر والتدبر، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥].

وفي قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ دلالة على أنهم هم المقصودون بقوله تعالى في الآيتين قبلها: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾.

كما أن فيه تعريضًا بأن الذين لا يعلمون ولا يفقهون هم المشركون.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بنعمة الله تعالى بجعل النجوم للاهتداء بها في الظلمات، وما في ذلك من دلائل كمال قدرته، وبديع صنعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

٢- مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى «علم التسيير»، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا به.

٣- منة الله تعالى على العباد بتفصيل الآيات وبيانها، الآيات الكونية والآيات الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾.

٤- أن الذين ينتفعون من تفصيل الآيات ويستفيدون منها هم ذوو العلم والفقه والمعرفة بالله تعالى، وما يجب له؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ وفي هذا تعريض بجهل الذين لا ينتفعون منها وعدم فقههم.

٥- فضل العلم والفقه في الدين؛ لأن ذلك سبب للانتفاع بالآيات وتدبرها.

٦- تذكير الناس بإيجادهم من نفس واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ لما في ذلك من دلائل كمال قدرته؛ إذ كيف وجد هذا الخلق العظيم من البشر مما لا يكاد يحصى من نفس واحدة.

ولما في ذلك من عنايته عز وجل بخلقهم، فجعل لهم مستقرًّا يستقرون فيه، ومستودعًا أودعهم فيه، وأحكم خلقهم وأطواره ومراحله.

ولما في ذلك من المنة عليهم في كونهم من جنس واحد؛ ليتعارفوا ويتعايشوا، ويسكن بعضهم إلى بعض، ولا يفخر بعضهم على بعض إلى غير ذلك.

٧- امتنان الله تعالى، وبيان كمال قدرته بإنزال المطر، وإخراجه به نبات كل شيء، وإخراج الخضر من النبات، وإخراج الحب المتراكب من الخضر، والقنوان الدانية من النخل، وجنات الأعناب والزيتون والرمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾.

٩- أن من أعظم نعم الله تعالى على الخلق إنزال الماء من السماء، والذي به حياة كل شيء؛ النبات، والإنسان، والحيوان؛ ولهذا يمتن الله تعالى بذلك على العباد في آيات كثيرة.

١٠- أن كل ما علا يسمى سماء؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، والمطر لا ينزل من أجرام السموات، وإنما ينزل من طبقات الجو العليا.

١١- أن جميع أنواع النبات تحتاج إلى الماء؛ لقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

١٢- إثبات الأسباب؛ لأن إنزال الماء سبب خروج النبات.

١٣- أن الزرع والحبوب أهم النباتات؛ لأنه الغذاء الأول للناس؛ لهذا قدم في الآية.

١٤- أن من تمام نعمة الله تعالى كون قنوان النخل دانية التناول لا يتعسر جني ثمرها، سواء كانت من قصار النخل أو من طوالها؛ لما جعل الله فيها من المراقي التي تُسَهِّل صعودها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾.

١٥- أن ثمر النخل من أفضل وأهم الثمار، بل هو الغذاء الثاني بعد الحبوب؛ لهذا ذكر في الآية بعدها.

١٦- أن العنب من أفضل وأهم أنواع الفواكه؛ لهذا ذكر بعد النخل لكثرة منافعه.

١٧- أن من أفضل الأشجار وأعظمها نفعًا الزيتون، وكذا الرمان؛ لهذا ذكرهما الله عز وجل بعد النخل والعنب.

١٨- حكمة الله عز وجل في كون هذه النباتات والأشجار وثمارها متشابهة وغير متشابهة؛ لقوله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

١٩- ينبغي النظر بتفكر واعتبار في ثمر هذه النباتات والأشجار وأطواره ومراحل نموه حتى نضجه وينعه، والتأمل في بديع صنع الله تعالى، وعظيم خلقه، وكمال قدرته.

٢٠- أن في إنزال الماء من السماء، وإخراج أصناف النبات من الحبوب وثمار النخيل والأعناب والزيتون والرمان وغير ذلك؛ دلالات على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، ورحمته بعباده، وعنايته بهم، واستحقاقه وحده للعبادة دون سواه، وقدرته التامة على إحياء الناس وبعثهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٢١- أن الذين يستفيدون من الآيات وينتفعون بها هم المؤمنون دون غيرهم لأن إيمانهم يحملهم على التفكر والاعتبار بها؛ لقوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

٢٢- التعريض بغير المؤمنين بأنهم لا يستفيدون من الآيات؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ الآية؛ هذا ذم للمشركين، ورد عليهم في إشراكهم مع الله في العبادة، والضمير في «جعلوا» يعود إلى المشركين المكذبين للنبي ﷺ من قريش وغيرهم، والذين سبق الكلام عنهم في مواضع عدة من السورة.

و«جعل» هنا بمعنى «صير» تنصب مفعولين، ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بـ«جعلوا» وقدم على مفعوليها؛ للاهتمام والاستفظاع والتشديد في الذم والإنكار عليهم.

و«شركاء» مفعول ثان لـ«جعل» قُدِّم؛ لأنه محل التعجيب والإنكار.

و«الجن» مفعول أول، أي: صيروا لله الجن شركاء، أي: عبدوهم مع الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

وإشراكهم لله الجن من وجهين:

الأول: طاعتهم الشياطين والجن في أمرهم إياهم بالشرك بالله، وعبادة الأصنام، واتخاذ الأنداد والشركاء، كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١١٧-١٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ [يس: ٦٠-٦١]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾ [مريم: ٤٤].

والوجه الثاني: جعلهم الجن شركاء لله في عبادتهم باعتقادهم سلطة الجن والشياطين، وتعوذهم بهم، وتقديمهم لهم القرابين، وترك التسمية على بعض الذبائح تقربًا لهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] .

بل إن بعضًا من المشركين تأثر بما عليه المجوس من عبادة الشياطين فعبدوها.

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنه قد خلقهم، والضمير المنصوب في «خلقهم» يحتمل أن يعود إلى ضمير «جعلوا»، أي: إلى المشركين، أي: كيف يجعلون له شركاء وهو خالقهم؟! وكيف يعبدون غيره وهو المستحق وحده للعبادة؟! كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٧].

ويحتمل أن يكون الضمير في «خلقهم» عائدًا إلى الجن، أي: كيف يشركون الجن في العبادة مع الله وهم خلق من خلقه عز وجل؟!

ولا مانع من كون الضمير يعود إلى الجميع؛ العابدين وهم المشركون، وإلى المعبودين وهم الجن، فكلهم خلق لله تعالى، فيكون المعنى: والحال أنه قد خلقهم، وخلق شركاءهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦].

﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «وخرّقوا» بتشديد الراء، وقرأ الباقون ﴿وَخَرَقُواْ﴾ بتخفيفها.

والمعنى: واختلقوا وافتعلوا وائتفكوا ونسبوا له بنين وبنات، فجعل المشركون الملائكة إناثًا، وقالوا: هم بنات الله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

كما قال اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وقال النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بـ«خرقوا» والباء للملابسة، أي: بغير علم استندوا عليه، بل عن جهل وضلال وكذب وتخرص، وبغير علم بحقيقة ما يقولون، وعن جهل بالله تعالى وعظمته.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيه لنفسه عز وجل عما يصفه به الجهلة المشركون من الشركاء والأنداد والأولاد، و«سبحان» مصدر منصوب على أنه بدل من فعله، والتقدير: سبح لله سبحانًا.

و«سبحان» مضاف، وضمير الهاء مضاف إليه.

ومعنى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، أي: تنزه وتقدس، ﴿وَتَعَالَىٰ﴾، أي: ارتفع وتعاظم.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: عن الذي يصفونه به، أو عن وصفهم.

والمعنى: تنزه وتقدس وتعاظم عما يصفه به هؤلاء الجهلة الضالون المشركون؛ من الشركاء، والأنداد، والنظراء، والأولاد.

وفي هذا نفي لما وصفوه به، وإبطال لما زعموه، أي: أنه لا يتطرق إليه ذلك، فهو الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

نزه عز وجل نفسه وعظمها عما يصفه به الجهلة والمشركون؛ من الشركاء، والأنداد، والأولاد، ونفى ذلك وأبطله، ثم استدل على نفي ذلك وإبطاله، وعلل له بقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.

قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، «بديع» خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو بديع السموات والأرض، أي: مبدعها وخالقها ومنشئها على غير مثال سبق.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾، «أنى» اسم استفهام بمعنى: كيف، ومن أين؛ لتقرير تنزهه عن الولد، أي: كيف يكون له ولد، و«ولد» يشمل الذكر والأنثى.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنه لم تكن له صاحبة، و«الصاحبة»:

الزوجة؛ لأنها تصحب الزوج في معظم أحواله، أي: فيستحيل وجود الولد بلا زوجة، أي: بلا والدة.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، من عطف العام على الخاص، أي: وخلق كل موجود، فيشمل ذوات السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، ومن ذلك: الملائكة والجن، ممن عبدهم المشركون مع الله، فكيف يسوون المخلوق بخالقه؟! وكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدًا لخالقه؟! تعالى الله عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ذكر عز وجل تمام قدرته بقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم ذكر بعد ذلك عموم خلقه لكل شيء، ثم أتبع ذلك بذكر عموم علمه لكل شيء، في إشارة إلى الدليل العقلي في ثبوت تمام قدرته وكمال علمه، وهو هذه المخلوقات، وما اشتملت عليه من النظام البديع، والخلق الباهر، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بالخبر «عليم»، وقدم عليه؛ لتأكيد شمول علمه لكل شيء.

وأظهر في مقام الإضمار فقال: «بكل شيء» دون أن يقول: «به»؛ للتأكيد، ولتكون الجملة مستقلة الدلالة.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ

ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المشار إليه هو الموصوف بالصفات المضمنة بالأخبار السابقة، والمعنى: ذلكم المبدع للسموات والأرض، الذي لا يمكن أن يكون له ولد، الخالق لكل شيء، العليم بكل شيء؛ هو الله الذي تعلمونه.

وأشار إلى نفسه عز وجل بإشارة البعيد «ذلك»؛ تعظيمًا لنفسه، واسم الإشارة في محل رفع مبتدأ.

ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر، أي: الله المألوه المعبود بحقٍّ؛ محبة وتعظيمًا. ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبر ثان، أي: خالقكم ومالككم ومدبركم ومربيكم بنعمه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الجملة في محل رفع خبر ثالث للإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، و«لا» نافية، و«إلا» أداة حصر، أي: لا معبود بحق إلا هو. وهذا تكذيب للمشركين في جعلهم الجن شركاء لله.

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، «خالق» خبر رابع لـ«ذلكم»، وهو اسم فاعل، أي: خالق كل موجود.

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن كانت هذه صفات الله تعالى فاعبدوه وحده؛ لأن الربوبية تستلزم الإلهية.

والمعنى: فأخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، بالتذلل والخضوع له، وطاعته والانقياد لشرعه.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بالخبر «وكيل» وقدم عليه؛ لتأكيد عموم وكالته سبحانه على كل شيء.

ومعنى: ﴿وَكِيلٌ﴾، أي: حفيظ ورقيب على كل شيء، ومدبر له، فكل شيء تحت وكالته عز وجل، خلقًا وملكًا، وتدبيرًا، ورزقًا وكلاءة وحفظًا.

قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

تأكيد لتنزهه وتعاليه عن إفكهم أعظم تأكيد، ولوكالته ورقابته على كل شيء.

قوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، «لا» نافية، و«الإدراك» هنا بمعنى الإحاطة، أي: لا تحيط به الأبصار، أي: أنه يُرى ولا تحيط به الأبصار؛ لعظمة جلاله وكماله.

قال ابن القيم: «وقد قرر شيخنا- يعني ابن تيمية رحمهما الله- وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه، وقال لي: أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله، فمنها هذه الآية، وهي على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها، فإن الله سبحانه وتعالى إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال، ولا يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم، إلا إذا تضمن أمرًا وجوديًّا؛ كتمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن كمال القيومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة.. إلى أن قال: فلو كان المراد بقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أنه لا يرى بحال، لم يكن في ذلك مدح ولا كمال؛ لمشاركة المعدوم له في ذلك، فإن العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار.

والرب جل جلاله يتعالى أن يُمدح بما يشاركه فيه العدم المحض، فإن المعنى أنه يرى ولا يدرك، ولا يحاط به.

فقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ يدل على غاية عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية... فالرب تبارك وتعالى يرى ولا يدرك، ويعلم ولا يحاط به. وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية»[1].

﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ بين هذه الجملة والتي قبلها طباق، أي: وهو يحيط بالأبصار ويعلمها؛ لأن علمه عز وجل أحاط بالظواهر والبواطن، وسمعه وسع جميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصره أحاط بجميع المبصرات دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

قال ابن القيم[2]: «وتأمل حسن هذه المقابلة لفظًا ومعنى بين قوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٦٧).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٦٩-١٧٠).

﴿ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار، فلا تخفى عليه؛ فهو العظيم في لطفه، اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير».

وقال أيضًا: «ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل، وكشف عنه الحجاب شيئًا يسيرًا ساخ الجبل في الأرض وتدكدك، ولم يقم لربه تبارك وتعالى. وهذا معنى قول ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ قال: ذلك الله عز وجل، إذا تجلى بنوره لم يقم له شيء. وهذا من بديع فهمه رضي الله عنه، ودقيق فطنته...

فالرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عيانًا، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له، وإن رأته، فالإدراك أمر وراء الرؤية. وهذه الشمس- ولله المثل الأعلى- نراها ولا ندركها كما هي، ولا قريبًا من ذلك؛ ولذلك قال ابن عباس لمن سأله وأورد عليه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ فقال: ألست ترى السماء؟ قال: بلى. قال: أفتدركها؟ قال: لا. قال: فالله تعالى أعظم وأجل».

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾.

و«اللطيف» و«الخبير» اسمان من أسماء الله عز وجل، يدل «اللطيف» على دقة لطفه عز وجل، ويدل «الخبير» على دقة خبرته وسعة علمه، و«اللطيف» الذي يدرك الدقيق، و«الخبير» الذي يدرك الخفي.

و«اللطيف» أيضًا: المحسن إلى عباده، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

قال ابن القيم[1]:

وَهُـوَ اللّطِيـفُ بِعَبْـدِهِ وَلِعَبْـدِهِ ... وَاللّطْـفُ فِي أَوْصَـافِهِ نَوْعَـانِ

إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الأُمُـورِ بِحِكْمَـةٍ ... وَاللّطْـفُ عِنْـدَ مَوَاقِـعِ الإِحْسَـانِ

و«الخبير» المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فاطلاعه على ظواهر

---

(١) في «النونية» (ص١٤٩).

الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى، فهو أخص من «العليم».

الفوائد والأحكام:

١- ذم المشركين، والرد عليهم في جعلهم الجن شركاء لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾، أي: وقد خلقهم وآباءهم، فكيف يتركون عبادة خالقهم المستحق للعبادة وحده؟! وكيف يعبدون من دونه مخلوقًا مثلهم لا يملك نفعًا ولا ضرًّا؟!

٢- إشراك المشركين الجن مع الله في العبادة في طاعتهم لهم بعبادة الأصنام ونحو ذلك، وبتعظيمهم للجن، والاستعاذة بهم، وتقديم القرابين لهم، ونحو ذلك.

٣- إثبات وجود الجن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١].

٤- كذب المشركين، وافتراؤهم على الله في نسبة البنين والبنات له بغير علم، بل عن جهل وضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٥- تنزيه الله تعالى نفسه وتعظيمها عما وصفه به المشركون من شركاء الجن، ومن البنين والبنات، ونفي ما زعموه وإبطاله؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

٦- تأكيد نفي ما نسبه المشركون الجهلة لله من الشركاء والأنداد والأولاد، والاستدلال والتعليل لبطلان ذلك وإثبات كماله عز وجل وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

٧- إثبات تمام قدرة الله تعالى بإيجاده السموات والأرض على غير مثال سبق؛ لقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٨- الإنكار والتعجيب ممن يزعمون نسبة الولد له، والتكذيب لهم إذ يستحيل أن يوجد ولد من غير زوجة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾.

٩- تنزيه الله تعالى نفسه عن الصاحبة، كما نزه نفسه عن الولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٣].

١٠- ارتباط المسببات بأسبابها الكونية، فوجود الولد جعله الله كونًا بسبب اقتران الزوجين، إلا ما كان من معجزة خلق الله تعالى لعيسى عليه السلام؛ حيث خلق من أم بلا أب، كما خلق تعالى آدم من تراب.

١١- إثبات خلق الله عز وجل لكل شيء، وكمال قدرته وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

١٢- إثبات سعة علم الله عز وجل وإحاطته بكل شيء؛ لقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٣- أن الدليل العقلي في إثبات تمام قدرة الله تعالى وكمال علمه هو هذه المخلوقات العظيمة، والسموات والأرض، وغيرها من جميع المخلوقات؛ لأن الله تعالى ذكر بديع صنعه السموات والأرض الدال على كمال قدرته، ثم ذكر عموم خلقه لكل شيء، ثم أتبع ذلك بذكر عموم علمه لكل شيء.

١٤- تعظيم الله تعالى لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾.

١٥- أن المستحق للعبادة وحده هو الموصوف بالصفات المذكورة بقوله: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٦- إثبات الإلهية لله عز وجل وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

١٧- إثبات تفرده عز وجل بالإلهية، كما تفرد بالربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وفي هذا تكذيب للمشركين في جعلهم الجن شركاء لله.

١٨- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾.

١٩- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية؛ لأن الله ذكر إبداعه خلق السموات والأرض، وخلقه لكل شيء، وعموم ربوبيته لهم، ثم أتبع ذلك بأمرهم بعبادته.

٢٠- إثبات وكالته عز وجل ورقابته على كل شيء، مما يوجب الالتجاء إليه وحده ومراقبته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

٢١- نفي إحاطة الأبصار به عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، أي: أنه سبحانه يُرى ولكن لا تحيط به الأبصار.

٢٢- دلت الآية بمفهومها على إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة،؛ لأن نفي الإدراك- الذي هو أخص أوصاف الرؤية- يدل على أن الرؤية ثابتة، فلو أراد نفي

الرؤية لقال: «لا تراه الأبصار».

وعلى هذا فليس في الآية حجة لمذهب المعطلة والمعتزلة، الذين ينفون رؤية الله عز وجل في الآخرة، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى في الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]، وقال ﷺ: «**إنكم سترون ربّكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر، لا تُضامُّون في رؤيته**»[١].

أما في الدنيا فالإجماع على أنه تعالى لا يرى في الدنيا، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب. ثم قرأت: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ**﴾، ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ**﴾ [الشورى: ٥١]»[٢].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ، هل رأيت ربك؟ قال: «**نورٌ أنّى أراه؟**»[٣].

٢٣- إحاطة الله تعالى بالأبصار، وعلمه بها، وإحاطته بكل شيء علمًا وسمعًا وبصرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

٢٤- إثبات اسم الله تعالى «اللطيف»، وما يدل عليه من صفة اللطف بعباده، والإحسان إليهم، ومن صفة اللطف بإدراك دقائق الأمور.

٢٥- إثبات اسم الله «الخبير» وما يدل عليه من سعة خبرته عز وجل بإدراك بواطن الأمور وخفياتها.

* * *

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٤)، ومسلم في المساجد (٦٣٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٢٩)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥١)، وابن ماجه في المقدمة (١٧٧)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥٥)، ومسلم في الإيمان (١٧٧)، والترمذي في التفسير (٣٠٦٨).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٨)، والترمذي في التفسير (٣٢٨٢).

قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾، «قد» حرف تحقيق، والخطاب عام لجميع الناس، أي: قل يا محمد: قد جاءكم بصائر من ربكم، و«بصائر» جمع «بصيرة»، و«البصيرة» العقل الذي تدرك به المعاني والحقائق، كما أن البصر إدراك العين الذي تتجلى به الأجسام.

وتطلق «البصيرة» على ما هو سبب فيها، وهو المراد هنا، أي: قد جاءكم آيات بينات، ودلائل ظاهرة، وبراهين ساطعات، وحجج واضحات، فيها بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والإيمان من الكفر، وإقامة الحجة، فلا عذر لمن استمر منكم على الضلال.

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ متعلق بمحذوف صفة لـ«بصائر»، أي: نازلة من ربكم، فيما أوحاه إلى رسوله ﷺ في الكتاب والسنة.

وفي هذا تعظيم لها؛ لأنها من عند ربهم العظيم، وحث على التفكر فيها، والانتفاع بها؛ لأنها من عند ربهم ذي الإنعام عليهم والعناية بهم.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الفاء عاطفة، و«من» شرطية، ﴿أَبْصَرَ﴾ فعل الشرط ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، أي: فلنفسه أبصر، لا لغيره؛ لأن نفع ذلك عائد إليه، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥].

والمعنى: فمن تفكر في هذه البصائر، وأبصر الحق وعرفه، واتبعه وعمل به؛ فمنفعة ذلك لنفسه.

﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ جملة شرطية كالتي قبلها معطوفة عليها، أي: ومن عمي قلبه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦] والمعنى: ومن عمي قلبه عن التفكر والاعتبار بهذه البصائر، وعمي عن الحق، وكابر واستمر على الضلال، فضرر ذلك عائد على نفسه لا على غيره، كما قال تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

وبين «بصائر» و«أبصر» جناس اشتقاق، وبين «أبصر» و﴿عَمِيَ﴾، وبين «اللام» و«على»؛ طباق.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ﴾، ﴿عَلَيْكُم﴾ متعلق ﴿بِحَفِيظٍ﴾ وقدم للاهتمام ومراعاة الفاصلة.

والمعنى: وما أنا عليكم برقيب أحفظ أعمالكم وأقوالكم، وأحصيها عليكم، أو ألزمكم اتباعي، وإنما أنا مبلغ عن الله تعالى رسالته إليكم، وهو سبحانه الحفيظ عليكم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾، «الكاف» للتشبيه بمعنى «مثل» والإشارة لما سبق في الآيات، أو في السورة كلها، أو في القرآن كله.

أي: مثل تصريفنا الآيات في هذه السورة من بيان التوحيد، وإبطال الشرك، ونفي الشركاء والأنداد، والصاحبة والأولاد، وبيان الحق، مثل ذلك نصرف غيرها من الآيات، أو مثل تصريفنا للآيات كلها نصرف الآيات في هذه السورة.

ومعنى: ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾، أي: نبينها ونتوعها. والمراد بالآيات هنا الآيات الشرعية المنزلة من عند الله تعالى، والتي فيها البيان والتنبيه للآيات الكونية.

﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «دارسْت» بألف بعد الدال، وإسكان السين، أي: قارأت يا محمد أهل الكتاب، أي: قرأت عليهم وقرؤوا عليك، أو قارأتهم وخاصمتهم وجادلتهم. وقرأ ابن عامر ويعقوب «دَرَسَتْ» بغير ألف، وفتح السين، وإسكان التاء، أي: انمحت وتقادمت وتكررت، أي: هذا الذي تتلوه علينا قد مر بنا قديمًا وتطاولت مدته.

وقرأ الباقون: ﴿دَرَسۡتَ﴾ بغير ألف، مع إسكان السين، وفتح التاء، أي: قرأت وتعلمت يا محمد على أهل الكتاب أو غيرهم.

ومرادهم على القراءات الثلاث أن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو من كلام البشر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٤-٥]، كما قال الوليد بن المغيرة: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤-٢٥].

واللام في ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ للتعليل، أي: ولأجل أن يقولوا: درست، أي: لأجل الابتلاء والامتحان لهم؛ ليقولوا هذا.

ويحتمل كون اللام لام العاقبة والصيرورة، أي: لتكون العاقبة أن يقولوا كذا؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، أي: لتكون العاقبة أن يكون لهم عدوًا وحزنًا.

و«الدراسة»: القراءة بتمهل للحفظ أو للفهم.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ الواو عاطفة، واللام للتعليل، أي: ولأجل أن نبينه ونوضحه ونفصله. والضمير يعود إلى القرآن؛ لأنه معلوم من السياق.

﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: لقوم ينتفعون بعلمهم، ويستفيدون من تصريف الآيات وبيان القرآن معرفة الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه، وهم المؤمنون، كما قال تعالى قبل هذا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

ولله تعالى الحكمة البالغة، والحجة الدامغة في تصريف الآيات وبيان القرآن؛ إقامة للحجة، وإعذارًا وإنذارًا، وابتلاءً واختبارًا، قال تعالى: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]،

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة طعن من طعن في رسالته ونبوته بقولهم: ﴿دَرَسْتَ﴾ ثم أتبع ذلك بأمره باتباع ما أوحي إليه من ربه، والثبات على ذلك، والإعراض عن المشركين، وعدم المبالاة بهم وبما هم عليه من الشرك والكيد له ﷺ ولدعوته، وفي هذا تسلية له ﷺ وتقوية لقلبه.

قوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، و«ما» موصولة، أي: اتبع الذي أوحي إليك من ربك في القرآن والسنة، أي: اقتد به، واتبع أثره، واعمل به، فهو الحق الذي لا مرية فيه؛ لأنه من ربك عز وجل.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فيه إشعار له ﷺ بعناية الله تعالى به، وإشارة إلى ربوبيته عز وجل له الربوبية الخاصة بأوليائه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الجملة معترضة بين قوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لتأكيد أن ما أوحي إليه من ربه هو الحق الذي لا مرية فيه، وتقرير كمال ألوهيته ووحدانيته عز وجل، وإغاظة المشركين.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معطوفة على جملة: ﴿ٱتَّبِعْ﴾، أي: أعرض عن مكابرتهم وعنادهم، ولا تبال بهم وبأقاويلهم الباطلة، واحتمل أذاهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨] وليس المراد الإعراض عن دعوتهم وموعظتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالإعراض عن المشركين، ثم بين له أن لله تعالى الحكمة في إضلالهم، فلو شاء ما أشركوا، وأنه لا تبعة عليه ﷺ في إعراضهم؛ لأن الله لم يجعله عليهم حفيظًا، وما هو ﷺ عليهم بوكيل. وفي هذا تسلية له ﷺ، وطمأنة لقلبه، وتقوية له.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ مفعول «شاء» محذوف، تقديره: ولو شاء الله إيمانهم.

والمعنى: ولو أراد الله تعالى كونًا إيمانهم وعدم إشراكهم ﴿مَآ أَشْرَكُوا۟﴾، أي: ما وقع منهم الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ولله الحكمة البالغة في ذلك كله يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ الواو عاطفة، و«ما» نافية، و«جعل» بمعنى «صير» تنصب مفعولين: الأول: كاف الخطاب، والثاني: «حفيظًا»، والخطاب للنبي ﷺ، أي: وما صيرناك يا محمد على هؤلاء المشركين رقيبًا تحفظ أعمالهم وأقوالهم، وتحصيها عليهم، أو تكرههم على الإسلام، وإنما أنت مبلغ عن الله تعالى، وقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، فلا يهمنك إعراضهم، ولا تكترث بهم.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ الواو عاطفة، «ما» نافية، ﴿عَلَيْهِم﴾ متعلق بـ«وكيل» وقدم عليه؛ لتأكيد نفي وكالته عليهم، و«الوكيل» الذي يعتمد عليه في تدبير الأمور التي وكل فيها.

والمعنى: ولست عليهم بوكيل تتولاهم، وتدبر أمورهم، وتلزمهم اتباعك. وفي هذا تسلية له ﷺ، وتقوية لقلبه، وطمأنة له، أي: لا تحزن، ولا تكن في ضيق؛ لضلال من ضل منهم، فلم يجعلك الله على أعمالهم حفيظًا، ولست عليهم بوكيل تدبر أمورهم، أو تلزمهم اتباع الحق.

وفيه إشارة إلى أن مهمته ﷺ البلاغ، كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١-٢١]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: ٤٠].

الفوائد والأحكام:

١- إقامة الحجة على الخلق، والامتنان عليهم بما جاءهم من بصائر وآيات

وبراهين من ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٣- أن من أبصر وتفكر في آيات الله الشرعية والكونية، وعرف الحق واتبعه؛ فلنفسه أبصر، ومنفعة ذلك له؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾.

٤- أن من عمي عن التفكر والاعتبار في آيات الله وما فيها من البصائر والبراهين وعمي عن الحق وكابر بالاستمرار على الضلال فلا يضر إلا نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾.

٥- الترغيب في التفكر في آيات الله، والتحذير من العمى والإعراض عنها.

٦- العدل في مجازاة الناس، فكل يجزى بعمله، ولا تزر وازرة وزر أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾.

٧- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله تعالى وليس برقيب على الناس، يحفظ أعمالهم وأقوالهم، ويحصيها عليهم، أو يلزمهم اتباعه، ولم يجعله الله كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

٨- تكذيب المشركين للنبي ﷺ، ولما جاء به من عند الله؛ لقولهم: ﴿دَرَسْتَ﴾، أي: قرأت وتعلمت من أهل الكتاب.

٩- أن في تصريف الآيات ابتلاءً واختبارًا للمكذبين؛ لقوله: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾.

١٠- امتنان الله تعالى على العباد بتصريف الآيات وتنويعها، وبيان القرآن؛ لما في ذلك من إظهار الحق وبيانه، وإبطال الباطل وإزهاقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾، وقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾.

١١- تماثل تصريف الآيات وبيانها وتنويعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾، أي: مثل ما صرفنا الآيات في هذه السورة نصرف غيرها من الآيات، أو مثل ما صرفنا الآيات كلها نصرف الآيات في هذه السورة.

١٢- أنه إنما ينتفع بتصريف الآيات وبيان القرآن أهل العلم الذين ينتفعون

بعلمهم، فيعرفون بذلك الحق ويتبعونه؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وفي هذا تعريض بأهل الجهل؛ لأن جهلهم لا يزيدهم إلا ضلالًا، كما أن فيه تعريضًا بالمشركين بأنهم لا يعلمون.

١٣- تقوية قلب النبي ﷺ بأمره باتباع الذي أوحي إليه من ربه، والثبات عليه؛ لأنه الحق؛ لقوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٤- أن ما جاء به ﷺ من الشرع هو مما أوحاه الله تعالى إليه في القرآن والسنة؛ لقوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣-٤].

١٥- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ، وخطابه له، وربوبية الله تعالى له الربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، وقوله: ﴿جَعَلْنَٰكَ﴾، ﴿وَمَآ أَنتَ﴾.

١٦- تقرير تفرده عز وجل بالألوهية والوحدانية وتأكيد أن ما أوحاه إلى رسوله ﷺ هو الحق، وإغاظة المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٧- تسليته ﷺ بأمره بالإعراض عن المشركين، وعدم المبالاة بهم، وما هم عليه من الكيد له ﷺ ولدعوته، وأنه تعالى لو شاء ما أشركوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾.

١٨- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾.

١٩- لا شيء يحصل في الكون؛ من شرك، أو إيمان، أو غير ذلك من الأمور الحسية والمعنوية إلا بمشيئة الله تعالى وتقديره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾.

٢٠- أن الرسول ﷺ ليس بوكيل على المشركين يتولاهم ويدبر أمورهم، أو يلزمهم اتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وإنما هو مبلغ عن الله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

سبب النـزول:

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: «قالوا: يا محمد، لتنتهين عن سب آلهتنا، أو لنهجون ربك؛ فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾».

وعن قتادة قال: «كان المسلمون يسبون أوثان الكفار، فيردون ذلك عليهم، فنهاهم الله أن يستسبوا لربهم»(١).

قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» ناهية. والخطاب للمؤمنين.

والسب: الشتم والذم والتعيير، والتحقير والتنقص للمسبوب، بحق أو بباطل.

﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: الآلهة التي يدعوها المشركون من دون الله، أي: غير الله، دعاء عبادة، أو دعاء مسألة.

وفي قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ وفي ضمير الواو في ﴿يَدْعُونَ﴾ تغليب لجانب العالم؛ إما نظرًا لاعتقادهم في هذه المعبودات النفع والضر، فأجريت مجرى العالم، أو لأن مِن بينها مَن يوصف بالعلم؛ كالملائكة والمسيح وعزير.

﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جواب النهي. والفاء للسببية. قرأ ابن كثير في رواية: ﴿عَدُوًّا﴾ بضم الدال وتشديد الواو، وقرأ يعقوب ﴿عُدُوًّا﴾ بضم العين والدال وتشديد الواو، وقرأ الباقون بفتح العين وإسكان الدال وتخفيف الواو ﴿عَدْوًا﴾.

و﴿عَدْوًا﴾ حال مؤكدة، أو مفعول مطلق نائب عن المصدر، أو مفعول لأجله، أي: فيسبوا الله عدوانًا وظلمًا. وفي هذا تعريض بأن سب المؤمنين لآلهة المشركين ليس من الاعتداء.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بغير علم منهم بما ينبغي له عز وجل من التعظيم والإجلال،

(١) أخرجهما الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٦٦).

وعن جهل منهم بعظم جرم سبه عز وجل.

فنهى الله عز وجل المؤمنين عن سب آلهة المشركين حتى لا يؤدي ذلك إلى سب المشركين الله عدوًا بغير علم. وهذا من باب سد الذرائع.

قال السعدي رحمه الله[١]: «وفي هذه الآية دليل للقاعدة الشرعية، وهو أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم، ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلى الشر».

ولهذا قال ﷺ كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**»[٢].

وفي رواية: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**» قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه**»[٣].

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ الكاف: للتشبيه، بمعنى «مثل».

والإشارة إلى ما سبق من دعائهم غير الله، وسبهم لله عدوًا بغير علم، أي: مثل تزييننا لهؤلاء دعاءهم من دون الله، وسبهم لله عدوًا بغير علم، زينا لكل أمة عملهم.

والتزيين: التحسين، فمعنى زيّنا لكل أمة عملهم، أي: حسَّنا لكل أمة من الأمم، وكل جماعة من الناس عملهم، طاعة كان أو معصية، كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «زينا لأهل الطاعة الطاعة، ولأهل الكفر الكفر»[٤].

فالتزيين منه ما هو كوني، ومنه ما هو شرعي، فمن آمن وأطاع الله عز وجل فهو ممن زُين له الإيمان والطاعة شرعًا كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

---

(١) في «تيسر الكريم الرحمن» (٢/ ٤٥٤-٤٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٠)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٢).

(٣) أخرجها البخاري في الأدب (٥٩٧٣)، وأبوداود في الأدب (٥١٤١).

(٤) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٦١).

ومن كفر وعصى الله عز وجل فهو ممن زُين له الكفر والمعصية كونًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [النمل: ٤].

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم﴾ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

﴿مَّرْجِعُهُمْ﴾، أي: مردهم ومعادهم ومصيرهم بالبعث بعد الموت.

وقدّم الخبر وهو قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم﴾؛ لإفادة الحصر، أي: إلى ربهم وحده مرجعهم ومصيرهم، لا إلى سواه.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فيخبرهم، والنبأ: الخبر الهام العظيم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: فيخبرهم بالذي كانوا يعملون أو بعملهم في الدنيا، ويحاسبهم ويجازيهم عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

الفوائد والأحكام:

١- النهي عن سب آلهة المشركين التي يدعونها من دون الله؛ لما يتسبب عن ذلك من مسبة المشركين لله، عدوانًا بغير علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٢- سد الذرائع المؤدية إلى الشر، وأن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح، فإذا ترتب على فعل ما فيه مصلحة أو ما هو جائز مفسدة أكبر أو فعل ما لا يجوز؛ وجب ترك ذلك الفعل.

٣- التعريض بذم آلهة المشركين، وأن سبها في الأصل جائز؛ لأنها لا حرمة لها، ولا تنفع ولا تضر، بل ضرها أقرب من نفعها، لكن نُهي عن سبها؛ لئلا يؤدي إلى سب المشركين لله عز وجل.

٤- تحريم سب الله عز وجل وأنه كفر، لا يجترئ عليه إلا أهل الكفر والشرك والعدوان والظلم، والجهل بما ينبغي لله عز وجل من التذلل والخضوع والتعظيم

والإجلال.

٥- إثبات العظمة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا﴾ بضمير العظمة وهو العظيم سبحانه وتعالى.

٦- كما زين عز وجل كونًا وقدرًا لهؤلاء المشركين دعاء غير الله، وسب الله، زين لكل أمة من الأمم وكل جماعة من الناس عملهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، أي: زينا شرعًا الإيمان والطاعة للمؤمنين، وزينا كونًا الكفر والمعصية للكافرين والعاصين.

٧- إثبات تقدير الله عز وجل للأعمال كلها، خيرها وشرها، وفي هذا رد على القدرية الذين ينفون تقدير الله عز وجل لأعمال العباد.

٨- إثبات البعث والمعاد وتأكيد مرجع جميع الخلائق ومصيرهم إلى ربهم وحده؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾.

٩- إخبار الله عز وجل للخلائق بجميع أعمالهم خيرها وشرها، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا وعد لمن آمن وأطاع الله، ووعيد لمن كفر وخالف أمر الله عز وجل.

١٠- علم الله عز وجل المحيط بالخلق وأعمالهم؛ لقوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

١١- إثبات قاعدة من القواعد الشرعية، وهي قاعدة «سد الذرائع»، فإذا كان سب آلهة المشركين- وهو في الأصل جائز، بل مشروع للتحذير منها- إذا كان يؤدي إلى سب المشركين لله تعالى حرم سب آلهتهم؛ لأنه يفضي إلى مفسدة أكبر من المصلحة في سب آلهتهم، وهذه المفسدة هي سب المشركين لله، تعالى الله وتقدس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

قال ابن القيم[1]: «فحرم الله تعالى سب آلهة المشركين- مع كون السب غيظًا، وحمية لله تعالى، وإهانة لآلهتهم- لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبَّته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه، بل كالتصريح على المنع من

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٧٠).

الجائز؛ لئلا يكون سببًا في فعل ما لا يجوز».

فإذا كان فعل المأمور- كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- يؤدي إلى مفسدة أكبر من مصلحة فعل ذلك المأمور؛ وجب ترك المأمور سدًّا للذريعة؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح خاصة إذا كانت المفسدة المترتبة على فعل المأمور تفوق المصلحة المترتبة على تركه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، أي: وأقسم المشركون المكذبون للرسول ﷺ بالله، أي: حلفوا بالله.

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، «جهد» مفعول مطلق، أو مصدر في موضع الحال، أي: مجتهدين أو جاهدين، و«الجهد» بذل الجهد والوسع والطاقة، «أيمانهم» جمع «يمين»، أي: وحلفوا بالله غاية أيمانهم ونهايتها، أي: الأيمان المؤكدة المغلظة.

﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: والله لئن جاءتهم آية، أي: خارق للعادة ومعجزة تدل على صدق النبي ﷺ غير القرآن، بل مما اقترحوه من الآيات؛ كقولهم: اجعل لنا الصفا ذهبًا، وغير ذلك، مثل آية صالح، وآية عيسى عليهما السلام.

ونكرت «آية» للتعميم، أي: أي آية كانت ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله ليؤمنن بها، أي: ليصدقنها. وهذا من تعليلاتهم؛ للتمادي على الكفر بعدما جاءهم في القرآن الكريم من الآيات الظاهرة، والدلائل الواضحة، والحجج الدامغة الدالة على صدق رسالته ﷺ، وأن ما جاء به حق لا مرية فيه مما لا مزيد عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٤-٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك آية، تعنتًا وكفرًا وعنادًا، لا على سبيل الاسترشاد.

﴿إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، «إنما» أداة حصر، أي: إنما الآيات عند الله تعالى وحده،

فهو القادر وحده على الإتيان بها، يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، إن شاء أجابكم، وإن شاء ترككم.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وخلف وأبو بكر في رواية عن عاصم بكسر همزة: ﴿إِنَّهَآ﴾ على الاستئناف، وقرأ الباقون بفتحها ﴿أَنَّهَآ﴾ على أنها مفعول ثان لـ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾.

كما قرأ ابن عامر وحمزة وخلف: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بتاء الخطاب على أن الخطاب في قوله: ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ للمشركين، وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ على أن الخطاب في ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ للرسول ﷺ والمؤمنين.

وعلى كون الخطاب في الآية للرسول والمؤمنين- وهو المناسب لقراءة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بياء الغيبة- يكون الاستفهام؛ لتحقيق ذلك عند المؤمنين، ويترجح كون جملة ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ كلامًا مستقلًا وَجّهه الله عز وجل إلى المؤمنين، وليس مما أمر الرسول ﷺ أن يقوله بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، والتقدير على قراءة كسر همزة «إنها»، أي: وما يشعركم أيها المؤمنون ما يكون منهم، أي: وما يدريكم، وما يعلمكم.

ثم أخبر عن علمه فيهم فقال: «إنها إذا جاءت» يعني الآية ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا يصدقون، ولا يحصل منهم ما أقسموا عليه من الإيمان بالآية إذا جاءتهم، فهي استئناف إخبار بعدم إيمان من طبع على قلبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

أما على قراءة فتح الهمزة «أنها» فيحتمل أن تكون «أن» بمعنى «لعل»، أي: وما يشعركم أيها المؤمنون لعلها إذا جاءت لا يؤمنون؛ كما في قول عدي بن زيد العبادي[1]:

أَعَاذِلَ مَا يُدْرِيكَ أَنَّ مَنِيَّتِي ... إِلَى سَاعَةٍ فِي اليَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الغَدِ

أي: لعل منيتي.

وقول دريد بن الصمة:

(١) انظر: «ديوانه» (ص١٠٣).

ذَرِينِي أُطَوِّفْ فِي الْبِلَادِ لَأَنَّنِي ... أَرَى مَا تَرَيْنَ أَوْ بَخِيلًا مُخَلَّدًا[(١)]

أي: لعلي.

ويحتمل أن المعنى: وما يشعركم، وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، أي: أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وأنتم أيها المؤمنون لا تدرون ذلك.

وقال بعضهم: «لا» صلة، أي: زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى، ويكون التقدير: وما يشعركم أيها المؤمنون أنها إذا جاءت يؤمنون. والمعنى على هذا: أنها لو جاءت لم يؤمنوا؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥]، أي: أن تسجد، وقيل غير ذلك.

وعلى كون الخطاب في «يشعركم» للمشركين- وهو المناسب لقراءة «تؤمنون» بتاء الخطاب- يكون المعنى: وما يدريكم بصدقكم بهذه الأيمان التي تقسمون بها، ثم استأنف فقال: «إنها إذا جاءت لا تؤمنون» وعلى هذا يترجح أن تكون جملة ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ مما أمر الرسول ﷺ أن يقوله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾، أي: من جملة مقول القول، والاستفهام على هذا للإنكار والتوبيخ للمشركين.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾.

في هذه الآية تأكيد لعدم إيمانهم في الآيات في ثاني الحال عقوبة لهم على كفرهم بها أول مرة.

قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ الواو استئنافية، وتكلم عز وجل عن نفسه بضمير الجمع ضمير العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى، و«التقليب» تحويل الشيء.

﴿أَفْئِدَتَهُمْ﴾، «أفئدة» جمع «فؤاد» وهي القلوب، وتقليب الأفئدة والقلوب وتحويلها عن وجهها الذي فيه تعي وتعقل، وتتفكر وتتدبر الآيات إلى كونها لا تعي ولا تعقل، ولا تتفكر ولا تتدبر، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٨٨)، «الأصمعيات» (ص١١٣).

[الحج: ٤٦].

﴿وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾، أي: ونقلب أبصارهم ونزيغها عن وجهها الذي فيه تبصر الآيات وتشاهدها وتنتفع بها، إلى كونها لا تبصر ولا تشاهد ولا تنتفع بها أبصرت وشاهدت، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والمعنى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾، أي: نحول بين قلوبهم وبين معرفة الحق والإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨].

ونحول بين أبصارهم وبين رؤية الآيات والنظر فيها والاستفادة منها، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

أي: نقلب قلوبهم وأبصارهم- وهما أعظم وسيلتين لوصول الهدى إليهم- فلا يهتدون، ولا يؤمنون. وقدّم الأفئدة على الأبصار؛ لأن القلب هو محل الصلاح، وهو أمير الجوارح.

﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الكاف للتشبيه، و«ما» مصدرية، والضمير في «به» يعود إلى القرآن، وهو معلوم من السياق، أي: تقليبًا مثل ما لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة جاءهم.

والمعنى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم، ونحول بينهم وبين الإيمان؛ عقوبة لهم؛ لعدم إيمانهم بالقرآن أول مرة جاءهم، فتضمنت كاف التشبيه نوعًا من التعليل؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقد استحسن هذا ابن القيم فقال: «وهذا معنى حسن، فإن كاف التشبيه تتضمن نوعًا من التعليل».

وقال أيضًا: «فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم، فلم يهتدوا له».

وقال أيضًا: «فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك».

وقال أيضًا: «والذي حسّن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر»[١].

وهذا هو الأظهر في معنى الآية، فحيل بينهم وبين الإيمان في ثاني الحال؛ لعدم إيمانهم أول مرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين: ١٤].

وقيل: المعنى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم، فنحول بينهم وبين الإيمان بالآيات، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة، فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية؛ ولهذا كان النبي ﷺ يكثر أن يدعو بهذا الدعاء: «**يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»، قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله، دعوة كثيرًا ما تدعو بها، قال: «**إنّه ليس من عبدٍ إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه**»[٢].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء**»[٣].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرّحمن كقلبٍ واحدٍ، يصرّفه كيف يشاء**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللّهمّ يا مصرّف القلوب صرّف قلوبنا على طاعتك**»[٤].

﴿وَنَذَرُهُمۡ﴾ نتركهم وندعهم.

﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ الطغيان: مجاوزة الحد، أي: في كفرهم وتماديهم في الغي والضلال والمكابرة والعناد.

﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يتحيرون ويترددون ويتمادون، ولا يهتدون إلى الحق.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٧١-١٧٢).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٩١).

(٣) أخرجه الترمذي في القدر، ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٢١٤٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٤)، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٤) أخرجه مسلم في القدر، تصريف الله القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

نفى عز وجل في الآيتين السابقتين إيمان هؤلاء المكذبين المعاندين، ثم بين في هذه الآية استحالة إيمانهم مهما جاءهم من الآيات، إلا أن يشاء الله ذلك.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الواو استئنافية، أي: ولو أننا نزلنا إلى هؤلاء المقسمين بقولهم: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ﴾ الملائكة حتى رأوهم عيانًا وأخبروهم بالرسالة من الله بصدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله كما اقترحوا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: ٩٢].

﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بإحياء الله لهم، وتكليمهم لهؤلاء المكذبين بصدقه ﷺ فيما جاء به من الوحي وتقرير البعث، كما قالوا: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الدخان: ٣٦].

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾، «الحشر» الجمع، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٧]، أي: جمعوا له، ومعنى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾، أي: وجمعنا عليهم، وسقنا إليهم كل شيء من الحيوانات والنباتات والجمادات وغير ذلك، أو مما سألوه، أو من خوارق العادات والآيات.

﴿قُبُلًا﴾ حال، قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: «قِبَلًا» بكسر القاف وفتح الباء، أي: مقابلة ومواجهة ومعاينة، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت للنبي ﷺ: أنبيًّا كان آدم؟ فقال: «**نعم كان نبيًّا كلّمه الله قِبَلًا**»[1].

وقرأ الباقون: ﴿قُبُلًا﴾ بضم القاف والباء، أي: مقابلة ومواجهة ومعاينة، أو هي

(١) أخرجه أحمد من حديث طويل عن أبي أمامة رضي الله عنه (٥/ ٢٦٥-٢٦٦) وهو حديث ضعيف عند عامة أهل العلم.

جمع «قبيل»، أي: وحشرنا عليهم كل شيء قبيلًا قبيلًا، وصنفًا صنفًا، وأفواجًا أفواجًا.

أي: وجمعنا عليهم كل شيء قبلا، فأخبروهم بصدقه ﷺ.

وقال بعضهم معنى «قبلًا»، أي: ضمناء وكفلاء يضمنون ويكفلون لهم ما وعدوا به على ألسن الرسل إن هم آمنوا، وما تُوعِّدوا به إن هم كفروا.

﴿مَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾، «ما» نافية، واللام في ﴿لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ للتوكيد، وهذا أبلغ من لو قال: «لا يؤمنون»، أي: ما كانوا ليؤمنوا؛ لغلوهم في التمرد والطغيان وأسباب الشقاء.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي: إلا أن يشاء الله إيمانهم، أي: إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته أن يؤمنوا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ الواو عاطفة، و«لكن» حرف استدراك، أي: ولكن أكثر هؤلاء المكذبين يجهلون أنهم مهما أوتوا من الآيات فلن يؤمنوا إلا أن يشاء الله، وأن الإيمان بمشيئة الله تعالى، لا بخوارق العادات، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام المشركين المكذبين الأيمان المؤكدة؛ تعليلًا لتماديهم في الكفر لئن جاءتهم آية ليؤمنون بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾.

٢- أن المشركين يقسمون بالله ويعظمونه، لكن ذلك لا ينفعهم مع شركهم بالله تعالى.

٣- تعنت المشركين وعنادهم في اقتراحهم وطلبهم الآيات، مع ما جاءهم في القرآن الكريم من الآيات الواضحة، والدلائل الظاهرة، والحجج الدامغة الدالة على صدق النبي ﷺ.

٤- أن القادر على إرسال الآيات أو منعها هو الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٥- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾.

٦- نفي إيمان هؤلاء المكذبين المقترحين للآيات، حتى ولو جاءتهم كل آية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٧- أن المؤمنين لا يدرون، ولا يعلمون بعدم إيمان هؤلاء المعاندين، ولو جاءتهم كل آية، بل هؤلاء المعاندون أنفسهم لا يعلمون أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أو. «لا تؤمنون»

٨- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لتكلمه عن نفسه بضمير الجمع ﴿وَنُقَلِّبُ﴾، ﴿نَزَّلْنَآ﴾، ﴿وَحَشَرْنَا﴾ وبالإظهار بدل الإضمار في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٩- أن الله قد يحول بين المرء وقلبه، فيحول بينه وبين الإيمان، فلا يعي قلبه، ولا يتفكر، ولا يتدبر الحق ولا الآيات، ولا يرى بصره الآيات، ولا ينتفع بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾.

١٠- ينبغي سؤال الله ثبات القلب على الدين والحق، ورؤية البصر ومشاهدته للآيات، والانتفاع بذلك، وقد كان ﷺ يكثر من الدعاء بقوله: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[1].

١١- أن القلب هو أمير الأعضاء وأفضلها؛ لهذا قدم على البصر في قوله: ﴿أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾.

١٢- أن الأفئدة والأبصار هي أهم وسائل معرفة الإنسان للحق ووصوله إليه.

١٣- أن الكفر سبب للكفر بعده، والمعصية سبب للمعصية بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

١٤- إمهال الله للكافرين، وتركهم يتمادون في طغيانهم، ويترددون في عماهم وحيرتهم؛ عقوبة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

١٥- استحالة إيمان هؤلاء المذكورين مهما جاءهم من الآيات التي اقترحوها؛ من تنزيل الملائكة عليهم، وإحياء الموتى لهم، وحشر كل شيء عليهم قبلًا، إلا أن يشاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا

(١) سبق تخريجه.

كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

١٦- أن كل شيء إنما يكون بمشيئة الله تعالى، حتى الإيمان والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وفي هذا رد على المعتزلة.

١٧- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَآ﴾.

١٨- إثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

١٩- قدرة الله تعالى التامة على إحياء الموتى، وجعلهم يتكلمون، وحشر كل شيء من المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾.

٢٠- جهل هؤلاء المكذبين أنهم مهما أوتوا من الآيات فلن يؤمنوا إلا أن يشاء الله، وجهلهم أن الإيمان بمشيئة الله تعالى لا بخوارق العادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

٢١- في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فتح باب الأمل للمسلمين بأنه قد يؤمن هؤلاء أو بعضهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة تكذيب المشركين له ﷺ، وتمردهم، وطغيانهم، وشدة مخالفتهم له، ثم أتبع ذلك ببيان أنه كما ابتلاه بأن جعل له أعداءً يخالفونه فقد جعل لكل نبي من الأنبياء قبله أعداء، وفي هذا تسلية له ﷺ؛ لأن الابتلاء والمصائب كلما عمت خفت.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ الواو عاطفة، و«الكاف» للتشبيه بمعنى «مثل»، والإشارة إلى «الجعل» المأخوذ من «جعلنا»، و«جعل» هنا بمعنى «صير» تنصب مفعولين: الأول: ﴿عَدُوًّا﴾ والثاني: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾، وقدم للاهتمام به؛ لأنه الغرض المقصود من السياق، وهو بيان أن هذه سنة الله في أنبيائه كلهم، فيحصل بهذا له ﷺ القدوة والتسلية، أي: مثلما جعلنا كونًا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك؛ جعلنا لكل نبي من الأنبياء قبلك ﴿عَدُوًّا﴾، أي: أعداء يخالفونهم ويكذبونهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أن ورقة بن نوفل قال للنبي ﷺ: «**لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي**»[(١)].

وفي هذا تثبيت له ﷺ وتسلية، وتقوية لقلبه، وحثٌّ له على الصبر على ما يناله، كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿عَدُوًّا﴾ يقع على الواحد والمتعدد؛ قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ﴾ [النساء: ٩٢].

﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾، «شياطين» منصوب بدلًا من «عدوًّا».

والمعنى: وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًا من شياطين الإنس والجن، أو هم شياطين الإنس والجن.

و«شياطين» جمع «شيطان» وهو كل متمرد عات، خارج عن الطاعة من الإنس والجن والحيوان.

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**يا أبا ذرٍّ، تعوّذ بالله من شرّ شياطين الإنس والجن**»، قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «**نعم، هم شرّ من شياطين الجن**»[(٢)].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكلب الأسود شيطانٌ**»[(٣)].

و«الشيطان» مشتق من «شطن» بمعنى: بَعُد عن رحمة الله تعالى وعن كل خير.

﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾، أي: يلقى بعضهم ويوسوس إلى بعض، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وكما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٤)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، وأحمد (٦/ ٢٢٣، ٢٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة، قدر ما يستر المصلي (٥١٠)، وأبو داود في الصلاة (٧٠٢)، والنسائي في القبلة (٧٥٠)، والترمذي في الصلاة (٣٣٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٥٢).

[الناس: ١-٦] فالموسوس في صدور الناس صنفان: شياطين جن، وشياطين إنس.

﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ﴾، أي: القول المزخرف المموَّه المزيَّن بالألسنة في الظاهر، الذي يغتر سامعه من الجهلة به، وهو باطل في الباطن، والزخرف في الأصل الذهب.

﴿غُرُورٗا﴾ مفعول لأجله، أي: لأجل الغرور، أي: الخداع بالباطل للناس.

قال ابن القيم: «وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات، وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك، حتى إن الفجار يسمون أعظم الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع، ويميل لها الطبع، فيسمون أم الخبائث: أم الأفراح، ويسمون مجالس الفجور والفسوق: مجالس الطيبة، حتى إن بعضهم لما عزل عن شيء من ذلك قال لعازله: ترك المعاصي والتخوف منها إساءة ظن برحمة الله، وجرأة على سعة عفوه ومغفرته. فانظر ماذا تعمل هذه الكلمة في قلب ممتلئ بالشهوات ضعيف العلم والبصيرة»[1].

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ المشيئة: هي الإرادة الكونية، والخطاب للنبي ﷺ و«ما» نافية، والضمير في «فعلوه» يعود إلى المفهوم مما قبله، أي: ولو شاء ربك ما فعلوا إيحاء الزخرف والعداوة للأنبياء. وضمير الواو في «فعلوه» يعود إلى شياطين الإنس والجن والمعنى: ولو أراد ربك يا محمد كونًا ما فعل هؤلاء الشياطين هذا العداء للأنبياء، ولما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، أي: أن هذا مما قدره الله تعالى ابتلاء للأنبياء عليهم السلام.

﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: فدع هؤلاء الشياطين واتركهم، ولا تبال بهم ﴿وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ الواو عاطفة، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: فذرهم والذي يفترون، أو وافتراءهم، والافتراء: الكذب والاختلاق، أي: فدعهم وما يختلقون من الكذب والزور والقول المزخرف، ولا تبال بهم، فأنا كافيك وناصرك، وأمرهم إليّ، وحسابهم عليّ، كما قال تعالى في الكافرين والمنافقين: ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝٤٨﴾ [الأحزاب: ٤٨].

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٧٣-١٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

الواو عاطفة في المواضع الثلاثة، واللام فيها للتعليل، والضمير في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾، وقوله: «وليرضوه» يعود إلى زخرف القول الذي يوحيه هؤلاء الشياطين بعضهم إلى بعض.

ومعنى ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾، أي: ولتميل إلى هذا الزخرف من القول وتستحسنه ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أي: قلوب الذين لا يصدقون بالدار الآخرة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وهم الكفار؛ لأن قلوبهم خواء من الإيمان، فتتقبل كل زخرف ودخيل.

وخص الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ لأن الإيمان بالآخرة من أعظم أركان الإيمان، وعدمه من أعظم دلائل الكفر.

﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾، أي: وليحبوه ويريدوه بعد تزيينه في قلوبهم، فيكون عقيدة راسخة عندهم.

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ الاقتراف: الاكتساب، وأكثر ما يكون في اكتساب الشر والذنب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: ١٢٠].

ويطلق في الخير، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣].

و«ما» موصولة، أي: وليكتسبوا الذي هم مكتسبون من الذنوب؛ لأجل ذلك القول المزخرف بعد أن اغتروا به، ومالت إليه قلبوهم ورضوه واعتقدوه، فصار سببًا لاقترافهم ما لا حصر له من الباطل والآثام.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة، وقدمت الهمزة؛ لأن لها الصدارة، «غير الله»، أي: سوى الله «أبتغي» أطلب. «حكمًا»

الحكم الذي يحكم ويفصل ويقضي بين الناس.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله ويُحكّمون سواه: كيف أطلب غير الله حكمًا بيني وبينكم، أي: لا أحد غير الله أطلب حكمًا بيني وبينكم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: والحال أنه هو الذي أنزل إليكم الكتاب، والضمير في قوله: ﴿إِلَيۡكُمُ﴾ للمشركين؛ للتسجيل عليهم بأنه قد بلغهم، فلا يستطيعون تجاهله، وهو للناس كافة، و«ال» في «الكتاب» للعهد، أي: الكتاب المعهود، وهو القرآن الكريم.

﴿مُفَصَّلٗا﴾ مبيَّنًا موضحًا فيه الحكم والفصل في كل شيء، ففيه الحكم بيني وبينكم بدلالته على صدقي، وأنه من عند الله، وفيه حكمه عليكم بأنكم أعداء مفترون، وفيه بيان وتفصيل الأحكام العقدية والشرعية، والفصل بين الحق والباطل؛ لأنه من الحكم العدل الذي لا أحد أحس منه حكمًا، وهو الحكم وإليه الحكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: والذين أعطيناهم الكتاب، وهم اليهود والنصارى، ﴿يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ قرأ ابن عامر وحفص: ﴿مُنَزَّلٞ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي، وقرأ الباقون: «منْزَل» بإسكان النون وتخفيف الزاي.

أي: يعلمون أن القرآن منزل من ربك بالحق. وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ تشريف وتكريم له ﷺ بإضافة ضميره ﷺ إلى اسم «الرب» وربوبية الله تعالى له ربوبية خاصة.

والباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للملابسة، فهو متلبس بالحق في طريق وصوله إلى النبي

ﷺ، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] وهو بنفسه حق وصدق، ومشتمل على الحق.

والمعنى: فإن أنكر المكذبون من قومك أن يكون القرآن منزلًا من ربك حقًّا فالذين آتيناهم الكتاب يعلمون أن هذا القرآن منزل من ربك حقًّا وصدقًا، وذلك لما في كتبهم من تصديقه والبشارة به ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وأيضًا لما في القرآن من التصديق لكتبهم وما جاء فيها من أصول الدين مما اتفقت عليه الأديان السماوية.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«لا» ناهية، والامتراء: الشك، أي: فلا تكونن من الشاكين فيما جاءك من عند الله؛ بسبب تكذيب قومك به، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤].

وهو ﷺ لم يشك، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

هذا تقرير وتأكيد أن ما أنزل عليه ﷺ حق وصدق وعدل.

قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالإفراد ﴿كَلِمَتُ﴾، وقرأ الباقون: «كلمات» بالجمع.

و«كلمة» مفرد مضاف، فيعم، أي: تمت كل كلمات ربك، كما جاء في القراءة الثانية «كلمات».

و«كلمات الله» نوعان:

كلمات شرعية، وهي وحيه إلى أنبيائه عليهم السلام ومن أعظم ذلك «القرآن الكريم» وأوامره عز وجل ونواهيه الشرعية، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، أي: كتبه وكلماته الشرعية.

وكلمات كونية قدرية، وهي كل ما يتعلق بالخلق والتدبير لهذا الكون؛ من خلق، ورزق، ونصر وعدمه، وعز وذل، وإيمان وكفر، وغير ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ [غافر: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦﴾ [يونس: ٩٦].

﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ منصوبان على الحال، أو التمييز، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، أي: صدقًا فيما أخبر به سبحانه، وعدلًا فيما حكم به وأمر ونهى، فأخباره عز وجل صدق، وهو أصدق القائلين، وأحكامه عدل وهو أعدل الحاكمين.

و«الصدق» مطابقة الخبر للواقع، و«العدل» إعطاء من يستحق ما يستحقه، ودفع الظلم عن المظلوم.

﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾، أي: لا مبدل ولا مغير لكلماته الشرعية، وهي القرآن الكريم؛ لأنه محفوظ بحفظ الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

ولهذا حاول من حاول عبثًا تبديل بعض الكلمات في القرآن الكريم فلم يستطع، وافتضح أمره؛ تصديقًا لوعده عز وجل في حفظ كتابه.

وإنما حصل التبديل والتحريف في كتب أهل الكتاب؛ لأن الله وكل أمر حفظها إليهم، كما قال تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤] لكنهم لم يحفظوها، بل ضيعوها، بل هم الذين حرفوها وبدلوها.

وأيضًا لا تبديل لكلمات الله تعالى الكونية، فما قدره تعالى وقضاه كونًا لا بد من وقوعه، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾

[الرعد: ٤١]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُ﴾ [الفتح: ١٥].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، «السميع» و«العليم» اسمان من أسماء الله عز وجل، يدل «السميع» على إثبات صفة السمع لله عز وجل، وأنه ذو السمع الذي وسع جميع الأقوال والأصوات، ويدل «العليم» على أنه ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء.

و«العلم»: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

و«العليم» أعم من «السميع»؛ لأن العلم يشمل المسموع وغيره، فهو سبحانه السميع لجميع الأقوال والأصوات، العليم بكل شيء، مما يوحيه بعض الشياطين إلى بعض من الزخرف، وبما يفترونه، وبمن يميل إلى ذلك ويرضاه، ويقترف الآثام بسببه، وبغيره، وسيحاسب ويجازي كلًّا بما عمل.

وفي هذا وعد لمن امتثل أوامر الله، ووعيد لمن خالفه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾.

قوله: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، «إن» شرطية، «تطع» فعل الشرط مجزوم بها، وعلامة جزمه السكون، وحذف منه حرف العلة؛ لالتقاء الساكنين، وأصله «تطيع»، والخطاب لكل من يصلح له. والطاعة: الامتثال بفعل الأمر وترك النهي، والمراد بها هنا ما هو أعم، فتشمل طاعتهم في فعل ما يأمرون به، وترك ما ينهون عنه، وتشمل اتباعهم على ما هم عليه، وإن لم يأمروا بذلك.

و ﴿مَن﴾ موصولة، أي: وإن تطع أكثر الذين في الأرض، أي: وإن تطع أكثر الناس، أو تتبعهم على ما هم عليه، ﴿يُضِلُّوكَ﴾ جواب الشرط، مجزوم بحذف النون، أي: يجعلونك تضل وتتيه وتبتعد ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: عن دين الله وصراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ الجملتان تعليل لقوله: ﴿وَإِن تُطِعۡ

﴿أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لأن أكثر من في الأرض من الناس على ضلال، فمن أطاعهم أو اتبعهم ضل.

و«إن» في الموضعين نافية بمعنى «ما»، أي: ما يتبعون إلا الظن، وما هم إلا يخرصون، و«إلا» فيهما أداة حصر، و«الظن» الاعتقاد المخطئ الذي يحسبه صاحبه حقًّا صحيحًا بلا دليل، أي: ما يتّبعون فيما هم عليه إلا الظن الذي لا يفي من الحق شيئًا.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

ومن ذلك تقليدهم لآبائهم وأسلافهم تقليدًا أعمى؛ لظنهم أنهم على هدى، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣].

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، «إن» نافية، و«الخرص» التخمين والحَدْس والحَزْر من غير علم، أي: وما هم فيما هم عليه إلا يخرصون ويخمنون في القول على الله بلا علم، كما قال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وهكذا أكثر الخلق، فلا ينبغي أن يغتر المرء بما عليه أكثر الناس، فإن أكثرهم على ضلال، فمن أطاعهم أو قلدهم أضلوه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وفي الحديث القدسي: «**أن الله تعالى يقول لآدم: أخرج بعث النّار من ذرّيّتك؛ من**

كل ألفٍ تسع مئةٍ وتسعةً وتسعين، وواحدًا إلى الجنّة»(١).

قال بعض السلف: «لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين»(٢)؛ قال الشاعر:

والنّاس ألفٌ منهمُ كواحدٍ وواحدٌ كالألف إن أمرٌ عنى(٣)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

تعليل لقوله قبله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ووعد ووعيد، وعد لمن اهتدى وأطاع الله عز وجل، ووعيد لمن ضل وأطاع غير الله. وبيان أن ضلال من ضل، واهتداء من اهتدى، إنما هو بقدر الله تعالى ومشيئته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، «هو» ضمير فصل؛ لإفادة القصر، أي: هو وحده أعلم من يضل عن سبيله، وهو وحده أعلم بالمهتدين، و«أعلم» اسم تفضيل، و«من» اسم موصول في محل نصب بنزع الخافض، وهو الباء بدليل: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: هو وحده أعلم من جميع الخلق بالذي ﴿يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، أي: عن دينه وصراطه المستقيم، فييسره لما اختار لنفسه، ويجازيه على ذلك؛ كما قال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ٨-١١].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: وهو وحده أعلم بالمهتدين إلى سبيله ودينه، فييسرهم لليسرى، ويثيبهم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥-٧].

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٨)، ومسلم في الإيمان (٢٢٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٦)، وقد ذُكر نحو من هذا عن الفضيل بن عياض رحمه الله. انظر: «الأذكار» للنووي (ص١٩٦)، و«الآداب الشرعية» (١/ ٢٦٣)، وذكر نحوه عن سفيان بن عيينة. انظر: «الزهد الكبير» للبيهقي ص١٣١ (٢٣٨-٢٣٩).

(٣) البيت لابن دريد من مقصورته. انظر: «ديوانه» (ص١٣٢).

الفوائد والأحكام:

١- ابتلاء الله عز وجل للنبي ﷺ، وجميع الأنبياء قبله، بجعله كونًا لهم أعداء من شياطين الإنس والجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾.

٢- حكمة الله تعالى البالغة في جعله للأنبياء أعداءً وللباطل أنصارًا؛ ليحصل الابتلاء، ويميز الله الخبيث من الطيب، ويظهر الحق بأدلته، ويزهق الباطل بزخرفه.

٣- تسلية النبي ﷺ وتثبيته، وتقوية قلبه، وحثه على الصبر في إخباره أنه كما جعل له أعداء جعل للأنبياء قبله أعداء، وأنه ليس بدعًا من الرسل.

٤- إثبات الجعل الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾.

٥- أن في الإنس شياطين؛ لقوله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ﴾.

٦- تظاهر شياطين الإنس والجن على عداوة الرسل، والصد عن دين الله، وإضلال الناس، والتغرير بهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

٧- ينبغي الحذر ممن يزينون الباطل ويزخرفونه من شياطين الإنس والجن، ومن تمويههم وزخرفهم.

٨- أن ما يقع من شياطين الإنس والجن من عداوة للرسل عليهم السلام، وإيحاء بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، كل ذلك بمشيئة الله تعالى، وهكذا كل ما يقع من كفر أو إيمان أو معصية أو طاعة، كل ذلك بتقدير الله تعالى ومشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

٩- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، وقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

١١- دفاع الله عز وجل عن نبيه ﷺ وتشجيعه وتثبيته؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، أي: اتركهم وافتراءهم، ولا تبالهم فأمرهم إليَّ، وحسابهم عليَّ، كما قال

تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

١٢- أن ما يفعله هؤلاء الشياطين من إلقاء بعضهم إلى بعض زخرف القول؛ لأجل تغرير السذج من الناس، ولتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ويرضوه، ويكتسبوا بسببه الذنوب والآثام؛ لقوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

١٣- إنه إنما تميل إلى زخرف القول قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة- وهم الكفار- ويرضونه؛ لخواء قلوبهم من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ﴾.

١٤- أن ميل القلوب إلى زخرف القول ورضاه سبب لاقتراف الكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

١٥- أن الإيمان سياج يحفظ صاحبه من الميل إلى زخرف القول ورضاه واقتراف الذنوب بسببه.

١٦- إنكاره ﷺ أن يطلب غير الله حكمًا يحتكم إليه، فيما بينه وبين قومه، وفي غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾.

١٧- أن الله عز وجل هو الحكم العدل، الذي يجب التحاكم إليه وحده فيما أنزله في القرآن مفصلًا؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾.

١٨- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ﴾ وقوله: ﴿مُنَزَّلٌ﴾.

١٩- أن القرآن الكريم منزل من عند الله، وكلامه غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾، وقوله: ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ وفي هذا رد على المعتزلة في زعمهم أن القرآن مخلوق.

٢٠- امتنان الله عز وجل على العباد بإنزال القرآن الكريم وتفصيله، وبيانه فيه الحق

من الباطل، والهدى من الضلال، والحلال من الحرام، ودلالته على أنه حق منزل من عند الله تعالى، وعلى صدق النبي ﷺ، وعلى بيان كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وفي هذا رد على من يزعمون أنه لا يفهم، أو أن بعضه يخالف بعضًا، أو لا يتفق مع العقل الصحيح، أو أن له تأويلات باطلة، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

٢١- تأكيد إثبات أن القرآن منزل من عند الله تعالى بدلالة علم أهل الكتاب بذلك؛ لما في كتبهم من تصديق ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٢- التنويه بشأن أهل الكتاب، وما أنزل عليهم في التوراة والإنجيل، وبخاصة من آمن منهم.

٢٣- أن القرآن الكريم نزل بالحق، فطريق وصوله وسنده حق، وهو حق، ومشتمل على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٤- نهي الله عز وجل له ﷺ عن الشك فيما جاءه من ربه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ وهذا لا يقتضي حصول الشك منه؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

٢٥- تمام كلمات الله تعالى الكونية والشرعية، ونفوذ كلماته الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

٢٦- صدق كلماته عز وجل وأقواله وأخباره، وعدل أحكامه، وأمره ونهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

٢٧- لا مبدل لكلمات الله تعالى الكونية فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وما حكم به كونًا واقع لا محالة، ولا مبدل لكلماته الشرعية في القرآن الكريم، ولا مبدل لأمره ونهيه، فما أمر به فهو حق، وما نهى عنه فهو باطل؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

٢٨- إثبات اسم الله «السميع» وما يدل عليه من إثبات صفة السمع الواسع لله عز وجل، الذي يسمع جميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

٢٩- إثبات اسم الله «العليم» وما يدل عليه من أنه عز وجل ذو العلم الواسع، الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

٣٠- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«العليم» زيادة كمال إلى كمال.

٣١- في ختام الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وعد ووعيد، وعد لمن أطاع الله، ووعيد لمن خالف أمر الله؛ لأن مقتضى سمعه وعلمه أن يحاسب العباد، ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

٣٢- أن أكثر الخلق ليسوا على هدى، بل هم على ضلال، فمن أطاعهم أو قلّدهم أضلوه عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣٣- ينبغي عدم الاغترار بالكثرة، وما هم عليه؛ لأن العبرة بالكيف لا بالكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

٣٤- أن أكثر الناس لا تحقيق عندهم، ولا تمييز، ولا تثبت في كثير مما هم عليه، بل هم أتباع ظن، وأهل تخرص؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

٣٥- ذم الظن والتخرص والتخمين، ووجوب التثبت في الأمور كلها، وبخاصة أمر الدين قال ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[1].

٣٦- أن الله أعلم من يضل عن سبيله، وهو أعلم بمن يهتدي، وكل ذلك بتقديره عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وفي هذا- كما سبق- وعد لمن اهتدى، ووعيد للضالين.

***

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤٤)، ومسلم في النكاح (١٤١٣)، وأبو داود في النكاح (٢٠٨٠)، والنسائي في النكاح (٣٢٣٩-٣٢٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٨)، وابن ماجه في النكاح (١٧٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أتى ناس النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾»(١).

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾.

قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الفاء عاطفة، والخطاب للمؤمنين، والأمر للإباحة، و«ما» موصولة، أي: فكلوا من الذي ذكر اسم الله عليه؛ بأن يكون المذكي له مسلمًا أو كتابيًّا، ويذكر اسم الله عليه عند تذكيته بقوله: «بسم الله» فبهذا تحل الذبيحة.

ويفهم من الأمر في قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: النهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، كالميتة، وما ذكر اسم غير الله عليه، مما يذبح للأصنام ونحوها، ومتروك التسمية، كما جاء مصرحًا بالنهي عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، «إن» شرطية، و«كنتم» فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم بآياته مؤمنين فكلوا مما ذكر اسم الله عليه دون ما لم يذكر اسم الله عليه.

فمن شرط الإيمان بآيات الله إحلال ما أحله الله، وتحريم ما حرمه الله؛ ومن ذلك

(١) أخرجه أبوداود في الأضاحي - ذبائح أهل الكتاب (٢٨١٩)، والترمذي في تفسير سورة الأنعام (٣٠٦٩)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

الأكل مما ذكر اسم الله عليه، وعدم الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

والآيات: جمع آية، وهي العلامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، أي: علامة ملكه.

وآيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية.

فالآيات الكونية كل ما خلقه الله عز وجل وبثه في هذا الكون من المخلوقات؛ الليل والنهار، والشمس والقمر، والسموات والأرض، والجبال والشجر والدواب، والبراري والبحار، وغير ذلك.

وسميت المخلوقات آيات الله؛ لدلالتها على وجوده عز وجل وأنه الخالق المالك المدبر، ذو الكمال المطلق في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، المستحق للعبادة وحده دون سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

فكل ما في الكون من المخلوقات هو من آيات الله الكونية الدالة على وجوده وكماله في ذاته وصفاته واستحقاقه للعبادة وحده دون من سواه. وقد أحسن القائل:

فواعجبًا كيف يُعصى الإلـ ـهُ أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحدُ[1]

والقسم الثاني: الآيات الشرعية التي أنزلها الله عز وجل على أنبيائه، وأعظمها القرآن الكريم الذي أنزله على أفضل أنبيائه نبينا محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٩].

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٠٤.

وسمي القرآن الكريم «آيات الله»؛ لما فيه من الدلالة على أنه من عند الله عز وجل في ألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه، وصلاحيته لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

ولما فيه أيضًا من الدلالة على صدق من جاء به من عند الله عز وجل نبينا محمد ﷺ.

ومعنى: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: إن كنتم بآياته الكونية والشرعية والتي من جملتها الآيات الواردة في هذا الشأن فكلوا مما ذكر اسم الله عليه، وأحلوا ما أحله الله وحرِّموا ما حرَّمه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» للاستفهام الإنكاري.

و«ما» في قوله: ﴿مِمَّا﴾ اسم موصول.

أي: وأي شيء يمنعكم أن تأكلوا من الذي ذكر اسم الله عليه، وفيه تأكيد للأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه دون ما لم يذكر اسم الله عليه.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو وابن عامر ﴿وقد فُصِّل﴾ بالبناء للمجهول، وقرأ الباقون: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ بالبناء للفاعل.

كما قرأ نافع وحفص عن عاصم وأبوجعفر ﴿مَّا حَرَّمَ﴾ بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون ﴿ما حُرِّم﴾ بالبناء للمجهول. والمعنى في القراءات واحد.

والواو في قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ حالية، و«قد» للتحقيق، و«ما» موصولة. والجملة في محل نصب على الحال، أي: وما لكم ألا تأكلوا مما أحل الله لكم، وهو ما ذُكر اسم الله عليه، والحال أنه قد فصّل وبيّن لكم الذي حرمه عليكم، ومنه ما لم يُذكر اسم الله عليه، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ

بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

لكن يشكل على هذا أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة في قول أكثر أهل العلم، وهذه الآية متأخرة في الترتيب عن الآية: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**يحرم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير**»(١).

أما قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣]. فإن سورة المائدة كلها نزلت بالمدينة وسورة الأنعام نزلت بمكة.

﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾، «إلا» أداة استثناء، و«ما» موصولة، والاستثناء من عائد الاسم الموصول، المنصوب بـ«حرم» في قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

ويجوز كونه منقطعًا أو متصلًا، أي: لكن الذي ألجأتكم الضرورة إلى أكله، أو إلا الذي ألجأتكم الضرورة إلى أكله مما حرم عليكم فحلال لكم أكله حال الضرورة، أو لأجل الضرورة، كما قال تعالى في سورة المائدة بعدما ذكر تحريم الميتة ونحوها؛ قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وهذا من رحمة الله عز وجل بعباده والتوسعة عليهم، ورفع الحرج عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وقال تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ﴾ [النساء: ١٢].

وفي حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أن رسول الله ﷺ قضى أن لا ضرر ولا ضرار**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (٤٣٤٨)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٠٣)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٣٤٠)، وأخرجه ابن ماجه أيضًا (٢٣٤١)، وأحمد (١/ ٣١٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

أمر الله عز وجل المؤمنين بالأكل مما ذُكر اسم الله عليه من الذبائح، ممتنًّا عليهم بأنه قد فصل وبيّن لهم ما حرمه عليهم، ثم أتبع ذلك بالتحذير ممن يضلون الناس بأهوائهم، بالتحريم والتحليل اعتداءً منهم بغير علم، متوعدًا لهم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾. بضم الياء، أي: يُضلون غيرهم من الناس، وقرأ الباقون: «ليَضِلون» بفتح الياء، أي: يَضلون بأنفسهم عن الحق.

والمعنى: وإن كثيرًا من الناس ليَضلون ويتيهون بأنفسهم عن الحق، ويُضلون غيرهم عنه، بالتحليل والتحريم وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أهوائهم، أي: ما تهواه أنفسهم وتشتهيه، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ﴾ [النجم: ٢٣].

والهوى يُعمي ويُصمّ، وهو مُرْدٍ ومُهلِك، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد قيل:

وآفـة العقـل الهـوى فمـن عـلا ... عـلى هـواه عقلـه فقـد نجـا(١)

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ الباء للملابسة، أي: ملابسين لعدم العلم، أي: بغير علم يهديهم، من كتاب أو سُنَّة، كما قال تعالى في المجادلين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

ومَن عدم العلم تخبط بالجهل، وحكم بالظن والحدس، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦، يونس: ٦٦].

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» ٢/ ١١٣.

كما في تسمية المشركين البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحريمها، وفي تحليلهم الميتة، وقولهم للمؤمنين: «تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله».

والجهل داء عضال، ومرض قاتل، وموت قبل الموت، وكما قيل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرأً لم يحيَ بالعلم ميِّت ... فليس له قبل النشور نشور[1]

وقال علي رضي الله عنه[2]:

فقم بعلم ولا تطلب به بدلا ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وكثير من الخلق، أو أكثرهم أتباع هوى ودعاة ضلال، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، وضمير الفصل «هو» للتوكيد، و«أعلم» اسم تفضيل، أي: إن ربك يا محمد أعلم من كل أحد ﴿بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

والاعتداء: الظلم وتجاوز الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، أي: المعتدين بتحريم الحلال وتحليل الحرام، وغير ذلك.

وفي إخباره عز وجل لنبيه ﷺ بعلمه- سبحانه- بالمعتدين تسلية له ﷺ وتقوية لقلبه، ووعيد وتهديد لهم، وأنه سبحانه أعلم بهم وسيحاسبهم ويجازيهم على اعتدائهم في الدنيا والآخرة، وإلا فعلمه عز وجل محيط بهم وبغيرهم، وبكل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا

(١) انظر: «النكت والعيون» (٢/ ١٦٣).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٧).

كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

هذه الجملة مستأنفة اعتراضية بين ما قبلها وبين قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فيها توكيد للأمر قبلها وللنهي بعدها.

قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾، «وذروا»، أي: واتركوا، و«الإثم» الذنب، الذي يُؤثم ويوقع في الحرج، ويُعرِّض للعقوبة. قال ﷺ: «**الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس**»[(١)]، وهو ضد البر، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

و«ظاهر الإثم» ما ظهر من سيئات الأعمال والأقوال الظاهرة على الجوارح، «وباطنه»، أي: باطن الإثم، وهو ما أُسر وأُضمر في القلوب من العقائد الفاسدة أو النوايا السيئة، وأيضًا ظاهر الإثم ما يُعلن من الذنوب، وباطنه ما يُسر ويُستر منها.

و«ال» في «الإثم» للاستغراق، أي: اتركوا جميع الذنوب والمعاصي، ظاهرها وباطنها، علانيتها وسرّها، كتحريم الحلال، وتحليل الحرام، والزنا سرًّا وعلنًا، وغير ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

والإثم الظاهر أعظم، ولهذا قُدِّم، وفي الحديث: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين**»[(٢)].

ولا يتم للعبد ترك المعاصي ظاهرها وباطنها إلا بعد معرفتها، وذلك واجب عليه لكي يتجنبها، قال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني» الحديث[(٣)].

وقد قيل:

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ـ تفسير البر والإثم (٢٥٥٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢)، من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٩)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٠٦)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧)، وأبوداود في الملاحم (٤٢٤٤).

عرفت الشر لا للشـ ـرّ لكـنْ لتوقيهِ
ومن لا يعرف الشر من الخير يقعْ فيهِ[1]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾، «إن» مؤكدة تفيد هنا معنى التعليل للأمر قبلها، أي: اتركوا ظاهر الإثم وباطنه؛ لأن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾، أي: إن الذين يعملون الذنب ظاهرًا كان أو باطنًا.

وأظهر «الإثم» في مقام الإضمار، فلم يقل: «إن الذين يكسبونه» لزيادة التحذير من الإثم.

﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ السين في قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ لتأكيد تحقق مجازاتهم في المستقبل، والجزاء والمجازاة تكون بالخير والشر، والثواب والعقاب، والمراد بها هنا المجازاة بالعقاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

و«ما» في قوله: ﴿بِمَا﴾ موصولة، ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون الإثم، قال تعالى: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

والمعنى: سيجزون بالذي يكتسبونه من الإثم في الدنيا والآخرة.

و«الاقتراف» أكثر ما يكون في الشر والذنب، ولذا قالوا: «الاعتراف يزيل الاقتراف»، وقد يرد في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

سبب النزول:

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن المشركين قالوا للمسلمين: ما قتل ربكم، فلا تأكلون، وما قتلتم أنتم تأكلونه، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا

---

(١) البيتان لأبي فراس الحمداني. انظر: «ديوانه» (ص٣٥٢).

لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾»[1].

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأنعام: ١١٨]. قال: قالوا: يا محمد، أما ما قتلتم وذبحتم فتأكلونه، وأما ما قتل ربكم فتحرمونه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]»[2].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خاصمت اليهود، أو جاءت اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: نأكل ما قتلنا، ولا نأكل ما قتل الله، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ﴾»[3].

قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ و«لا» ناهية، والنهي للتحريم، و«ما» في قوله: «مما» موصولة، أي: ولا تأكلوا من الذي لم يذكر اسم الله عليه، وهو تصريح بما فهم من قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ففيه بيان وتأكيد لحرمة ما لم يذكر اسم الله عليه.

أي: ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه، بأن ذكر اسم غير الله عليه، أي: ذبح لغير الله؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ﴾ والفسق: ما أُهِلَّ لغير الله به كما في الآية الأخرى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ويشمل النهي في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند بعض أهل العلم الميتة التي ماتت بغير ذكاة، كما جاء في سبب نزول الآية.

---

(١) أخرجه النسائي (٤٤٤٩)، وابن ماجه (٣١٧٣)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٢٢-٥٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٧٩-١٣٨٠)، والحاكم (٤/ ١١٣، ٢٣١). وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٢١): «وهذا إسناد صحيح».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٨٠).

(٣) أخرجه أبوداود (٢٨١٩)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٢٦)، والطبراني (١٢٢٩٥)، والبيهقي في «سننه» (٩/ ٢٤٠).

وكذا متروك التسمية عمدًا على الصحيح، وقول جمهور أهل العلم، وكذا متروك التسمية نسيانًا على الراجح من قولي أهل العلم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ الجملة حال من مصدر الفعل ﴿تَأْكُلُواْ﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، أي: وإن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه لفسق.

ويحتمل كون الجملة ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ معطوفة على قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ﴾ من عطف الخبر على الإنشاء.

والضمير في «إنه» يعود إلى المصدر المأخوذ من قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ﴾، أي: إلى الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، أو إلى نفس ما لم يذكر اسم الله عليه.

واللام في قوله: ﴿لَفِسْقٌ﴾ للتوكيد.

والفسق: الخروج عن الإيمان، أو عن طاعة الله تعالى، فيطلق على الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠].

ويطلق الفسق- غالبًا- على ما دون الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]. فالفسوق هنا غير الكفر، وهو دونه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[(١)].

والمراد بالفسق في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ الكفر والشرك؛ لأن ذكر اسم غير الله على الذبيحة كفر وشرك، وكذا استحلال أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، مما ذبح على اسم غير الله، أو كان ميتة أو تركت التسمية عليه عمدًا.

ويقوي هذا قوله في آخر الآية: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، أي: وإن أطعتموهم في تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله، والأكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

وقد يحمل الفسق في الآية على ما دون الكفر إذ كان المراد بذلك مجرد الأكل مما لم

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨)، ومسلم في الإيمان (٦٤)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٠٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

يذكر اسم الله عليه دون اعتقاد حله، ودون الذبح لغير الله.

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية.

و﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ جمع شيطان. مشتق من «شطن» بمعنى: بَعُد عن رحمة الله عز وجل وعن كل خير. وهو كل متمرد عاتٍ خارج عن طاعة الله تعالى، والمراد إبليس وجنوده.

﴿لَيُوحُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: ليوسوسون ويزينون.

﴿إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾، أي: إلى أعوانهم وأنصارهم من اليهود والمشركين، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٥].

﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يجادلوكم، أي: ينازعوكم ويخاصموكم لإبطال الحق، وإظهار الباطل، وتشكيك المسلمين في دينهم، وما أحله الله لهم، وما حرمه عليهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾، يقولون: «ما قتل ربكم فلا تأكلونه، وما قتلتم أنتم تأكلونه. فأنزل الله هذه الآية. ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾»[١].

قال السعدي[٢] رحمه الله: «ودلَّت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم لا تدل بمجردها على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله، فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتها ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك توقف فيها، ولم تصدق ولم تكذب؛ لأن الوحي والإلهام يكون من الشيطان، فلابد من التمييز بينهما والفرقان، وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال ما لا يحصيه إلا الله».

﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٦٧).

والطاعة: الامتثال بفعل الأمر وترك النهي، أي: وإن أطعتموهم في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرمه الله، والأكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ جملة جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾، واللام للتوكيد.

أي: إنكم لمشركون لهم مع الله، فيما يختص به من التحليل والتحريم، ومشركون مثلهم لطاعتكم لهم في تحريم ما أحل الله، مما ذكر اسم الله عليه، وتحليل ما حرم الله مما لم يذكر اسم الله عليه، كما قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وفي حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: «يا رسول الله، لسنا نعبدهم، قال: **أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم**»[١].

قال القرطبي[٢]: «قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾، أي: في تحليل الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فدلت الآية على أن من استحل شيئًا مما حرَّم الله تعالى صار به مشركًا، وقد حرَّم الله- سبحانه- الميتة نصًّا، فإذا قبل تحليلها من غيره فقد أشرك».

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

بيَّن الله عز وجل في الآيات السابقة ضلال كثيرين وإضلالهم لغيرهم بغير علم، وإيحاء الشياطين لأوليائهم المشركين ليجادلوا المؤمنين، لإبطال ما هم عليه من الحق، وإظهار الباطل، وحذر المؤمنين من طاعتهم، ثم أتبع ذلك بضرب مثلين لبيان فضل حال المؤمن على المشرك.

قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والنفي، أي: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ موتًا معنويًّا؛ بسبب الجهل والكفر، ﴿فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ حياة معنوية بالعلم

---

(١) أخرجه الترمذي في «التفسير» (٣٠٩٥)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ١٠٦)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤) ـ وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٧٧).

والإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾، أي: وجعلنا له شرعًا نورًا وهو نور الإيمان والقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾ [التغابن: ٨]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥].

﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ الباء للسببية، أي: يمشي بسببه على الطريق المستقيم، وعلى بصيرة من أمر دينه ودنياه بين الناس في هذه الحياة، ويهتدي به إلى طريق الجنة بعد الممات، كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ولهذا كان ﷺ يدعو ويقول: «**اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، واجعل لي نورًا**»(١).

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ الكاف للتشبيه، و«من» موصولة، أي: كالذي «مثله»، أي: شبهه ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، أي: في الظلمات المعنوية، ظلمات الجهل والضلال والكفر.

﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونه ليس بخارج منها، أي: لا مخرج ولا مخلص له من هذه الظلمات.

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٦)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣)، وأبوداود في الصلاة (١٣٥٣)، والنسائي في التطبيق (١١٢١)، والترمذي في الصلاة (٢٣٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كما قال تعالى في وصف أعمال الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠].

فهذا مَثَل ضربه الله عز وجل لبيان الفرق الشاسع والبون الواسع بين حال المؤمن وحال الكافر.

فشبّه عز وجل في هذه الآية حال المؤمن قبل إيمانه وبعدها بحال من كان ميتًا موتًا حسيًّا لا حراك به ولا حياة، فأحياه الله بأن نفخ فيه الروح وأوجد فيه الحياة، وجعل له كونًا، أي: صير له نورًا حسيًّا يستضيء بسببه في مشيه بين الناس فيبصر به الطريق ليصل إلى بلده ومقصده ونحو ذلك.

والموت المعنوي بالجهل والكفر والشرك أشد وأعظم من الموت الحسي بخروج الروح من البدن؛ لأن الموت الحسي غايته فقدان الحياة، أما الموت المعنوي بالكفر فنهايته إذا مات الإنسان عليه الخلود في النار.

وشبّه عز وجل حال الكافر بمن هو باق في ظلمات القبور والموت لم تدب فيه الحياة بعد، أو بمن هو في ظلمات الليل وظلم البحار والغيوم ونحو ذلك، لا مخرج ولا مخلص له منها، فهو حائر لا يدري أين يقع، ولا أين يتوجه، وأي طريق يسلك.

والمقصود إنكار ونفي المشابهة والمساواة بين حال من آمن، وحال من بقي على الشرك، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

فالمؤمن مَن جمع الله له بين الحياة والنور، يمشي بين الناس في هذه الحياة على نور من الله، على بصيرة من أمره؛ يعرف الخير من الشر، والحق من الباطل، والهدى من

الضلال، والنافع من الضار، معظمًا لربه، متبعًا لشرعه؛ فعلًا للواجبات وبُعدًا عن المنهيات، أداءً لحقوق الله، وحقوق الخلق، لسان حاله، كما قال الشاعر:

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي فعلام أخشى السير في الظلماء[1]

والكافر مَن جُمع له بين الموت والظلمات يتخبط في ظلمات الجهل والضلال والكفر، وشتان بين هذا وهذا، شتان بين الثرى والثريا.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان[2]

قال السعدي[3]: «فنبّه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه أنه لا يستوي هذا ولا هذا، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات».

وصدق الله العظيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وصدق رسوله المصطفى ﷺ إذ يقول: «كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها»[4].

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الجملة مستأنفة، والكاف للتشبيه بمعنى مثل، والإشارة للتزيين المأخوذ من قوله: ﴿زُيِّنَ﴾، أي: مثل ذلك التزيين لهؤلاء ما هم عليه من تحريم الحلال، وتحليل الحرام والجهل والضلال والكفر، زين لغيرهم من الكافرين ما كانوا يعملون، وأشار إلى ما هم عليه بإشارة البعيد تحقيرًا له.

وفي قوله: ﴿زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ تسجيل على المذكورين بالكفر؛ لأنه وُصِف به المشبهين بهم في التزيين.

و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: زين للكافرين الذي كانوا يعملون، أو زين لهم

---

(١) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص١١.
(٢) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص١١).
(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٦٨).
(٤) أخرجه مسلم في الطهارة ـ فضل الوضوء (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

عملهم، أي: زَين وحسن لهم الشيطان أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

قال السعدي[1]: «فكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مسكة من عقل أن يكون بهذه الحالة وأن يبقى في الظلمات متحيرًا، فأجاب بأنه ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم ويزينها في قلوبهم، حتى استحسنوها ورأوها حقًّا وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح».

ويحتمل أن المعنى كذلك زين لهم قدرًا ما كانوا يعملون. ولا تنافي بينهما.

الفوائد والأحكام:

١- إباحة الأكل مما ذكر اسم الله عليه عند تذكيته مما أحل الله من بهيمة الأنعام؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

٢- أن من شرط الإيمان اعتقاد حل ما ذكر اسم الله عليه من الذبائح والأكل منه، وتحليل ما أحل الله، وتحريم ما حرم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ فالأمر بالنسبة للأكل للإباحة، وبالنسبة لاعتقاد حله واجب.

٣- وجوب الإيمان بآيات الله الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

٤- أن من شرط الإيمان بآيات الله تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم.

٥- الندب والحض على الأكل مما ذكر اسم الله عليه، لأنه مما أحله الله، ولمخالفة المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

٦- امتنان الله عز وجل على العباد بتفصيل وبيان ما حرمه عليهم، وإقامة الحجة

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٦٨).

عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

٧- أن الأصل في الأطعمة والمأكولات الإباحة، فما لم يرد الدليل على تحريمه منها فهو حلال.

٨- أن الضرورة ترفع التحريم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ ومن قواعد الشريعة: «أن المشقة تجلب التيسير، وأن الضرورات تبيح المحظورات».

٩- رحمة الله عز وجل بهذه الأمة المحمدية، ورفع الحرج عنها والتيسير عليها.

١٠- كما لا يجوز تحليل ما حرم الله، كذلك لا يجوز تحريم ما أحل الله؛ مأكولًا أو غيره، بل إن تحريم ما أحل الله أشد؛ لما فيه من التضييق على الناس، ومخالفة مقاصد الشريعة من التيسير ورفع الحرج، ووصمها بالشدة والحرج الذي نفاه الله عنها.

١١- أن كثيرًا من الخلق دعاة ضلال، وأتباع هوى بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

١٢- عدم الاغترار بما عليه كثير من الخلق، بل بما عليه أكثرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

١٣- الحذر من اتباع الهوى؛ لأنه يعمي ويصم، ويضل ويهلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم﴾.

١٤- أن الجهل داء قاتل يحمل صاحبه على اتباع الهوى والتخبط والوقوع في الهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

١٥- تحريم الفتوى تبعًا للهوى، والقول على الله بغير علم، ووجوب الحذر من ذلك، وأن ذلك من الاعتداء ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

١٦- فضل العلم وشدة حاجة الناس إليه، وبخاصة علم الشريعة، ليهتدوا به إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

١٧- تشريف الله عز وجل لنبيه ﷺ وتكريمه بخطابه له، وإضافة اسم الرب إلى

ضميره ﷺ، وإثبات ربوبيته الخاصة له ﷺ، تقوية لقلبه ﷺ وتسلية له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

١٨- تأكيد علم الله عز وجل بالمعتدين والوعيد والتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

١٩- إثبات علم الله عز وجل الواسع المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ وهو سبحانه أعلم بهم وبغيرهم وبكل شيء.

٢٠- وجوب ترك الإثم والذنب ظاهرًا وباطنًا، سرًا وعلنًا، والتحذير من إضمار الشر ونيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

٢١- أن الذنب الظاهر المعلن جهرًا أعظم من الذنب سرا، ولهذا قدم قوله: ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾ على قوله ﴿وَبَاطِنَهُ﴾.

٢٢- التهديد الأكيد والوعيد الشديد لمن يكسبون الإثم بمجازاتهم بما كانوا يقترفون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

٢٣- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

٢٤- تحريم الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، مما ذكر اسم غير الله عليه وأهل لغير الله به، أو مات حتف أنفه، أو ما تركت التسمية عليه عمدًا على الصحيح، أو سهوًا على الراجح من أقوال أهل العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ وعليه يدل مفهوم قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فمفهومها عدم جواز الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، وأن ذلك ينافي الإيمان بآيات الله[1].

٢٥- أن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه فسق وخروج عن طاعة الله تعالى، وهو فسق دون الكفر، فإن صحبه استحلال لذلك فهو كفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾.

---

(١) سبق تفصيل الكلام في حكم التسمية عند الذبح وعلى الصيد في الكلام على قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [الآيتان: ٣، ٤].

٢٦- أن عدم ذكر اسم الله عند التذكية فسق، فإن ذكر اسم غير الله عندها فهو كفر، وإن تعمد ترك التسمية عندها فهو فسق دون الكفر.

٢٧- إيحاء الشياطين إلى أوليائهم من اليهود والمشركين وغيرهم بالمجادلة للمؤمنين بالباطل؛ لتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَـٰدِلُوكُمۡ﴾.

٢٨- التحذير من طاعة الشياطين وأوليائهم فيما يأمرون به وينهون عنه، وفيما يحرمون ويحللون ويجادلون به، وأن ذلك شرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾.

وذلك شرك في الطاعة وشرك في العبادة كما قال ﷺ لعدي بن حاتم: «**أليس يحلون ما حرم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه**»؟ قال عدي: فقلت: بلى. قال: «**فتلك عبادتهم**»[1].

٢٩- ذم المجادلة بالباطل؛ لأنها من إيحاء الشياطين لأوليائهم، ومن صفات أولياء الشياطين من اليهود والمشركين وغيرهم.

٣٠- شتان بين من كان ميتًا فأحياه الله بالإيمان والقرآن، وجعل له نورًا يمشي به في الناس على بصيرة من أمر دينه ودنياه وأخراه، وهو المؤمن، وبين من بقي في ظلمات الجهل والضلال والكفر، وهو الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَـٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾.

٣١- ضرب الأمثلة في القرآن الكريم لتقريب المعاني، فقد شبه الله عز وجل حال المؤمن بمن كان ميتًا حسيًّا، فأحياه الله ونفخ فيه الروح فدبت الحياة في جسده، وجعل الله له نورًا حسيًّا يمشي به في الناس ويبصر به الطريق في حياته، كما شبه حال الكافر بالميت في ظلمات القبور، أو بمن هو في الظلمات الشديدة التي لا مخرج له منها كظلم الليل والبحار والغيوم ونحو ذلك.

٣٢- أن الإنسان بلا إيمان، كالميت جسد بلا روح؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَـٰهُ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٣٣- أن الإيمان والقرآن كالروح للجسد، والنور في الظلمات، وأن الجهل والضلال والكفر كالموت، والظلمات المستحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

٣٤- الإغراء والحث على الإيمان واتباع القرآن؛ لبيان أن في ذلك الحياة والنور، والتحذير من الكفر وذمه؛ لأن فيه الموت والظلمات.

٣٥- أن انطماس البصيرة واستبدال نور الإيمان والقرآن بظلمات الجهل والضلال والكفر كل ذلك من تزيين الشيطان وتحسينه للكافرين، مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٣٦- إثبات تقدير الله للأعمال، خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا الرد على القدرية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ الواو عاطفة، و«الكاف» للتشبيه، والإشارة إلى «الجعل» المأخوذ من ﴿جَعَلْنَا﴾، أي: كما جعلنا كونًا في قريتك- يا محمد- مكة أكابر مجرميها؛ ليمكروا فيها، كذلك جعلنا في كل قرية من قرى الأمم الماضية، كقرية الحِجْر، وسبأ، والرس، ونحوها: أكابر مجرميها؛ ليمكروا فيها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ [الأعراف: ١٠١].

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، وتثبيت له، وتقوية لقلبه، وأنه ليس ببدع من الرسل في تكذيب قومه إياه.

و﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى «صيرنا»، تنصب مفعولين، ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ في محل المفعول الثاني لـ«جعل» مقدم، ﴿أَكَٰبِرَ﴾ مفعول أول، وقُدِّم قوله: ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾؛ للاهتمام ببيان أن هذا هو شأن جميع القرى؛ لأنه الأهم في هذا الخبر.

و«القرية»: اسم للمكان الذي يسكن فيه أناس كثيرون، مأخوذة من «القري»: وهو الجمع، وتُطلق على «المدينة» مهما كبرت؛ لأن الله سمَّى بها «مكة»، وهي أكبر المدن آنذاك.

﴿أَكَٰبِرَ﴾ جمع «أكبر»: اسم لعظيم القوم وسيدهم؛ كما في قوله تعالى عن

الكافرين: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧].

﴿مُجْرِمِيهَا﴾، «مجرمي» مضاف إلى ﴿أَكَٰبِرَ﴾، و«ها» ضمير يعود إلى القرية، مضاف إلى «مجرمي»، و﴿مُجْرِمِيهَا﴾: مرتكبي الجرائم فيها؛ من الشرك بالله، والصد عن دين الله، أي: جعلنا في كل قرية أكابر أهلها، وساداتهم، وأعظمهم في الإجرام والشرك والكفر بالله، والصد عن دينه.

أي: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يمكروا فيها؛ ابتلاءً واختبارًا؛ ليظهر الحق من الباطل، ويميز الله الخبيث من الطيب.

و«المكر»: الخداع، وإيقاع الضرر بالغير خفية وتحيلًا.

أي: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾: بتضليل دهماء الناس، وصدهم عن دين الله وعن متابعة الرسول ﷺ، وتزيين الكفر والشرك لهم بأقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤-٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١].

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الواو استئنافية، أو حالية، و«ما» نافية، و«إلا» أداة حصر، أي: والحال أنهم إنما يمكرون بأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]؛ لأن ضرر مكرهم عائد إليهم فقط، والله تعالى غني عنهم، والرسول ﷺ لا يضره مكرهم، ومن أراد الله هدايته فلن يستطيعوا إضلاله، وإنما وبال مكرهم على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ

وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٥]. وفيه إشارة إلى أن العاقبة له ﷺ وللمؤمنين، ووعدهم بالغلبة والنصر على عدوهم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنهم ما يشعرون، أي: ما يعلمون وما يدرون أن مكرهم يعود عليهم وحدهم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ ﴾، أي: إذا جاءت هؤلاء الأكابر المجرمين آية من آيات القرآن الكريم، أي: تليت عليهم آية فيها دعوتهم إلى الإيمان.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، أي: لن نصدق بمحمد، وبما جاء به حتى نُعطى مثل الذي أُعطي رسل الله من المعجزات الحسية العينية؛ كفلق البحر لموسى، وإحياء الموتى لعيسى؛ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

وذلك لجهلهم بالحكمة الإلهية في تصريف الآيات والمعجزات بما يناسب حال المرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

ولجهلهم عظم الآيات التي أنزلها الله عليهم في القرآن الكريم الذي يفوق جميع آيات الأنبياء ومعجزاتهم، وهو المعجزة الكبرى الباقية إلى قيام الساعة؛ قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقال ﷺ: «**ما من نبيٍّ إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الّذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ؛ وأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي قولهم: ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ ما يشير إلى اعتراضهم حتى على إرساله ﷺ؛ بدليل قوله تعالى بعده: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

وقيل معنى: ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، أي: يأتينا نحن مثل ما يأتي الرسل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢].

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾: قرأ ابن كثير وحفص: ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾ بحذف الألف بعد اللام ونصب التاء على التوحيد، وقرأ الباقون بالألف وكسر التاء على الجمع: «رسالاته».

أي: هو أعلم حيث يضع رسالته، ومن يصلح لها من خلقه، وكيف يؤيدهم بالآيات والمعجزات؛ فهو أعلم بمن يصلح للرسالة، وهو أعلم بالآيات والمعجزات المؤيدة لهم، المناسبة للمرسل إليهم.

وفي هذا- كما سبقت الإشارة- ما يدل على اعتراضهم على إرساله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقد كان ﷺ خيارًا من خيار من خيار، وكانوا يعرفون ذلك عنه ﷺ، ويلقبونه بالأمين.

عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشمٍ، واصطفاني من بني هاشمٍ**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بعثت من خير قرون بني**

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، فضل نسب النبي ﷺ (٢٢٧٦)، والترمذي في المناقب (٣٦٠٥)، وأحمد (٤/ ١٠٧).

آدم قرنًا فقرنًا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»[١].

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾، أي: سينال الذين ارتكبوا الجرائم بالشرك بالله والمكر والصد عن دين الله، ويمسهم ﴿صَغَارٌ﴾، أي: ذل وهوان.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: مقدر عند الله ثابت محقق في الدنيا والآخرة. وقال بعضهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: من عند الله.

والجزاء من جنس العمل؛ فإنهم لما استكبروا عن الانقياد للرسول ﷺ وكابروا في الإجرام بالكفر، والتصدي لدعوته، وصد الناس عنها عاقبهم الله بالصغار، وهو الذل والهوان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغرين ذليلين حقيرين.

وأظهر في مقام الإضمار؛ فلم يقل: «سيصيبهم»، بل قال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾؛ لبيان علة هذا الوعيد، وهو إجرامهم، وليشملهم هذا الوعيد هم وغيرهم من المجرمين.

﴿وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ الباء سببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي يمكرون، أو بسبب مكرهم؛ فجعل الله عقابهم ذلًّا وعذابًا؛ ليناسب كبرهم وعتوهم وعصيانهم؛ فأصيبوا في الدنيا بالهزيمة والذل، وزوال السيادة، وعذاب القتل، والأسر والخوف، كما قال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢]، وقد حصل هذا يوم بدر؛ فهلك سادات المشركين، وأهين وأذل من بقي منهم.

ولهم في الآخرة الإهانة في المحشر بين الخلائق؛ كما قال ﷺ: «**لكل غادر لواء يوم القيامة؛ يُقال: هذه غدرة فلان بن فلان»**[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، صفة النبي ﷺ (٣٥٥٧)، وأحمد (٢/ ٣٧٣، ٤١٧).

(٢) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٨٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٧)، من حديث أنس رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (٣١٨٦)، ومسلم (١٧٣٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولهم أيضًا في جهنم الإهانة بالعذاب المعنوي بالتقريع والتوبيخ والتبكيت، ولهم فيها العذاب الحسي في اصطلاء النار؛ كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة تعلل أكابر المجرمين من مشركي مكة، وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ثم بين عز وجل في هذه الآية أن الهداية والإضلال بيد الله تعالى، وأنهم مهما أوتوا من الآيات فلن يؤمنوا ما لم يرد الله هدايتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ الفاء استئنافية، و«من» شرطية، ﴿يُرِدِ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿يَشْرَحْ﴾ والمراد بالإرادة هنا الإرادة الكونية التي معناها المشيئة، أي: فمن يرد الله كونًا ويشأ أن يهديه، كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿أَن يَهْدِيَهُۥ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿يُرِدِ﴾، أي: من يرد الله هدايته، والمراد بالهداية هنا ما يشمل هداية الإرشاد العامة، وهداية التوفيق الخاصة بالله عز وجل.

﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾، أي: يفسح صدره ويوسعه للإسلام، وينور قلبه بنور الإيمان والتوحيد، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:

١٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧-٨].

ولهذا كان ﷺ يقول: «**اللّهمّ اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، واجعل لي نورًا**» أو قال: «**واجعلني نورًا**»[(١)].

فمن شرح الله صدره للإسلام، ومنحه نور الإيمان سعد في دينه ودنياه وأخراه.

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾، أي: ومن يرد كونًا إضلاله، أي: جعله يضل ويتيه عن طريق الحق ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾، أي: يجعل صدره غير منشرح، وغير منفسح ولا متسع لقبول الإسلام؛ بقرينة مقابلته ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

قرأ ابن كثير «ضَيْقًا» بإسكان الياء مخففة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقرأ الباقون بكسر الياء مع تشديدها: ﴿ضَيِّقًا﴾ وهو مفعول ثان لـ﴿يَجْعَلْ﴾.

﴿حَرَجًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو بكر عن عاصم بكسر الراء ﴿حَرِجًا﴾ صفة لـ«ضيقا»، أو مفعول ثالث لـ ﴿يَجْعَلْ﴾، أي: شديد الضيق، أو آثمًا.

وقرأ الباقون بفتح الراء: ﴿حَرَجًا﴾؛ فيكون نصبه على أنه مصدر، أو صفة لـ﴿ضَيِّقًا﴾، أو مفعولًا ثالثًا لـ﴿يَجْعَلْ﴾، ومعناه أيضًا: شديد الضيق؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، أي: من ضيق.

و«الحَرَج» بفتح الراء، جمع حَرَجة: وهي الشجرة الملتف بها الأشجار، لا يدخل بينها وبينها شيء ولا يمكن الوصول إليها؛ لشدة التفاف الأشجار عليها؛ فالصدر

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣)، وأبو داود في الطهارة (١٣٥٣)، والنسائي في التطبيق (١١٢١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الضيق الحرج الذي لا ينفذ إليه- من شدة ضيقه- الإيمان، ولا تصل إليه الموعظة؛ لرين الكفر والشرك عليه وخذلانه.

سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا من الأعراب من أهل البادية من مدلج: ما الحرجة؟ قال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وحشية، ولا شيء. فقال عمر رضي الله عنه: «كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير»(١).

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الياء والصاد مشددة، وألف بعدها، وتخفيف العين: «يَصَّاعَدُ»، وقرأ ابن كثير بإسكان الصاد، وتخفيف العين من غير ألف: «يَصْعَدُ»، وقرأ الباقون بتشديد الصاد والعين من غير ألف ﴿يَصَّعَّدُ﴾، وهي متقاربة في المعنى.

و«الكاف» في قوله: ﴿كَأَنَّمَا﴾ للتشبيه، والمعنى: كأنه حين يُدعى إلى الإسلام من شدة ضيق صدره وحرجه ﴿يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾، أي: يُكلف الصعود في السماء؛ فإن الصاعد في السماء يضيق نفسه في الصعود.

وهذا مثل ضربه الله تعالى لمن أراد إضلاله، وغلبت شقوته؛ فإنه حينما يُدعى إلى الإسلام يضيق ذرعًا بذلك، وتنغلق عنده أسباب وصول الإيمان والموعظة إلى قلبه، ويعاني من ذلك أعظم المشقة، كحال الذي يصَّعَّد في السماء.

عن الحكم بن أبان، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: «فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله قلبه»(٢).

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، «الكاف» للتشبيه والإشارة إلى قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾، أي: كما جعل الله تعالى صدر من أراد إضلاله ضيقًا حرجًا؛ ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيشمل كل من يعرض عن الإيمان من المشركين وأهل الكتاب؛ فتزداد قلوبهم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٤٤-٥٤٥).

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٢٩).

قساوة إلى قساوة.

والمضارع في «يجعل»؛ لإفادة التجدد في المستقبل، وأن هذه سنة الله في كل من ينصرف عن الإيمان ويعرض عنه.

وأظهر مقام الإضمار، فلم يقل: «كذلك أجعل»، بل قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ﴾ للتعظيم والتهويل.

و«الرجس» يطلق على ما يستخبث حسًّا كالقاذورات، ويُطلق على ما يستخبث معنى كالشرك وجميع المعاصي والذنوب، وهو المراد هنا؛ قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، أي: مرضًا في قلوبهم زاد على مرضها السابق، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال بعض المفسرين: الرجس: الشيطان؛ فعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «الرجس الشيطان»[1].

وقال بعضهم: الرجس: عذاب الله[2]؛ قال تعالى: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١].

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

لما ذكر حال من أراد إضلالهم وما هم فيه من ضيق الصدر والحرج نوَّه بصراطه المستقيم؛ ترغيبًا فيه، وإغراء باتِّباعه.

قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾، أي: طريقه ودينه؛ وهو الإسلام، وأشار إليه إشارة الحاضر؛ لأنه معلوم معهود، ولقوله قبله: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾. وأضاف عز وجل

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٥٢).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٥٢)؛ عن ابن زيد.

الصراط إليه في قوله: ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]؛ لأنه هو الذي وضعه وارتضاه، ويؤدي إليه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

وأظهر في مقام الإضمار؛ فقال: ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: «صراطي»؛ لتعظيم هذا الصراط.

﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال، أي: عدلًا لا اعوجاج فيه، وسطًا لا إفراط فيه ولا تفريط، يؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار، بأقل مسافة وأخطر طريق.

وأضافه عز وجل أولًا إليه، ووصفه بالاستقامة ثانيًا؛ ترغيبًا فيه وإغراءً به، أي: فاثبت عليه وادع إليه.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، «قد» حرف تحقيق، أي: قد بينا ووضحنا الآيات؛ والمراد بها الآيات الشرعية آيات القرآن الكريم.

﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل قوم يذكرون، أي: يتعظون ويعتبرون، وخصهم لأنهم هم الذين ينتفعون بتفصيل الآيات وبيانها؛ فيتدبرونها، ويوقنون بما دلت عليه من توحيد الله وشرعه القويم، ويعملون بها.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾، «لهم» جار ومجرور، خبر مقدم، أي: للقوم الذين يذَّكرون، وقدم للدلالة على الاختصاص، أي: لهم خاصة ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

«الدار» مكان الحلول والإقامة، و«دار» مضاف، و«السلام» مضاف إليه؛ من إضافة الصفة إلى الموصوف، و«دار السلام» الجنة، وسميت الجنة دار السلام لسلامتها من كل آفة وعيب ونقص، ومن كل كدر وهمٍّ وغم وخوف وغير ذلك.

ويلزم من هذا أن تكون في غاية الكمال ونهاية التمام؛ من نعيم الروح والبدن وأمان القلب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة بجواره وقربه.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾، أي: وهو وحده وليهم الذي يتولى تدبيرهم، وجلب الخير لهم، ونصرهم، ودفع الضر عنهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الباء سببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي كانوا يعملونه، أو بسبب عملهم، أي: جزاء أعمالهم الصالحة أثابهم الجنة دار السلام، وتولاهم؛ نسأل الله تعالى من فضله.

الفوائد والأحكام:

١- ابتلاء الرسول ﷺ في أول دعوته بأكابر مجرمي قريته مكة؛ يؤذونه ﷺ وأصحابه، ويكيدون لدعوته، ويصدون الناس عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾.

٢- تسليته ﷺ وتثبيته ببيان أن ما ابتلي به من مكر أكابر مجرمي قريته فيها ليس بدعًا فقد جعل الله في كل قرية مضت أكابر مجرميها؛ ليمكروا فيها.

٣- إثبات الجعل الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾.

٤- تعظيم الله عز وجل لنفسه بتكلمه بضمير الجمع بقوله: ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿فَصَّلْنَا﴾. وفي الإظهار مقام الإضمار بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾.

٥- أن ما يحصل في الكون من خير أو شر إنما هو بتقدير الله عز وجل ولعلة وحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾.

٦- أن القرية تطلق على المكان الذي يسكنه أناس كثيرون، وتطلق على المدينة؛ لأن الله أطلقها على مكة، وهي أم القرى وأكبرها.

٧- أن أهل المكر والخداع إنما يمكرون بأنفسهم؛ لأن ضرر مكرهم يعود عليهم وحدهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

٨- عدم إدراك هؤلاء الأكابر المجرمين أن مكرهم إنما يعود عليهم؛ لقوله تعالى:

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

٩- إقامة الحجة على الناس بالقرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾، أي: من آيات القرآن الكريم، وهو أكبر آية، وأعظم معجزة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

١٠- شدة عناد هؤلاء الأكابر المجرمين، واقتراحهم الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾.

١١- إيمان هؤلاء الأكابر المجرمين بالرسل السابقين؛ لقولهم: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾.

١٢- أن الله عز وجل أعلم بمن هو أهل للرسالة، وما يحتاجه رسله من الآيات المناسبة للمرسل إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

١٣- الرد على المعترضين على رسالته ﷺ، وعلى ما أيده الله به من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

١٤- الوعيد والتهديد للذين أجرموا بالمكر، والشرك بالله، والصد عن دينه؛ بالذل والهوان عند الله والعذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾.

وهكذا حصل لأكابر المجرمين من أهل مكة، فأهينوا وعذِّبوا في الدنيا بالقتل والأسر، وزوال عزهم ومنعتهم، ولهم في الآخرة عذاب النار.

١٥- أنه يجمع للمجرمين بين العذاب المعنوي للقلوب؛ بالإذلال والإهانة لهم، والعذاب الحسي للأبدان.

١٦- إثبات الأسباب، وأن ما يحصل للمجرمين مما توعدوا به بسبب إجرامهم ومكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾، كما أن توليه عز وجل للذين يذَّكرون بسبب عملهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

١٧- أن الهداية والإضلال بيد الله تعالى وتدبيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن

﴿يَهْدِيَهُۥ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ الآية؛ فهو عز وجل يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله، ولا يسأل عما يفعل، وهم يُسألون.

١٨- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى، والتي معناها المشيئة.

١٩- أن من أراد الله هدايته شرح صدره للإسلام، فجعله منبسطًا، وأناره بنور الإيمان واليقين والتوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

٢٠- أن من أراد الله إضلاله جعل صدره ضيقًا شديد الضيق، لا ينفذ إليه شيء من الإيمان، ولا تصل إليه الموعظة؛ لخذلانه تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

٢١- شدة ما يعانيه من الضيق من كُتب عليه الضلال، فهو من شدة ضيق صدره كالذي يكلف الصعود في السماء في ضيق نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢٢- إثبات الجعل الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾.

٢٣- عقوبة الله تعالى للذين لا يؤمنون بجعل الرجس عليهم بتسلط الشيطان عليهم، وإيقاعهم بالشرك والموبقات الموجبة لأشد العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: ١٠٠].

٢٤- أن الجزاء من جنس العمل، وأن المعصية سبب للمعصية بعدها، وأن عدم الإيمان سبب لجعل الرجس على المرء وتراكم الذنوب، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

٢٥- امتداح الله تعالى لصراطه وطريقه ودينه الإسلام، وتشريفه وتعظيمه بإضافته إليه عز وجل، والإغراء بسلوكه واتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾.

٢٦- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإضافة ضميره إلى اسم الرب

عز وجل وربوبيته له ربوبية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢٧- إثبات ربوبية الله الخاصة برسله وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٢٨- أن صراط الله تعالى عدل مستقيم لا اعوجاج فيه، يؤدي إلى الغاية المنشودة؛ وهي السعادة في الدنيا والآخرة بأقصر طريق، وأخصر وقت؛ لقوله تعالى: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾.

٢٩- تفصيل الله عز وجل الآيات وبيانها لإقامة الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾.

٣٠- أن الذين ينتفعون من تفصيل الآيات هم الذين يتذكرون ويتعظون بها؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

٣١- تخصيص الذين يتذكرون بدار السلام عند ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: لهم خاصة.

٣٢- أن نعيم الجنة في غاية الكمال، ونهاية التمام؛ لأن الله تعالى سمَّاها دار السلام، أي: دار الأمن والسلامة من كل عيب ونقص وكدر وغير ذلك، ولأنها عنده عز وجل؛ فهي منه سبحانه وبقربه وجواره.

٣٣- ولاية الله عز وجل للذين يذَّكَّرون، يدبرهم، ويجلب الخير لهم، وينصرهم، ويدفع الضر عنهم؛ بسبب عملهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)﴾.

لما ذكر أن للذين يتذكرون بالآيات عند ربهم دار السلام أتبع ذلك بذكر مثوى الذين لا يتذكرون، وهي النار دار الهوان خالدين فيها.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ حفص وروح ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء، وقرأ الباقون: «نَحْشُرُهُمْ» بالنون؛ وفي كل من القراءتين تعظيم لنفسه عز وجل.

و«يوم» منصوب بفعل محذوف تقديره: «اذكر»، أي: اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتنذرهم به. ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾، أي: جميع الثقلين الإنس والجن.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾، أي: ثم يقول موبخًا للجن الذين أضلوا كثيرًا من الإنس، ومنكرًا عليهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾، «المعشر» الجماعة الذين أمرهم وشأنهم واحد؛ بحيث تجمعهم صفة، مشتق من المعاشرة: وهي المخالطة، وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه، ويجمع على «معاشر»؛ وهو بمعناه.

و«الجن» هم الجنس الذين خلقوا من نار؛ كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾ [الرحمن: ١٥]، وهم الشياطين وإخوانهم من بني جنسهم الجن.

﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، «قد» حرف تحقيق، و«الاستكثار»: شدة الإكثار، والسين والتاء فيه للمبالغة، أي: قد استكثرتم من إضلال الإنس، وإغوائهم، وصدهم عن سبيل الله، أي: أضللتم منهم خلقًا كثيرًا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾، «يعني: أضللتم منهم كثيرًا»(١).

والآية، وإن كان ظاهرها في توبيخ الجن والإنكار عليهم، إلا أن فيها تعريضًا بتوبيخ الإنس أيضًا في اتباعهم الجن وطاعتهم له؛ ولهذا بادر الإنس معتذرين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾، أي: وقال أولياء الجن، أي: الذين والوا الجن وأطاعوهم ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ مجيبين لله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وفي هذا ما يشير إلى أن الجن قد أُفحموا بالمرة وأُلجموا، فلم يقدروا على التكلم أصلًا؛ إذا لا عذر لهم؛ ولهذا تولى أولياؤهم من الإنس الاعتذار عنهم بما لا يدفع ولا ينفع؛ فقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ في الدنيا، أي: انتفع بعضنا ببعض، أي: استمتع وانتفع كل نوع بالآخر.

قال الحسن: «وما كان استمتاع بعضهم ببعض، إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس»(٢).

فاستمتاع الجن بالإنس طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به من الكفر والفسوق والعصيان، والتقرب إليهم، وتعظيمهم، والتعوذ بهم، وإعانتهم على إضلال الناس، والصد عن دين الله؛ فإذا أطاعوهم فقد أعطوهم مناهم.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٨٧).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٨٨).

واستمتاع الإنس بالجن: أنهم أعانوهم على معصية الله تعالى والشرك به بكل ما يقدرون عليه من التحسين والتزيين والدعاء وغير ذلك، فأطاعهم الإنس فيما يرضيهم من الشرك والفواحش والفجور، وأطاعتهم الجن فيما يرضيهم من معونتهم على ذلك؛ فانتفع كل منهم بالآخر.

والفاسق يستمتع بالشيطان بإعانته له على أسباب فسوقه، والشيطان يستمتع منه في قبوله منه وطاعته له، فيسره ذلك، ويفرح به. والمشرك يستمتع به الشيطان بشركه به وعبادته له، ويستمتع بالشيطان بكون الشيطان عونًا له على ذلك.

وفي قول هؤلاء الأولياء: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ ما يشبه الاعتذار عن أوليائهم من الجن، ودفع التوبيخ عنهم؛ بأنهم لم يكونوا مستأثرين بالانتفاع، أو بمعنى آخر لم يكونوا مستأثرين بالاستكثار من إضلالنا، بل كل منا استمتع وانتفع بصاحبه، وأعانه على الكفر.

وهذا أيضًا يحتمل أنهم أرادوا مشاطرة أوليائهم من الجن الذنب؛ إقرارًا بالحق، وإخلاصًا لأوليائهم، أو أنهم أرادوا الاعتذار عن أنفسهم وعن أوليائهم من الجن بأن ما فعلوه لم يكن من باب المخالفة، أو الاستخفاف بأمر الله، لكنه من الاستمتاع والانتفاع من الجانبين.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾، أي: أجل الموت، وأجل البعث، أي: متنا وبعثنا، وهما الأجلان اللذان قال الله فيهما: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

والمعنى: وصلنا الوقت الذي نجازى فيه بالأعمال، فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، قد انقطعت حجتنا، ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك، وكأن في هذا منهم نوع استعطاف وتضرع وترقق، ولكن في غير أوانه؛ ولهذا حكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جور فيه؛ فقال:

﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ الخطاب للصنفين الجن وأوليائهم من الإنس، أي: النار مأواكم ومنزلكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال، أي: حال كونكم خالدين فيها، أي: ماكثين مقيمين فيها أبدًا.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، «إلا» حرف استثناء، «وما» اسم موصول مبني في محل نصب

على الاستثناء المتصل، أي: إلا الذي شاء الله وأراده كونًا.

وحيث تضافرت النصوص من الكتاب والسنة على خلود الكفار في النار خلودًا مؤبدًا؛ فقد اختلف في معنى هذا الاستثناء:

فقيل: يرجع إلى مدة بقائهم في الدنيا. وقيل: إلى مدة بقائهم في البرزخ. وقيل: من بعثهم إلى دخولهم النار. وقيل: إلى مدة تنقلهم بين الجحيم والزمهرير. وقيل: إلا ما شاء الله من زيادة العذاب لو شاء ذلك. وقيل: الاستثناء راجع إلى قدرة الله على رفع العذاب عنهم لو شاء ذلك، أي: إلا ما شاء الله لو أراد رفع العذاب عنهم، فإنه قادر على ذلك، ولكنه عز وجل شاء تخليدهم في النار، وقيل غير ذلك[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، «إن» حرف توكيد ونصب، والخطاب للنبي ﷺ وفي خطاب الله تعالى له، وإضافة ضميره إلى اسم الرب عز وجل وربوبية الله تعالى له ربوبية خاصة؛ تشريف وتكريم له، وعناية به ﷺ.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام؛ بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة؛ بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ فهو سبحانه حكيم، أي: حاكم، له الحكم التام، وحكيم محكم، له الحكمة البالغة.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

وفي ختام الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ما يشبه التعليل والبيان أن ما حكمه الله عز وجل فيهم هو مقتضى حكمه وحكمته وعلمه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾، «الواو» استئنافية، و«الكاف» للتشبيه، والإشارة إلى ما تقدم في الآية السابقة من استكثار الجن من إضلال الإنس وإغوائهم لهم.

و«الباء» في قوله: ﴿بِمَا﴾ للسببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي

---

(١) سيأتي لهذا زيادة بيان- إن شاء الله- عند تفسير قوله تعالى في سورة هود: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١٠٧].

يكسبونه، أو بسبب كسبهم.

والمعنى: كما ولينا شياطين الجن وسلطناهم على إضلال أوليائهم من الإنس؛ بسبب كسبهم وسعيهم بذلك؛ كذلك نولي بعض الظالمين بعضًا، ونسلط بعضهم على بعض؛ بسبب كسبهم وأعمالهم السيئة، وإعراضهم عن ذكر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «من أعان ظالمًا سلَّطه الله عليه»(١).

قال السعدي في كلامه على الآية: «كذلك سنتنا أن نولي كل ظالم ظالمًا مثله، يؤزه إلى الشر، ويحثه عليه، ويزهده في الخير، وينفره منه، وذلك من عقوبات الله العظيمة، الشنيع أثرها، البليغ خطرها، والذنب ذنب الظالم؛ فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى نفسه جنى؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ومنعهم الحقوق الواجبة؛ ولي عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله وحقوق عباده، على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين»(٢).

وقد قيل:

وما من يد إلا يد الله فوقها ... وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيُبْلَى بِظَالِمِ(٣)

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٣٢).
(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٧٥).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٣٩).

قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، «يا» حرف نداء، و«معشر» منادى، وهو مضاف، و«الجن» مضاف إليه، و«الإنس» معطوف عليه.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ الاستفهام للتقرير والتوبيخ والتقريع للكفار من الجن والإنس يوم القيامة.

﴿رُسُلٞ﴾، أي: رسل كثيرون من الله إليكم، ﴿مِّنكُمۡ﴾، أي: من جنسكم، ومن أنفسكم أيها الإنس، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

والرسل إنما هم من الإنس فقط، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠]؛ ولهذا حصر عز وجل النبوة بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام في ذريتهما، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ [الحديد:٢٦]، كما حصر عز وجل النبوة بعد إبراهيم في ذريته، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

ولم يقل أحد أن من الجن رسلًا، لا قبل نوح وإبراهيم ولا بعدهما.

ومما يدل على أن الجن تبع للإنس في هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر»[1].

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾، أي: يقصون ويتلون عليكم آياتي الشرعية التي فيها بيان الحق من الباطل، والحلال من الحرام، والخير من الشر، والوعد والوعيد.

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ معطوف على قوله: ﴿يَقُصُّونَ﴾، أي: يخوفونكم ويحذرونكم لقاء يومكم هذا، يوم القيامة وعذابه لمن عصى الله وخالف أمره، و«هذا» للتعظيم؛ فأقروا بذلك واعترفوا، فقالوا:

﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾، أي: أقررنا على أنفسنا بأن الرسل قد أتتنا بآياتك وأنذرونا لقاء يومنا هذا، وأنه كائن لا محالة، فكذبنا رسلك، وجحدنا آياتك، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨-٩].

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

وهذا كله لا ينافي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ وذلك لاختلاف الأحوال والمواقف يوم القيامة؛ ففي مواقف وأحوال يقرون ويعترفون، وفي أخرى يكتمون؛ وذلك لشدة خوفهم واضطرابهم؛ كما أنهم في مواقف وأحوال تنطق ألسنتهم، وفي أخرى يختم عليها وتنطق جوارحهم.

واستعملت الشهادة في معنى الإقرار؛ لأن أصل الشهادة الإخبار عن أمر تحققه المخبر وتبيَّنه، يُقال: شهد عليه، أي: أخبر عنه خبر المثبت المتحقق.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ معطوف على ما قبله، أي: وخدعتهم الحياة الدنيا بزينتها وزهرتها وزخرفها، وما فيها من اللهو واللعب، والتكاثر والتفاخر؛ فاطمأنوا إليها، ورضوا بها، وألهتهم عن الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٣٢).

ﭐلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وشهدوا على أنفسهم وأقروا يوم القيامة ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿كَٰفِرِينَ﴾، أي: كافرين بالله، مكذبين لرسله وآياته، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٠-١١].

فأما الجن فكفرهم بنصبهم أنفسهم شركاء لله وإضلالهم الإنس، وأما الإنس فكفرهم بضلالهم باتِّباعهم الجن، وتعظيمهم لهم، وعبادتهم من دون الله.

وهذا الخبر بشهادتهم على أنفسهم بالكفر مستعمل في التعجيب من حالهم وسوء نظرهم لأنفسهم؛ بالأمس أوقعوها بالكفر واليوم شهدوا عليها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما ذكر عز وجل من إرسال الرسل يقصون آيات الله تعالى، وينذرون لقاء يوم القيامة وعذابه، أي: إرسالنا الرسل يقصون الآيات وينذرون لقاء يوم القيامة؛ من أجل أن ربك- يا محمد- لم يكن مهلك القرى بظلم.

و«أن» في قوله: ﴿أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ﴾ تفيد معنى التعليل، أي: لأنه لم يكن ﴿مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾، الإهلاك: إعدام الموجود وإماتة الحي؛ فإهلاك القرى: إبادة أهلها وتخريبها وتدميرها.

وقوله: ﴿بِظُلۡمٖ﴾ يحتمل أن المعنى: بظلم منه، أي: لم يكن ليهلكهم قبل تذكيرهم، وإقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الآيات؛ فيكون قد ظلمهم؛ فإنه سبحانه لا يأخذ أحدًا إلا بذنب، ولا يعاقبه إلا بمخالفة أمر الله تعالى ونهيه، وهو ما جاءت به رسله؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحدًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨٢، الأنفال: ٥١، الحج: ١٠].

ويحتمل أن المعنى: ﴿لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ﴾، أي: بظلم منهم، يعني: بشرك كانوا عليه قبل البعثة، حتى يقيم عليهم الحجة بإرسال الرسل والتذكير بالآيات؛

فالمراد بالظلم: الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣].

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين؛ فهو سبحانه لا يظلم أحدًا من خلقه، فلا يعذب أحدًا منهم إلا بذنب حصل منه بعد إقامة الحجة عليه، ولا يعذب أحدًا منهم ظلم نفسه بارتكاب الشرك قبل إقامة الحجة عليه.

﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أن أهلها غافلون، وفي هذا دلالة على أن إهلاك القرى بسبب ظلم أهلها، كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٢]، أي: لم يكن ربك مهلك القرى بظلم والحال أن أهلها غافلون قبل إرسال الرسل إليهم، وإنزال الآيات عليهم، وتذكيرهم وإنذارهم وتحذيرهم وإقامة الحجة عليهم، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤﴾ [طه: ١٣٤]؛ فقوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾، أي: من قبل إرسال الرسول وإنزال الكتاب.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [القصص: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٣٢﴾.

ذكر عز وجل أنه لم يكن مهلكًا أحدًا إلا بعد الإعذار والإنذار لهم، ثم أتبع ذلك بما يشبه الاحتراس والتنبيه أن كلًّا منهم يجازى حسب عمله؛ فكما أنهم ليسوا سواء في الأعمال، فهم كذلك ليسوا سواء في المجازاة.

قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾، أي: ولكل من أهل القرى، أو لكل عامل طاعة وعامل معصية، أو لكل من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝١٨ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٩﴾ [الأحقاف: ١٨-١٩].

﴿دَرَجَٰتٌ﴾ جمع «درجة»، وهي: ما يُرتقى به من أسفل إلى أعلى، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ

ﵟٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖﵞ [المجادلة: ١١]، وإن قصد بها النزول إلى أسفل فهي دركات؛ قال تعالى: ﵟإِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِﵞ [النساء: ١٤٥].

واستعمال «درجات» هنا فيه إشارة لبشارة المؤمنين بعد نذارة الكافرين؛ لتغليب الدرجات على الدركات.

ﵟمِّمَّا عَمِلُواْﵞ، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: من الذي عملوه، أو من عملهم، فهم في أعمالهم مختلفون؛ منهم المؤمن ومنهم الكافر، وهم متفاوتون درجات ومراتب في إيمانهم وفي كفرهم.

فالمؤمنون منهم قوي الإيمان، ومنهم ضعيف الإيمان، ومنهم من هو وسط، ومنهم ما بين ذلك، قال تعالى: ﵟنَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُﵞ [الأنعام: ٨٣، يوسف: ٧٦]، والكافرون منهم من هو موغل في الكفر، ومنهم من هو دونه، ومنهم ما بين ذلك، ومنهم رؤوس في الكفر، ومنهم أتباع مقلدون، وغير ذلك.

وثواب المؤمنين منهم على حسب أعمالهم وقوة إيمانهم وضعفه؛ فهم في الجنة درجات، كل واحدة أعلى من التي قبلها، كما قال تعالى: ﵟهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِﵞ [آل عمران: ١٦٣].

وعذاب الكافرين على حسب مراتب كفرهم وشدته؛ فهم في النار دركات، كل واحدة منها أسفل من التي قبلها؛ قال تعالى: ﵟقَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞﵞ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: ﵟٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ٨٨ﵞ [النحل: ٨٨].

ﵟوَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَﵞ قرأ ابن عامر بالخطاب «تعملون»، والخطاب فيها للكافرين من الجن والإنس؛ وفيه تهديد ووعيد لهم، ويجوز كونه خطابًا للثقلين؛ الجن والإنس؛ فيكون فيه وعد لمن آمن، ووعيد لمن كفر، أو خطابًا للرسول ﷺ والمؤمنين؛ فيكون فيه تعريض بالوعيد للكافرين، ووعد للمؤمنين، أي: وما ربك بغافل عما تعملون أنتم وإياهم.

وقرأ الباقون بالغيبة: ﵟيَعۡمَلُونَﵞ فيعود إلى الكافرين من الجن والإنس.

وفيه تسلية للرسول ﷺ والمؤمنين، وطمأنة ووعد لهم بأن الله ناصرهم وسيكفيهم شر أعدائهم الكافرين.

ويجوز عود الضمير في قوله: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ على الثقلين؛ الجن والإنس؛ فيكون فيه وعد لمن آمن، ووعيد لمن كفر.

وكون الضمير على القراءتين- بالخطاب والغيبة- يعود إلى عموم الجن والإنس، هو الموافق لعموم قوله: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

والمعنى: وما ربك- يا محمد- بغافل عن أعمالهم، بل هو عالم ومحيط بها، لا تخفى عليه منها خافية، وسيجازي كلًّا بعمله؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾.

قوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ الواو عاطفة، أي: وربك- يا محمد-. وفي خطابه عز وجل له، وإضافة اسم «الرب» إلى ضميره ﷺ تشريف وتكريم له، وإشارة إلى عنايته به بربوبيته الخاصة له؛ ولعل هذا هو الغرض من الإظهار بدل الإضمار؛ فلم يقل: وهو الغني.

﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ اسم من أسماء الله تعالى يدل على إثبات صفة الغنى التام له عز وجل، وأنه سبحانه ذو الغنى التام بذاته عن جميع خلقه من جميع الوجوه؛ فلا يحتاج إليهم بحال، وهم الفقراء المحتاجون إليه في جميع الأحوال، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾، أي: صاحب الرحمة، التي هي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له عز وجل، وصفة من صفاته الفعلية؛ يوصلها إلى من شاء من خلقه ويرحمهم بها رحمة عامة وخاصة، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥].

فأمر عز وجل عباده بطاعته، ونهاهم عن معصيته، ووعدهم بالثواب على الطاعة، وتوعدهم بالعذاب على المعصية؛ رحمة بهم، لا لحاجته إليهم؛ فهو الغني بذاته عن جميع خلقه وعن أعمالهم، لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، كما قال تعالى:

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٨].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»[1].

ومن رحمته إمهاله لهم مع ما هم عليه من الكفر والمخالفة، كما قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ [الكهف: ٥٨].

وفي قرن غناه برحمته إشارة إلى فضل غناه، وأنه يحمد عليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]؛ فهو سبحانه محمود في غناه؛ لأنه يرحم به عباده، ويتفضل عليهم.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

ذكر عز وجل أنه ذو الرحمة؛ لهذا أمر عباده بطاعته، ونهاهم عن معصيته، ثم أتبع ذلك بالوعيد والتهديد لمن خالف أمره، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ الآية.

قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، أي: إن يرد كونًا إذا خالفتم أمره ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ بإهلاككم.

﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها، والسين والتاء في «يستخلف» للتأكيد. والاستخلاف جعل الناس يخلف بعضهم بعضًا في الأرض.

﴿مِنۢ بَعْدِكُم﴾، أي: من بعد إذهابكم وإهلاككم لمخالفتكم أمره، وعدم أهليّتكم للخلافة في الأرض.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

﴿مَّا يَشَآءُ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي يشاء من الأقوام، ممن يؤمنون به ويعملون بطاعته، والذين هم أهل للخلافة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾، «الكاف» للتشبيه، و«ما» مصدرية، أي: مثل إنشائه لكم، أي: كما أوجدكم بعد أن كنتم عدمًا، ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾، أي: من نسل قوم آخرين، وجعلكم خلفًا لقوم كانوا قبلكم.

قال ابن القيم: «فهذا قياس جلي بقوله سبحانه: إن شئت أذهبتكم واستخلفت غيركم، كما أذهبت من قبلكم واستخلفتكم»[1].

أي: هو قادر تمام القدرة على إذهابكم واستخلاف من يشاء بعدكم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣].

وفي الآية تنبيه وإشارة إلى أنهم لا بد أن ينتقلوا من هذه الدار، أي: اعلموا أنكم ستنتقلون من هذه الدار؛ كما انتقل غيركم، وترحلون عنها، وتتركونها لمن بعدكم؛ كما رحل عنها من قبلكم وتركوها لكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

قوله: ﴿**إِنَّ مَا تُوعَدُونَ**﴾، «إن» حرف توكيد، و«ما» موصولة، أي: إن الذي توعدونه لآت، واللام في قوله ﴿لَءَاتٍ﴾ للتوكيد أيضًا، فأكد هذا الخبر بمؤكدين؛ لأن المشركين موغلون في الإنكار، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

والمعنى: إن الذي توعدون به من البعث والحساب والعذاب لآت وواقع بكم لا محالة.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٨٤).

وقوله: ﴿تُوعَدُونَ﴾ من وعد يعد وعدًا، وقيل: من أوعد يوعد وعيدًا. والأول أقرب، و«الوعد» قد يستعمل أحيانًا في الشر، أي: في معنى «الوعيد»؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الواو عاطفة، و«ما» نافية، أي: وما أنتم بمعجزين الله تعالى هربًا منه، فتفوتونه وتفلتون من عذابه، أو تخرجون عن قدرته وقبضته؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء.

ومجيء الجملة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ اسمية للدلالة على الثبات والدوام، أي: وما أنتم بمعجزين في أي وقت، وفي أي حال.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

في هذه الآية وعيد أكيد، وتهديد شديد للمكذبين.

قوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «مكاناتكم» بالجمع، وقرأ الباقون: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ بالإفراد.

أي: قل يا محمد لقومك، بعد أن دعوتهم فكذبوك: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: اعملوا على طريقتكم وحالتكم، وما أنتم عليه، وما أنتم عاملون؛ وفي هذا تهديد لهم؛ كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾، أي: إني عامل على ما أنا عليه، وثابت على طريقي ومنهجي في الإيمان بالله والدعوة إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: ١٢١-١٢٢].

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الفاء تعليلية، و«سوف» حرف تنفيس؛ لتأكيد الوقوع في المستقبل، أي: فسوف تعلمون في المستقبل- أيها الكفار المكذبون- عند معاينة العذاب وحلول نقمة الله تعالى فيكم.

﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف «يكون» بالياء على

التذكير، وقرأ الباقون: ﴿تَكُونُ﴾ بالتاء على التأنيث، و«من» موصولة في محل نصب مفعولين «تعملون» ويجوز أن تكون استفهامية في محل رفع مبتدأ، والجملة بعدها خبر.

﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، «العاقبة»: آخر الأمر، وأثر عمل العامل؛ فعاقبة الدار: ما يظهر في آخرها من أثر ونتيجة، أي: فسوف تعلمون من تكون له عقبى الدار ونهايتها ونتيجتها، أهي لي أو لكم؟

والمراد بـ«الدار» الدار الدنيا، أي: فسوف تعلمون عند معاينة العذاب وحلوله بكم أينا الذي هو على الحق؛ فتكون له عقبى هذه الدار الدنيا ونهايتها، وينتفع بثمرة عمله فيها؛ أهو نحن أم أنتم؟

وهذا من التنزل معهم في المقال؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤].

وإلا فهو عليه الصلاة والسلام يعلم علم اليقين أن العاقبة له وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ٢٢].

ويعلم أن عقبى المتقين الجنة وعقبى الكافرين النار، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تأكيد للوعيد، فيه معنى التعليل، أي: لأنه لا يفلح، أي: لا يفوز الظالمون، أي: ستكون لنا عاقبة الدار لا لكم؛ لأنكم ظالمون، ولا يفلح الظالمون، والتعريف في «الظالمون» للاستغراق، يشملهم وغيرهم.

وهكذا كانت العاقبة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١-٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ

لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ [إبراهيم: ١٣-١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير الثقلين- الجن والإنس- بيوم حشرهم جميعا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

٢- إثبات المعاد، وحشر العباد يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾.

٣- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله تعالى: «نحشرهم»، وقوله: ﴿نُوَلِّى﴾ بنون الجمع والعظمة، وفي الإظهار مقام الإضمار؛ كما في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

٤- إثبات الجن، وأنهم مكلفون ومجزيون بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية.

٥- توبيخ الجن وتقريعهم، والإنكار عليهم في إضلالهم كثيرًا من الإنس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾.

٦- شدة أثر شياطين الجن على الإنس، وضعف الإنس أمامهم، إلا الذين آمنوا وتوكلوا على الله؛ فلا سلطان للشيطان عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

٧- اعتذار أولياء الجن من الإنس عنهم بأنهم لم يستأثروا وحدهم بإضلال

الإنس، وإنما استمتع وانتفع بعضهم ببعض، حتى بلغوا أجلهم بالموت، ثم البعث والوقوف بين يدي الله عز وجل، واستسلموا لأمر الله؛ ليفعل بهم ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾.

٨- عجز الجن عن الاعتذار عن استكثارهم من إضلال الإنس؛ لأنه لا عذر لهم؛ ولهذا ألجموا بالمرة، واعتذر عنهم أولياؤهم من الإنس بما لا يكفي ولا يشفي.

٩- موالاة شياطين الإنس والجن بعضهم بعضًا، وانتفاع بعضهم ببعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾.

١١- أن الله تعالى قضى أجلًا لجميع الخلق؛ أجلًا لموتهم، وأجلًا لبعثهم ووقوفهم بين يديه؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

١٢- أن النار مثوى ومأوى جميع الكافرين من الإنس والجن؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾.

١٣- خلود أهل النار من الكفار فيها؛ لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه ﷺ، وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾.

١٥- إثبات صفة الحكم والحكمة لله عز وجل؛ فهو حاكم محكم متقن لما خلق وقدر وشرع؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

١٦- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

١٧- في اقتران تمام الحكم والحكمة والعلم في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

١٨- أنه كما ولى عز وجل شياطين الجن، وسلطهم على شياطين الإنس يولي بعض الظالمين بعضًا؛ بسبب كسبهم السيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا

كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

١٩- تولي بعض الظالمين، وتسليط بعضهم على بعض؛ ابتلاء وامتحانًا من الله عز وجل لهم بسبب ظلمهم.

٢٠- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

٢١- عناية الله عز وجل بخطاب الجن والإنس؛ لتكرار النداء لهم؛ بقوله: ﴿ يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾.

٢٢- توبيخ الجن والإنس، وتقريعهم، وتقريرهم بإتيان الرسل إليهم يقصون عليهم آيات الله، وينذرونهم لقاء يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾، ومع هذا لم ينجع ذلك فيهم.

٢٣- منة الله تعالى على الإنس؛ بكون الرسل منهم، يفهمون عنهم ويأخذون منهم؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾، أي: منكم أيها الإنس، أما الجن فليس منهم رسل، وهم تبع للإنس في أمر الرسالات.

٢٤- أن من أعظم مهمات الرسل عليهم السلام تبليغ آيات الله تعالى ووحيه، والإنذار من لقاء يوم القيامة وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾.

٢٥- وجوب التفكر والتدبر في آيات الله تعالى، والاستعداد ليوم القيامة، والحذر من عذابه.

٢٦- شهادة الجن والإنس على أنفسهم بإتيان الرسل إليهم بالآيات وإنذارهم يوم القيامة، وإقرارهم على أنفسهم بالكفر بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾.

٢٧- اغترار كثير من الجن والإنس بالحياة الدنيا وزينتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾.

٢٨- التحذير من الحياة الدنيا وغرورها؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾، قال

تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر: ٣٣].

٢٩- كمال العدل في محاسبة الخلائق؛ فإن الله لا يعذب أحدًا منهم حتى يشهد على نفسه، وتشهد عليه جوارحه بما اقترف؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾؛ وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

٣٠- إقامة الحجة على الخلق بإرسال الرسل بالآيات وتبليغهم وإنذارهم يوم القيامة وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾.

٣١- أن الله تعالى لا يهلك القرى بسبب ما هم عليه من الظلم والشرك وهم غافلون فيظلمهم، بل لا يهلكهم حتى يعذر إليهم بإرسال الرسل والآيات والإنذار.

٣٢- أن لكل العاملين درجات من أعمالهم؛ فهم مختلفون بين مؤمن وكافر، والمؤمنون منهم متفاوتون في درجات إيمانهم، والكافرون منهم متفاوتون في مراتب كفرهم، وثواب من آمن منهم درجات حسب إيمانهم وأعمالهم، وعذاب من كفر منهم دركات حسب شدة كفرهم وسوء أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

٣٣- أن الله مطلع على أعمال الخلق، وشاهد عليها، ليس بغافل عنها، ولا يخفى عليه منها شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

٣٤- إثبات اسم الله تعالى «الغني»، وأنه سبحانه ذو الغنى التام بذاته عن جميع خلقه، وهم الفقراء إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾.

٣٥- إثبات صفة الرحمة لله تعالى؛ رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

٣٦- أن الله عز وجل أمر الخلق بطاعته، ونهاهم عن معصيته؛ رحمة بهم؛ ليثيبهم وينجيهم من العذاب، لا لحاجته إليهم فهو الغني بذاته عن جميع خلقه.

٣٧- قدرة الله تعالى التامة على إذهاب الخلق، واستخلاف غيرهم ممن يؤمنون به ويطيعونه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾، وفي هذا تهديد للمكذبين.

٣٨- أن ما وعد به الناس من البعث والحساب والجزاء على الأعمال آت وواقع بهم لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾.

٣٩- أن الخلق لا يستطيعون الإفلات من قبضة الله تعالى، ولا الهروب من عذابه، ولا يعجزونه؛ لقدرته التامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

٤٠- إمهال المكذبين، وتهديدهم ووعيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٤١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى له: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ﴾.

٤٢- إعلانه ﷺ ثباته على الإيمان والعمل والدعوة إلى الله تعالى، وإن خالفه من خالفه، وكذبه وما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾، وفي هذا ما لا يخفى من التحدي للمكذبين الذين يريدون صرفه عن أداء رسالته.

٤٣- تنزله ﷺ في المقال معهم؛ لقوله ﷺ: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، وهو ﷺ يعلم يقينا أن العاقبة له وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

٤٤- خسران الظالمين وخيبتهم، وأنهم لا يمكن أن يفلحوا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وفيه إشارة إلى أن قومه ﷺ كانوا ظالمين، ولن يفلحوا ولن تكون لهم عاقبة الدار.

*   *   *

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ في الآية السابقة بتهديد المشركين بعد مكابرتهم بالكفر والتكذيب له ﷺ بقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، ثم ذمهم ووبخهم في هذه الآيات، مبينًا قبح ما هم عليه من الكفر والشرك، والخرافات، والابتداع في التحليل والتحريم، والافتراء على الله تعالى؛ مما يدل على سفاهة عقولهم وخفة أحلامهم وجهلهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ الواو استئنافية، و«جعل» هنا بمعنى: صيَّر، مفعولها الأول قوله: ﴿نَصِيبٗا﴾ والثاني قوله: ﴿لِلَّهِ﴾، وقدم على المفعول الأول؛ للدلالة على الاختصاص، أي: نصيبًا خاصًّا لله.

﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ متعلق بـ«جعلوا»، وفصل به بين المفعولين للتشنيع عليهم، والدلالة على سفاهة آرائهم؛ إذ ملَّكوا الله بعض ملكه؛ لأن ما ذرأه هو ملكه، وهو حقيق به بلا جعل منهم؛ ولهذا لم يقل: «وجعلوا لله من الحرث والأنعام».

و«ما» في قوله: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ موصولة، أي: من الذي خلق وبرأ وأنشأ.

﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾، «من» بيانية، أي: من الزروع والثمار.

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ بهيمة الأنعام الإبل والبقر والغنم، أي: صيَّروا وخصصوا لله وصرفوا له مما خلقه من الحرث والأنعام.

وفي حديث أبي طلحة رضي الله عنه، قال ﷺ: «**وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**»(١)، أي: تصيرها وتصرفها فيهم.

﴿نَصِيبًا﴾، أي: حظًّا وجزءًا وقسمًا، والتقدير: وجعلوا لله نصيبًا ولشركائهم نصيبًا؛ بدليل قوله: ﴿فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ الآية.

قيل: وكانوا يصرفون ما جعلوه لله إلى الضيفان والمساكين، ويصرفون ما جعلوه للشركاء للتنسك والسدنة.

﴿فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ﴾ الفاء عاطفة، والإشارة للنصيب الذي جعلوه لله من الحرث والأنعام، أي: هذا النصيب خاص لله.

﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ قرأ الكسائي بضم الزاي: ﴿بِزُعْمِهِمْ﴾، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾. والزعم: الاعتقاد الفاسد والكذب، وفي الحديث: «**بئس مطية الرجل زعموا**»(٢).

والباء في قوله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ قيل: بمعنى «من»، وقيل: للسببية.

﴿وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ الإشارة للنصيب والقِسم الآخر من الحرث والأنعام، أي: هذا النصيب منها لله، وهذا النصيب منها لشركائنا، يعنون شركاءهم من الجن، وآلهتهم من دون الله من الأصنام ونحوها.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الفاء عاطفة، و«ما» اسم شرط جازم، و«كان» فعل الشرط، وجوابه ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والفاء رابطة لجواب الشرط.

والمعنى: فما كان من النصيب خاصًّا لشركائهم- حسب قسمتهم- فلا يصل إلى

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦١)، ومسلم في الزكاة (٩٩٨)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٧٢)، من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

الله، أي: أنهم يحفظون ما خصصوه من نصيب لشركائهم ويعتنون فيه، فلا يسمحون أن يصل منه شيء إلى النصيب الذي جعلوه لله، ولو وصل إلى ما جعلوه لله شيء مما جعلوه لشركائهم ردوه إلى محله، وقالوا: إنها فقيرة لا بد من رد نصيبها.

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾، أي: وما كان من النصيب خاصًّا لله- حسب قسمتهم- فهو يصل إلى شركائهم، أي: لا مانع لديهم من وصوله إلى نصيب شركائهم، ولا يبالون به، ولا يهتمون له؛ فإن وصل شيء منه إلى نصيب شركائهم لم يردوه، وقالوا: الله غني عنه.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾، قال: «كانوا إذا أدخلوا الطعام جعلوه حزمًا؛ جعلوا لله منها سهمًا، وسهمًا لآلهتهم؛ وكان إذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لآلهتهم إلى الذي جعلوه لله ردوه إلى الذي جعلوه لآلهتهم، وإذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لآلهتهم أقروه ولم يردوه؛ فذلك قوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾»[1].

وقال آخرون: معنى قوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ أنهم كانوا لا يأكلون ما ذبحوا لله حتى يسموا الآلهة، وما ذبحوه للآلهة يأكلونه ولا يسمون الله عليه[2].

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: ساء الذي يحكمون، أو ساء حكمهم.

فقد أخطؤوا أولًا في جعل هذه القسمة؛ إذ كيف يجعلون لله نصيبًا من الحرث والأنعام وهو مالكهم وإياها؟!، أي: كيف يجعلون لله نصيبًا من ملكه، وهو المالك المتصرف وحده في كل شيء؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: ١٥].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٦٩)، وأخرجه بمعناه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن مجاهد وقتادة. انظر: (٩/ ٥٦٩-٥٧١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٧٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٣٩٢).

وأخطؤوا ثانيًا فيما زعموا من هذه القسمة الفاسدة فلم يحفظوها، بل جاروا فيها؛ فجعلوا ما كان لشركائهم لا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم.

كما أخطؤوا في نسبة الولد إليه عز وجل، وجاروا بجعل الذكر لهم وله الأنثى، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧].

قال السعدي: «ويُحتمل أن تأويل الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن الله تعالى أنه قال: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**[1]»[2].

أي: أن معنى الآية: أن ما جعلوه لله- على زعمهم- فإنه لا يصل إليه؛ لكونه شركًا، بل يكون حظ الشركاء والأنداد؛ لأن الله غني عنه لا يقبل العمل الذي أُشرك به معه أحد من الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

بعد أن ذكر عز وجل سوء تصرفهم في نتاج أموالهم ذكر سوء تصرفهم في أولادهم.

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾.

قرأ ابن عامر: ﴿زُيِّنَ﴾ بضم الزاي وكسر الياء، و﴿قَتْلُ﴾ بالرفع على أنه نائب فاعل، و﴿أَوْلَٰدَهُمْ﴾ بنصب الدال؛ على أنه مفعول للمصدر ﴿قَتْلُ﴾، وكسر همزة ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ بإضافة ﴿قَتْلُ﴾ إليه، مع الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ﴿أَوْلَٰدَهُمْ﴾، و﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾- على هذا- فاعل في المعنى.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٨١).

وقرأ الباقون: ﴿زَيَّنَ﴾ بفتح الزاي والياء، و﴿قَتْلَ﴾ بالنصب على أنه مفعول ﴿زَيَّنَ﴾، و﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾ بكسر الدال بإضافته إلى ﴿قَتْلَ﴾، ورفع ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ على أنه فاعلُ ﴿زَيَّنَ﴾.

والمعنى: وكما زين لهؤلاء المشركين شركاؤهم وشياطينهم أن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا؛ كذلك زينوا لهم قتل أولادهم.

والتزيين: التحسين، أي: وكذلك حسَّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم؛ فكانوا يقتلون الإناث مخافة العار والفقر، ويقتلون الذكور مخافة الفقر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨-٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يردوهم، أي: يهلكوهم الهلاك المعنوي بالكفر والمعاصي.

﴿وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾، أي: ولأجل أن يلبسوا، أي: يخلطوا عليهم دينهم؛ فيوهمون الضلال رشدًا، وأن الأصنام تقربهم إلى الله تعالى، وأن قتل الأولاد مصلحة.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وضمير الرفع في «فعلوه» يعود إلى المشركين وشركائهم، وضمير النصب يعود إلى التزيين والقتل، أي: ولو شاء الله- أي: ولو أراد الله كونًا- ما فعل أولئك المشركون والشركاء ما ذكر من التزيين، والقتل، وإرادة الإهلاك، والتلبيس في الدين، أي: أن ذلك كله بمشيئة الله تعالى وإرادته الكونية، وله في ذلك الحكمة البالغة، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، والواو عاطفة، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: فذرهم، أي: اتركهم ودعهم والذي يفترونه، أو وافتراءهم.

والافتراء: اختلاق الكذب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

والمعنى: ودعهم واتركهم وما يختلقون ويتقولون على الله من الكذب، كما قال تعالى: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وقال تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وفيه تسلية له ﷺ، ووعيد لهم، أي: فلا تبالهم؛ فإني لهم بالمرصاد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وهذا أيضًا مما زينه لهم شركاؤهم؛ من التحجير في أموالهم، والتحريم لظهور بعضها، وتحريم ذكر اسم الله على بعضها.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾، أي: وقال هؤلاء المشركون: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾؛ فقسموها ثلاثة أقسام: منها ما هو حجر لا يطعمه إلا من شاؤوا بزعمهم، ومنها محرمة الظهور، ومنها ما لا يذكرون اسم الله عليه وأجمل في ذكرها ولم يعينها؛ لأنه لا فائدة في تعيينها.

وقال بعضهم قوله: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾، أي: ما جعلوه لله ولآلهتهم في الآية السابقة.

وقال بعضهم: المراد بـ«الأنعام» في الآية: البحيرة والسائبة والوصيلة التي سموا.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «الحجر: الحرام، بما حرموا من الوصيلة، وتحريم ما حرموا»[1]، وبهذا قال جمع من السلف[2].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٩٣).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

ومعنى ﴿حِجْرٌ﴾، أي: ممنوع؛ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢]، أي: هذه أنعام وحرث محرمة، أو حرام؛ ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾، أي: لا يأكل لحمها.

﴿إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾، «إلا» أداة حصر، و«من» موصولة، أي: لا يأكل لحمها إلا الذي نشاء، أي: إلا الذي نُعيِّن ونريد أن يطعمها، قيل: احتجروها لآلهتهم، وقيل: للرجال دون النساء.

﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ الباء قيل: بمعنى «عن»، وقيل: للملابسة، أي: يقولون ذلك باعتقادهم الباطل.

﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾، أي: حرم ركوبها والحمل عليها، وهي ما يسمونه بـ«الحام».

﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾، أي: لا يذكرون اسم الله عليها عند ذبحها أو نحرها، وإنما يذكرون عليها أسماء أصنامهم وآلهتهم ومعبوداتهم من دون الله، ويزعمون أن ما أُهدي للجن أو للأصنام يذكر عليه اسم ما قرب له؛ لتكون هذه القرابين خالصة لما عينت له، وهم في كل ما ذكر يزعمون أن الله أمرهم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾، أي: افتراء على الله وكذبًا عليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، «ما» مصدرية، أو موصولة، أي: سيجزيهم بافترائهم، أو بالذي كانوا يفترونه عليه، ويسندونه إليه؛ من إحلال الشرك، وتحريم الحلال. وفي هذا وعيد وتهديد لهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

قولـــــه: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾، أي: وقال المشركون من ضمن افترائهم على الله في التحليل والتحريم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، «ما» موصولة، أي: الأجنة التي في بطون هـذه الأنعـام، أو الأجنة واللبن.

قيل: الإشارة إلى أنعام بيِّنَةٍ عندهم بصفاتها، أو الأنعام المذكورة قبل، أو البحائر والسوائب ونحوها؛ وليس لتحديدها فائدة.

﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾، أي: حلال لهم خاصة أكله، وقولهم: «خالصة» للمبالغة في تحقيق خلوص ما في هذه الأنعام التي عينوها لذكورهم فقط.

﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾، أي: ومحرم أكله على أزواجنا، هذا إذا ولد حيًّا.

﴿وَإِن يَكُن﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «تكن» بالتاء على التأنيث، وقرأ الباقون: ﴿يَكُن﴾ بالياء على التذكير.

وقرأ ابن عامر: «مَيِّتةٌ» بتشديد الياء ورفع التاء، وقرأ ابن كثير وأبو جعفر بتخفيف الياء مع رفع التاء: «ميْتةٌ»، وقرأ الباقون أيضًا بتخفيف الياء لكن مع نصب التاء: ﴿مَّيْتَةً﴾.

والمعنى: وإن يكن ما في بطون هذه الأنعام من الأجنة ميتة بأن يولد ميتًا.

﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾، أي: الذكور والإناث، أي: فهو حلال أكله للذكور والإناث.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ وعيد وتهديد لهم، و«السين» للاستقبال، ﴿وَصْفَهُمْ﴾، أي: كذبهم على الله بالتحليل والتحريم؛ حيث وصفوا ما أحل الله بأنه حرام، ووصفوا ما حرمه بأنه حلال؛ فخالفوا شرع الله، ونسبوا ذلك إلى الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦].

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ جملة مستأنفة فيها معنى التعليل، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه، يضع الأشياء مواضعها، له الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم

الكوني، والشرعي، والجزائي، وله الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فهو الذي قدر وحكم كونًا بما وقع من المشركين من تحليل وتحريم مما يخالف حكمه الشرعي، وسيجازيهم بحكمه الجزائي، وله الحكمة البالغة في ذلك كله، وفي إمهالهم، وتمكينهم مما هم فيه من الضلال.

﴿عَلِيمٌ﴾ ذو العلم الواسع؛ فهو عليم بالمشركين، وبما يعملونه، وبما يقولونه ويفترونه، وبجميع أعمال عباده، وبكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

ذكر في الآيات السابقة ما هم عليه من الافتراء والكذب على الله تعالى، ثم ذكر في هذه الآية تحقق خسرانهم وضلالهم، وبعدهم عن الهدى.

قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، «قد» حرف تحقيق. والخسران في الأصل: عدم الربح مع ضياع بعض رأس المال أو كله، وهو ما حصل لهؤلاء بشركهم، وقتل أولادهم، وتحريم ما رزقهم الله.

فخسروا أولادهم في الدنيا، وضيَّقوا على أنفسهم وعلى الناس في تحريم ما رزقهم الله، بل خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، وخسروا أنفسهم وأهليهم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

﴿الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ قرأ ابن عامر بالتشديد: «قَتَّلوا»، والباقون بالتخفيف.

﴿سَفَهًا﴾ حال أو مصدر، أي: جهلًا ونقصًا في عقولهم.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في محل نصب حال مؤكدة لمعنى السفه، والباء للملابسة.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ

سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾»[(١)].

يعني- والله أعلم- من قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] فقوله: «ما فوق الثلاثين ومئة»، أي: تقريبًا.

وعن قتادة قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فقال: هذا صنيع أهل الجاهلية، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة، ويغذو كلبه.

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ وهم أهل الجاهلية، جعلوا بحيرة وسائبة ووصيلة وحاميًا تحكمًا من الشياطين في أموالهم»[(٢)].

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾، «ما» موصولة، أي: وحرموا الذي رزقهم الله، أي: الذي أعطاهم الله من الحرث والأنعام؛ كما ذكر الله عنهم في الآيات السابقة؛ فحرموا الانتفاع به، وحرموا الناس ذلك.

﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾، «افتراء» مفعول مطلق، أي: كذبًا على الله، وتقوُّلًا عليه.

﴿قَدْ ضَلُّوا﴾، أي: قد تاهوا وبعدوا عن الحق والصواب، وتحقق ضلالهم.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ تأكيدًا لشدة ضلالهم، ومبالغة في نفي الهداية عنهم، أي: قد ضلوا ضلالًا بعيدًا، وما كانوا مهتدين فيما فعلوه، ولا موفقين للصواب.

الفوائد والأحكام:

١- ذم المشركين، وتوبيخهم، وبيان عوار وقبح ما هم عليه من الكفر والشرك والابتداع في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾.

٢- جهل المشركين وخطؤهم؛ حيث جعلوا لله من الحرث والأنعام نصيبًا، وهو الذي ذرأها، وهو مالكها ومالكهم ومالك الملك كله؛ فكيف يجعلون له نصيبًا من ملكه؟! لقوله تعالى: ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ﴾.

٣- أن كل ما في الكون هو مخلوق لله تعالى ذرأه وبرأه، لا شريك له في ذلك.

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٢٤).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٩٢).

٤- الامتنان بإيجاد الحرث والزروع والأنعام رزقًا للعباد.

٥- تراكم جهل المشركين وخطئهم، فأخطؤوا أولًا في جعلهم لله نصيبًا من ملكه، وهو مالك الملك كله، وجهلوا وأخطؤوا ثانيًا حين حكموا بأن ما لشركائهم- حسب قسمتهم- لا يصل إلى الله، وما كان لله- حسب قسمتهم- فهو يصل إلى شركائهم؛ فأخطؤوا في القسمة من حيث الأصل، وجاروا فيها لما قسموا؛ لقوله تعالى: ﴿**فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ**﴾.

٦- سوء حكم المشركين في هذه القسمة؛ لقوله تعالى: ﴿ **سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾.

٧- تعظيم المشركين لشركائهم أكثر من تعظيمهم لله تعالى؛ لهذا اعتنوا بحفظ ما جعلوه من نصيب لشركائهم، وربما جعلوا لها النصيب الأكبر، بينما فرطوا فيما جعلوه من نصيب لله- حسب قسمتهم- الباطلة الجائرة.

٨- تزيين الشركاء من شياطين الجن والإنس لكثير من المشركين قتل أولادهم مخافة الفقر والعار؛ لقوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ** ﴾.

٩- أنه كما زين لهؤلاء المشركين شركاؤهم وشياطينهم أن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا؛ كذلك زينوا وحسنوا لهم قتل أولادهم.

١٠- حرص الشركاء من شياطين الجن والإنس على إهلاك الناس، وبخاصة أتباعهم، وتلبيس أمر دينهم عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿**لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ**﴾.

١١- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله: ﴿**وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ**﴾.

١٢- أن ما يحصل من تزيين الشركاء للمشركين قتل أولادهم، ومن قتل المشركين أولادهم، كل ذلك بتقدير الله ومشيئته، فلو شاء ما فعلوه؛ لقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ** ﴾، وكذلك كل ما يجري في الكون من خير أو شر هو بتقدير الله ومشيئته.

١٣- تسلية النبي ﷺ، وتهديد المشركين وشركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿**فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴾.

١٤- أن الرسول ﷺ ليس إليه هداية الخلق ولا حسابهم، فذلك كله إلى الله، كما

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

١٥- تزيين الشركاء والشياطين للمشركين التحجير في أنعامهم وحرثهم بتحريم أكلها إلا على من شاؤوا، وتحريم ركوب بعضها، وعدم ذكر اسم الله على بعضها، ونسبة ذلك إلى الله تعالى افتراء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾.

١٦- الوعيد للمشركين؛ لافترائهم على الله في التحليل والتحريم وإشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانًا؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

١٧- تحريم المشركين ما في بطون بعض الأنعام من ألبان أو أجنة تولد حية على نسائهم، وتحليلها خالصة لذكورهم، وتحليلهم ما يولد من الأجنة ميتًا للذكور والإناث، ونسبتهم ذلك إلى الله كذبًا وافتراءً على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾.

١٨- ظلم أهل الجاهلية للمرأة في تحريمهم عليها أكل ما في بطون بعض الأنعام دون الذكور.

١٩- التهديد للمشركين بكذبهم على الله تعالى في تحريم ما في بطون بعض الأنعام على إناثهم دون ذكورهم، وإباحة ما ولد من الأجنة ميتًا للذكور والإناث؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾.

٢٠- أن الله عز وجل ذو الحكم التام كونًا وشرعًا وجزاءً وذو الحكمة البالغة؛ الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ له الحكمة فيما قدر من افتراءات هؤلاء المشركين، وله الحكمة في مجازاتهم على وصفهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾.

٢١- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ فهو عليم بكل شيء، عليم بالمشركين وافترائهم، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون؛ ولهذا قال: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾.

٢٢- إثبات وتحقيق خسارة الذين قتلوا أولادهم مخافة الفقر والعار، وحرموا ما رزقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٢٣- سفاهة عقول الذين قتلوا أولادهم وجهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٢٤- تحقق ضلال من قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم، وحرموا ما رزقهم الله تعالى، وعدم اهتدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة تصرف المشركين بآرائهم الفاسدة بما رزقهم الله من الحرث والأنعام، وجعلهم- جهلًا منهم وسفهًا- لله نصيبًا منها ولشركائهم نصيبًا، وجعلهم منها حرامًا وحلالًا، ثم بين في هذه الآيات- ممتنًّا على العباد- أنه هو وحده الذي أنشأ تلك الحروث والأنعام، وأنها ملكه وحده، وهو ما أشار إليه قبل هذا بقوله: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾؛ فكيف يجعل هؤلاء المشركون له نصيبًا مما خلق، وكيف يتصرفون بتحجير وتحريم ما أباحه الله لعباده ورزقهم؟! وفي هذا إبطال لما ابتدعوه كله من تقسيم وتحريم، مع بيان وجوب إعطاء حق الله تعالى فيه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ﴾، أي: وهو وحده لا غيره ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾، أي: أوجد وخلق. والإنشاء: الإيجاد والخلق؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ [الواقعة: ٣٥].

﴿جَنَّٰتٍ﴾، أي: بساتين كثيرة الأشجار، متنوعة الثمار، أي: أنبت جنات، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٤].

﴿مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ صفة لـ«جنات»، أي: مما يجعل لها عريشًا، أي: سقفًا يرفع على أعمدة؛

لتنتشر عليه أغصانها وعناقيدها وثمارها، فلا تكون على وجه الأرض، مما يساعد على نموها وصلاح ثمارها، كأشجار العنب.

﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾، أي: قائمة بنفسها على ساقها، أو منبسطة على وجه الأرض، لا تحتاج إلى عرش.

وفي هذا كله إشارة لكثرتها، وكثرة ثمارها، وتنوع منافعها.

﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾، «مختلفًا» حال، أي: وأنشأ النخل والزرع حال كونه مختلفًا أكله.

قرأ نافع وابن كثير بضم الهمزة وسكون الكاف: ﴿أُكْلُهُۥ﴾، وقرأ الباقون: ﴿أُكُلُهُۥ﴾ بضمهما.

أي: مختلفًا ما يخرج منه ويؤكل- من الثمر والحب- في الطعم، والشكل، واللون، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق: ٩-١١].

ونص على النخل والزرع لكثرة منافعهما وكونهما قوتًا لأكثر الخلق.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، «متشابهًا» حال، أي: وأنشأ الزيتون والرمان حال كونه ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، أي: متشابهًا في منظره وشكله ولونه في شجره وورقه، وغير متشابه في ثمره وطعمه.

وقال فيما سبق ﴿مُشْتَبِهًا﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال هنا: ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ والمعنى واحد؛ فالاشتباه والتشابه هو ما يحصل من جانبين.

﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الثاء والميم: «ثُمُرِهِ»، وقرأ الباقون: ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾ بفتحهما، أي: كلوا من ثمر ما أنشأه الله لكم من النخل والزرع وغيرهما.

﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾، «إذا» ظرف بمعنى: «حين»، أي: حين يثمر.

والأمر للإباحة، وفيه امتنان على المؤمنين، وتعريض بذم المشركين، وتسفيه عقولهم؛ لتحريمهم على أنفسهم ما أحله الله عز وجل، وتضييقهم على أنفسهم.

وقال هنا: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾؛ لأن هذه الآية سيقت في معرض الامتنان.

بينما قال في الآية السابقة: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩]؛ لأنها سيقت في معرض بيان كمال قدرة الله تعالى على الخلق وإعادة الأجسام.

فحصل من مجموع الآيتين النفع الأخروي والدنيوي، وقدَّم النظر؛ لأنه أهم.

﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وابن عامر وعاصم: ﴿حَصَادِهِۦ﴾ بفتح الحاء؛ وقرأ الباقون: «حِصاده» بكسرها.

والأمر للمؤمنين، وهو للوجوب؛ بقرينه قوله: ﴿حَقَّهُۥ﴾، أي: حقه الواجب فيه، وهي الزكاة المفروضة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾، أي: يوم حصاد الزرع، وجذاذ النخل.

أي: وأعطوا حق الزرع والثمر الواجب فيه، وهي الزكاة؛ كما حددتها السنة العشر أو نصف العشر، يوم حصاده وجذاذه من غير تأخير؛ لتشوف نفوس الفقراء إليه في هذا الوقت، وليكون الأمر ظاهرًا؛ ليتبين من أخرجها ممن لم يخرجها؛ لأنها أموال ظاهرة.

والمقصود من قوله: ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ يوم حصاده وتصفيته.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ يعني بـ﴿حَقَّهُۥ﴾: زكاته المفروضة يوم يُكال ويُعلم كيله»(١).

وكذا جاء عن أنس وجمع من التابعين: أن المراد بـ«حقه» الزكاة(٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر من كل جاذ عشرة أوسق من التمر بقنو يعلق في المساجد للمساكين(٣).

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٣٩٨).
(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٩٥)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٣٩٨).
(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب في حقوق المال (١٦٦٢)، وأحمد (٣/ ٣٥٩، ٣٦٠).

وقد ذم الله سبحانه وتعالى الذين يصرمون ويمنعون حق المساكين؛ كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة ﴿نٓ﴾؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾...﴾ الآيات [القلم: ١٧-٣٣].

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿كُلُوا۟﴾، أي: كلوا من ثمره، ولا تسرفوا في الأكل مما يضر بالزكاة، ويضر بالعقول والأبدان والأموال. والإسراف: مجاوزة الحد المباح والتبذير؛ قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال ﷺ: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدّقوا في غير إسرافٍ ولا مخيلةٍ**»[1].

وقيل: إن قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ﴾؛ فيكون المنهي عنه الزيادة عن الواجب إخراجه في الزكاة بحيث يضر نفسه، أو أهل بيته، أو غرماءه.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ تعليل للنهي عن الإسراف، أي: لأن الله لا يحب المسرفين، وهو استئناف يراد به تعميم حكم النهي عن الإسراف، وأكدَّ بـ«إن» لزيادة تقرير الحكم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، أي: وأنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشًا.

و«الأنعام»: الإبل والبقر والضأن والمعز، و«الحمولة»: ما يحمل عليه المتاع ويركب منها؛ وهي الإبل، و«الفرش» الإبل الصغيرة والبقر والضأن والمعز.

وقيل: الحمولة كل ما يركب من الإبل والخيل والبغال والحمير وغير ذلك.

---

(١) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٥٩)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٥)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

والفرش: البقر والغنم، وما يؤكل، ويحلب، ويتخذ من صوفه لحافًا وفرشًا.

والمعنى: وأنشأ لكم وخلق وأوجد من الأنعام ما تحملون عليه متاعكم وتركبونه، وفرشًا تأكلونه، وتشربون لبنه، وتنتفعون بصوفه وشعره ووبره، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: ٧١-٧٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [غافر: ٧٩-٨٠].

﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الأمر للإباحة، وهو هنا متضمن النهي عن ضده وهو عدم الأكل، واقتصر على الأمر بالأكل؛ لأنه المقصود من السياق؛ إبطالًا لتحريم ما حرموه على أنفسهم؛ ولهذا قال: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، ولم يقل: (كلوا منها).

و«ما» موصولة، أي: من الذي رزقكم الله، أو مصدرية، أي: من رزق الله لكم، أي: من عطاء الله تعالى لكم، أي: كلوا من الذي رزقكم الله، أي: أعطاكم من الثمار والزرع والأنعام؛ فكلها أنشأها الله، وجعلها رزقًا لكم؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، أي: لأجلكم.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة وخلف وأبو بكر عن عاصم «خُطْوات» بإسكان الطاء، وقرأ الباقون بضمها: ﴿خُطُوَٰتِ﴾.

وخطوات الشيطان: طرقه ومسالكه، وعمله، وتزيينه، وهمزاته، ووساوسه، أي: ولا تتبعوا خطوات الشيطان وتزيينه في تحريم ما أحل الله لكم ورزقكم من الحرث والأنعام، أو في تحليل ما حرم عليكم، وفي الإسراف في الأكل والإنفاق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل للنهي.

﴿إِنَّهُۥ﴾، أي: الشيطان، ﴿لَكُمْ﴾ يا بني آدم، ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، أي: عدو ظاهر العداوة؛ كما أخرج أبويكم من الجنة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ

ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾.

امتن الله عز وجل في الآية السابقة على عباده بما أنشأه وخلقه لهم من الأنعام يحملون عليها، ويركبونها، ويأكلون لحمها، ويشربون لبنها، وينتفعون بها أنواع المنافع، ثمَّ فصَّلها في هاتين الآيتين.

قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾، «ثمانية» منصوب بدل من قوله «حمولة»، و«أزواج» مضاف إلى «ثمانية»، وهو جمع «زوج».

﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، أي: زوجين، ذكر وأنثى، وهما (الكبش) و(الشاة)؛ فالذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾ [النجم: ٤٥].

﴿وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر من غير طريق الداجوني بفتح العين: «المَعَز»، وقرأ الباقون: ﴿ٱلۡمَعۡزِ﴾ بإسكانها.

أي: ومن المعز زوجين: ذكر؛ وهو (التيس)، وأنثى؛ وهي (العنز)؛ فيُقال للذكر من الحيوان: زوج، ويُقال للأنثى: زوج، ناطقًا كان أو بهيمًا.

وهكذا خلق الله عز وجل من كل شيء زوجين، أي: صنفين، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ [الذاريات: ٤٩].

فذكر وأنثى، وأرض وسماء، وشمس وقمر، وليل ونهار، وضوء وظلام، وبياض وسواد، وحلو ومر، وحر وبرد، وصيف وشتاء، ونوم ويقظة، وحياة وموت، إلى غير ذلك.

﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ الاستفهام للإنكار والتقرير، والتعريف في «الذكرين» للجنس، و«أم» هنا وفي الموضعين بعده عاطفة، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء

المشركين الذين حرموا ما أحل الله: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز حرَّم الله عليكم ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما.

﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ معطوف على ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، أي: أم حرَّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز؛ ذكرًا كان أو أنثى، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الباء في قوله ﴿بِعِلْمٍ﴾ للملابسة، أي: إنباءً ملابسًا للعلم، أي: إنباء عالمٍ.

والمعنى: أخبروني بعلم، أي: بدليلٍ نقلي عن الله ورسله، أو عقلي، في أن الله حرَّم ما حرَّمتموه، وهذا تهكم بهم في تحريمهم ما حرَّموا بلا دليل ولا تعليل صحيح.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: إن الله حرم ما ذكرتم أنه محرم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ﴾ معطوف على قوله: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾. والكلام عليه كالذي قبله، أي: ومن الإبل زوجين ذكر وأنثى، ومن البقر زوجين؛ ذكر وأنثى؛ ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من الإبل والبقر ﴿حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما؛ أم حرَّم ما ﴿ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ﴾.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أكنتم ﴿شُهَدَآءَ﴾، أي: حضورًا ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: حين وصاكم الله، أي: أمركم أمرًا مؤكَّدًا ﴿بِهَٰذَا﴾، أي: بهذا التحريم الذي حرَّمتموه.

وهذا تهكم ثان بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما لم ينزل به سلطانًا، أي: لم يبق إلا أن تدَّعوا هذه الدعوى؛ بأن الله وصاكم بهذا، وكنتم شهداء حين وصاكم الله به.

والمقصود من هذا كله تقرير إباحة هذه الأزواج الثمانية: ذكور الضأن وإناثها، وذكور المعز وإناثها، وذكور الإبل وإناثها، وذكور البقر وإناثها، وما اشتملت عليه أرحام إناث هذه الأصناف، وتأكيد أن الله لم يحرم شيئًا منها، والإنكار عليهم كيف يحرِّمون منها شيئًا دون شيء، ويحرمون ما في بطون بعضها على إناثهم دون ذكورهم

مع عدم وجود الفرق بين ما أباحوه منها وما حرموه؛ مما يدل دلالة قاطعة أن مصدر هذا هو الجهل المركب، والعقول المنحرفة، والآراء الفاسدة، وأن الله لم ينزل بذلك من سلطان، ولا لهم عليه حجة ولا برهان، بل هي كلها حلال لعباده، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

ففي هذا إبطال لما هم عليه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحريم ما في بطون بعض الأنعام على إناثهم، كما قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الفاء استئنائية، و«من» اسم استفهام، ومعناه النفي، أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، أي: ممن اختلق، وتقوَّل على الله كذبًا؛ فنسب إلى الله تحريم ما لم يحرِّم، أو تحليل ما لم يحلل.

﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل إضلال الناس وصدهم عن سبيل الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بلا دليل ولا برهان من نقل أو عقل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الجملة يجوز كونها تعليلية، أي: إن الله لا يوفق القوم الظالمين؛ لافترائهم على الله تعالى كذبًا، وإضلالهم للناس بغير علم.

ويجوز كونها تهديدًا ووعيدًا لهم بحرمان الله لهم من التوفيق بسبب ظلمهم.

وأول من يدخل في هذا الوعيد عمرو بن لُحي الخزاعي، أول من غيَّر دين الأنبياء، وأول من سيب السوائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت عمرو بن لُحيٍّ الخزاعيّ يجرّ قُصْبَه**[1] **في النّار؛ كان أوّل من سيَّب السّوائب**»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت جهنّم يحطم بعضها بعضًا، ورأيت عمرًا يجرّ قُصبه؛ فهو أوّل من سيَّب السّوائب**»[3].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير العباد بما امتن الله به عليهم، وأخرج لهم من الأرض من الأرزاق والخيرات، وأنه المنعم بذلك وحده؛ مما يوجب شكره؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾.

٢- تفرد الله تعالى وحده بالخلق والإيجاد والملك لما هو موجود وما سيوجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ الآيات.

٣- إبطال أن يكون لغير الله تعالى حظ فيما أنشأه من الحرث والأنعام، كما زعم المشركون؛ حيث جعلوا لشركائهم من الجن والأصنام نصيبًا.

٤- أن من تمام نعمة الله تعالى فيما أخرجه للعباد من الأرض أن جعل ذلك مختلفًا في أكله وطعمه، وفي منافعه الكثيرة؛ فمنه ما هو غذاء؛ كثمر النخيل والزروع، ومنه ما يُتفكَّه به؛ كالعنب والرمان، ومنه ما هو أدم؛ كالزيتون، مع ما في ذلك كله من منافع لا تحصى.

كما أن من تمام نعمة الله تعالى في ذلك أن بعضه متشابه في الشكل ومختلف في الثمر والأكل والطعم؛ مما يدل على عظيم قدرة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ

---

(١)، أي: أمعاءه.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة المائدة (٤٦٢٣)، ومسلم في الجنة، النار يدخلها الجبارون (٢٨٥٦)، وأحمد (٢/ ٣٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة المائدة (٤٦٢٤).

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤]، ومن تمام نعمة الله تعالى في ذلك أن الله علَّم العباد كيف ينمّون ما يحتاج إلى عرش وما لا يحتاج، فسبحان العليم الخبير!

٥- الأمر بالأكل مما أخرج الله من الزروع والثمار، ومما خلق من الأنعام؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

والأكل في الأصل مباح، لكنه قد يجب؛ كما إذا كان لبيان اعتقاد حلها في مقابل من حرَّم بعضها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

ومثل هذا إذا خاف الإنسان على نفسه الهلاك وجب عليه الأكل.

٦- جواز الأكل من الثمر إذا أثمر قبل إخراج الحق الواجب فيه، ولا يحسب ذلك من الزكاة، بل يُزكى ما تبقى؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾؛ ولهذا كان ﷺ يأمر من يرسلهم لخرص الثمار أن يبقوا لأصحاب الحروث والزروع الثلث أو الربع؛ كما في حديث سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا خرصتم فخذوا ودعوا الثّلث، فإن لم تأخذوا وتدعوا الثّلث فدعوا الرّبع**»[1].

٧- وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصاد الزروع وجذاذ النخيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾.

وقد فرضت الزكاة بمكة؛ حيث جاء ذكرها في عدد من السور المكية؛ كسورة المزمل والبينة، وهما من أوائل السور التي نزلت بمكة، ثم بُيِّنت أنصبتها ومقاديرها في المدينة بعد نزول قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

٨- أن الزكاة لا تتكرر في الخارج من الأرض؛ فإذا أخرجت منه وقت الحصاد فلا زكاة فيه بعد ذلك ولو حال عليه أكثر من حول، ما لم يعد للتجارة؛ لأن الله لم يأمر بإخراجها منه إلا وقت الحصاد.

٩- أنه لو أصاب الزروع والنخيل آفة قبل الحصاد والجذاذ من غير تفريط من أصحابها؛ فلا ضمان عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٠٥)، والنسائي في الزكاة (٢٤٩١)، والترمذي في الزكاة (٦٤٣).

١٠- تحريم الإسراف في الأكل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾، وذلك لما في الإسراف من تجاوز لما حدَّه الله تعالى وضرر في المال والبدن.

١١- عدم محبة الله تعالى للمسرفين؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

١٢- إثبات المحبة لله تعالى؛ لأن مفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ إثبات محبته لغيرهم من المعتدلين.

١٣- تذكير العباد والامتنان عليهم بما خلق الله لهم من الأنعام مما يحملون عليه، ويركبونه، ويأكلون لحمه، ويشربون لبنه، وينتفعون به منافع كثيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

١٤- التحذير من اتباع خطوات الشيطان وطرقه ومسالكه في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

١٥- أن الشيطان عدو ظاهر العداوة لبني آدم، لا يأمرهم بخير أبدًا، بل لا يأمرهم إلا بما فيه هلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٦- تفصيل الله تعالى ما أباح للعباد من الأنعام، وهي الأزواج الثمانية، إظهارًا لمنته تعالى وتوسيعه عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ الآيتين.

١٧- تقرير حل هذه الأزواج الثمانية، والإنكار على من حرَّموا أشياء منها، وإفحامهم، والإبانة عن جهلهم المركب وتخبطهم، والتهكم بهم؛ إذ لا فرق بين ما حرموه منها وبين ما حللوه، ولا مستند لهم في ذلك من دليل نقلي أو عقلي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، وقوله: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾.

١٨- أنه لا أحد أظلم ممن اختلق على الله كذبًا؛ لأجل أن يضل الناس بغير علم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ حيث جمع بين افتراء الكذب على الله، وقصد إضلال الناس بلا علم.

١٩- سوء قصد الذين يفترون على الله الكذب، وهو إضلال الناس عن دينهم

الحق؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾.

٢٠- جهل هؤلاء المفترين على الله الكذب، فلا علم عندهم فيما يتقولونه ويكذبونه على الله، ولا علم عندهم يحجزهم عن الافتراء على الله؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٢١- حرمان الظالمين من هداية الله تعالى وتوفيقه، وتأكيد ذلك؛ بسبب ظلمهم، والوعيد والتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

ذم الله عز وجل في الآيات السابقة المشركين في تشريعاتهم الباطلة، والتحريم والتحليل بلا علم ونسبتهم ذلك إلى الله تعالى وبيَّن بطلان ذلك، ثم أمر رسوله ﷺ أن يبيِّن للناس ما حرَّمه الله عليهم، وفي ذلك تأكيد لبطلان تحريم ما زعم المشركون تحريمه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾، أي: قل يا محمد للمشركين الذين اجترؤوا على تحريم ما أحل الله، وقل للناس عامة؛ وفي هذا دلالة على أنه ﷺ مبلغ عن الله عز وجل، لا كما يزعمون: أنه اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾ [يونس: ٣٨، ١٣، ٣٥، السجدة: ٣، الأحقاف: ٨].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن المعوذتين فقال: «**قيل لي، فقلت**»، فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»[1].

﴿لَّآ أَجِدُ﴾، «لا» نافية، و«أجد» بمعنى أظفر، ينصب مفعولًا واحدًا وهو هنا قوله: «محرمًا».

﴿فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، «ما» موصولة، أي: في الذي أوحاه الله إلي.

وبُني الفعل لما لم يسم فاعله؛ لأن الموحي معلوم، وهو الله عز وجل، أي: ليس في

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الناس (٤٩٧٦، ٤٩٧٧).

الذي أوحاه الله إليَّ في القرآن والسُّنَّة، اللذين هما مصدر التشريع، والتحليل والتحريم ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ وفي هذا تأكيد لبطلان تحريم ما زعموا تحريمه.

والوحي لغة: الإعلام بسرعة وخفاء.

وفي الشرع: كلام الله عز وجل المنزل على نبي من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

ويدخل في الوحي أيضًا السنة فإنها مما أوحاه الله عز وجل إلى نبيه ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

وفي قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ إيذان بأن طريق التحريم والتحليل هو الوحي فقط، وأن الأصل في الأطعمة الحل.

﴿مُحَرَّمًا﴾، أي: طعامًا محرمًا من المطاعم التي حرمتموها وغيرها.

و﴿مُحَرَّمًا﴾ نكرة في سياق النفي فتعم أي طعام.

﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾، أي: على أيِّ طاعم كان من ذكر أو أنثى، وفي هذا رد على قولهم: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾ صفة لـ«طاعم»، لزيادة التقرير؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقد استدل ﷺ بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ على أن المحرم من الميتة أكلها[1].

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبوجعفر وابن عامر وحمزة بالتاء على التأنيث: (إلا أن تكون)، وقرأ الباقون بالياء على التذكير: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾.

وقرأ أبوجعفر وابن عامر: (ميتةٌ) بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب.

﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء، والاستثناء متصل مستثنى من عموم الأكوان، أي: إلا أن يكون الطعام ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير.

والميتة هي التي تموت من غير ذكاة شرعية كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة،

---

(١) سيأتي قريبًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ٣].

﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ الدم المسفوح هو المصبوب المهراق، الذي يسيل ويخرج عند التذكية من المذبح أو المنحر، أو من فصد بعض العروق.

ويفهم من قوله: ﴿مَّسۡفُوحًا﴾ أن الدم الذي يبقى في العروق واللحم بعد التذكية حلال طاهر، وكذا ما في الكبد والطحال، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد والكبد والطحال**»[1].

﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾ وهو الحيوان المعروف، والمراد بلحمه ما يشمل لحمه وشحمه. وأطلق اللحم من باب تغليب اللحم على الشحم.

﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ هذه الجملة معترضة بين المعطوفات لتقرير وتأكيد الحرمة.

والضمير في قوله: «فإنه» يحتمل عوده إلى المحرمات المذكورة وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، أي: فإن المذكور رجس.

ويحتمل عوده الضمير إلى أقرب مذكور وهو لحم الخنزير.

واختار هذا ابن القيم حيث قال: «فالضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ وإن كان عوده إلى الثلاثة المذكورة باعتبار لفظ المحرم، فإنه يترجح اختصاص لحم الخنزير به لثلاثة أوجه: أحدها: قربه منه، والثاني: تذكيره دون قوله: «فإنها رجس»، والثالث: أنه أتى بالفاء، و«إن» تنبيهًا على علة التحريم، لتزجر النفوس عنه، ويقابل هذه العلة ما في طباع بعض الناس من استلذاذه واستطابته، فنفى عنه ذلك، وأخبر أنه رجس، وهذا لا يحتاج إليه في الميتة والدم؛ لأن كونهما رجسًا أمر مستقر معلوم عندهم»[2].

وقوله: ﴿رِجۡسٌ﴾، أي: قذر وخبث ونجس، حسًّا ومعنىً، مضرٌ بآكله.

وذلك لما في الميتة من احتقان الدم الفاسد الضار وهو الدم الذي يسفح وينصبُّ عند التذكية، فحرمت الميتة لاحتباس هذا الدم الفاسد الضار فيها، وحرم هو بفساده وضرره،

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٨٥).

كما حرم الخنزير لأكله القاذورات، ولما فيه من الطباع السيئة التي تؤثر على آكله.

﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ معطوف على: ﴿مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ وما بينهما اعتراض، أي: إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير أو فسقًا أهل لغير الله به.

والفسق: الخروج عن الإيمان أو عن طاعة الله تعالى.

والمعنى: إلا أن يكون المحرم فسقًا ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ ووصف المحرم بكونه فسقًا لأنه سبب لفسق فاعله وخروجه عن طاعة الله تعالى.

﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ صفة، أو عطف بيان لـ﴿فِسْقًا﴾.

أي: ذبح على غير اسم الله، ولغير الله، من الأصنام والأوثان ونحوها.

والإهلال: رفع الصوت. والمراد به هنا رفع الصوت بذكر غير اسم الله عند الذبح، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

قال السعدي(١): «أو إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله من الأوثان والآلهة التي يعبدها المشركون فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله تعالى إلى معصيته».

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ الفاء استئنافية، و«من» شرطية ﴿ٱضْطُرَّ﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: فلا مؤاخذة عليه.

ومعنى﴿ٱضْطُرَّ﴾، أي: أصابته ضرورة ألجأته إلى أكل شيء من هذه المحرمات، بأن لم يجد غيرها، وخاف على نفسه التلف.

﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ حال، أي: حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾، أي: غير مريد الأكل من غير اضطرار، ﴿وَلَا عَادٍ﴾، أي: ولا متجاوز للحد بأن يأكل زيادة عن حاجته.

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: فإن ربك يا محمد غفور رحيم لا يؤاخذه.

﴿غَفُورٌ﴾ ذو مغفرة واسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤).

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله يُدْنِي المؤمن فيضع عليه كَنَفَهُ ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم رب، حتى إذا قَرَّرَه بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعْطَى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»[1].

ومنه سمي المغفر وهو البيضة التي توضع على الرأس في القتال تستره، وتقيه السهام.

﴿رَّحِيمٌ﴾ ذو رحمة واسعة، وسعت كل شيء وعمَّت كل حي، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فهو عز وجل ذو الرحمة الواسعة التي هي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له عز وجل كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وذو الرحمة الواسعة التي هي صفة من صفاته الفعلية التي يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وفي ختم الآية: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، دلالة على رفع الحرج عنه، كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية: ١١٥]، أي: فلا إثم عليه، فإن الله غفور له، رحيم به، كما جاء مصرحًا به في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الآية: ١٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)﴾.

بيَّن عز وجل في الآيات السابقة ما حرَّمه على هذه الأمة المحمدية، ثم أتبع ذلك ببيان ما حرمه على اليهود قبلهم، وما فيه من التشديد عليهم، بسبب تشديدهم على أنفسهم، ليُظهر لهذه الأمة عظم منة الله تعالى عليهم في التخفيف فيما حرَّمه عليهم، وليُظهر بطلان ما حرمه المشركون، وأنه ليس مما حرمه الله على هذه الأمة ولا على من قبلها.

قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿حَرَّمْنَا﴾، قُدِّم عليه؛ لإفادة الاختصاص، أي: حرمنا عليهم خاصة.

و﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اليهود، سموا بذلك لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، أي: رجعنا إليك، ولأنهم اتبعوا دين «يهوذا» أحد أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولاد يعقوب عليه السلام.

﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ الظفر: العظم الذي تحت الجلد في منتهى أصابع الإنسان والحيوان والمخالب، وهو يقابل الحافر والظلف، أي: حرمنا عليهم كل ما كان من البهائم والطير غير منفرج الأصابع ولا مشقوقها كالإبل والأرنب والأوز والبط، ونحو ذلك[1].

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ﴾ متعلق بـ﴿حَرَّمْنَا﴾ بعده، وقدّم عليه للتنبيه والاهتمام.

﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الشحوم هي ما يكون في جسم الحيوان من الدهون.

أي: حرمنا عليهم جميع شحومهما كالشحم الذي يحيط بالكليتين والشحم الرقيق الذي يحيط بالكرش، ويسمى «الثَّرب» ونحو ذلك.

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، والاستثناء: متصل من قوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾، و«ما» موصولة، أي: إلا

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٦٣٨-٦٤١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٤٨).

الذي حملته ظهورهما من الشحوم.

﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ «أو» عاطفة، و«الحوايا» معطوفة على «ظهورُهما»، و«الحوايا»: جمع حوية، أو حاوياء، أو حاوية، وهي الأمعاء والمصارين والمباعر، والمعنى: وما حوته الأمعاء من الشحوم.

﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾، «أو» عاطفة، و«ما» موصولة، أي: أو الذي اختلط من الشحوم بعظم، وهو الشحم الذي يلتف على العظام من السمن.

فأباح الله عز وجل لليهود لحوم البقر والغنم، وحرم عليهم جميع شحومهما، إلا ما حملته ظهورهما، أو الحوايا من الشحوم، أو ما اختلط من شحومهما بعظم فهو حلال.

وفي الحديث قال ﷺ: «**لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم، فجملوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها**»(١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «**إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة فإنه يدهن بها الجلود، ويطلى بها السفن، ويستصبح بها الناس؟ فقال: «**لا هو حرام**». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه، وأكلوا ثمنه**»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ قاعدًا في المسجد مستقبلًا الحجر، فنظر إلى السماء، فضحك، ثم قال: «**لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه**»(٣).

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ﴾ الإشارة لما سبق من التحريم على اليهود، والتشديد

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦)، ومسلم في المساقاة (١٥٨٢)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٥٧)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨٣)، من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٣٦)، ومسلم في المساقاة (١٥٨١)، وأبوداود في البيوع ـ ثمن الخمر والميتة (٣٤٨٦)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٥٦)، والترمذي في البيوع ـ بيع جلود الميتة والأصنام (١٢٩٧)، وابن ماجه في التجارات ـ ما لا يحل بيعه (٢١٦٧)، وأحمد (٣/ ٣٢٤، ٣٢٦).

(٣) أخرجه أبوداود في البيوع (٣٤٨٨)، وأحمد (١/ ٢٤٧، ٢٩٣، ٣٢٢).

عليهم فيه، واسم الإشارة في محل نصب مفعول ثان «لجزينا» قدم عليه وعلى المفعول الأول، والمفعول الأول الضمير في ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾.

أي: عاقبناهم، فشددنا عليهم في التحريم.

﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب ظلمهم واعتدائهم ومخالفتهم أمر الله عز وجل، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وأكلهم الربا وأموال الناس بالباطل، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: وإنا لصادقون فيما أخبرنا به من تحريمنا ذلك عليهم، وفي جميع أخبارنا، عادلون فيما جازيناهم به، وفي جميع أحكامنا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ الفاء للتفريع، والخطاب للنبي ﷺ، أي: فإن كذبك يا محمد واستمر على تكذيبك هؤلاء المشركون فيما جئت به من الشرع مما فيه بيان وحصر ما حرمه الله، وإبطال ما حرموه، وكذبك اليهود فيما أخبرت به مما حرمه الله عليهم.

﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾، أي: فقل لهم: ربكم خالقكم ومالككم ومدبركم، وفي هذا تذكير لهم بعظمته عز وجل، وبنعمة ربوبيته لهم.

﴿ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾، أي: صاحب رحمة واسعة، وفي هذا إشارة إلى أن من رحمته عز وجل إمهاله لهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة فلا يغتروا بذلك.

وبدأ بتذكيرهم بسعة رحمته عز وجل ترغيبًا لهم في ابتغاء رحمته واتباع رسوله ﷺ، وترك ما هم عليه من التكذيب.

وفيه دلالة على أن رحمته عز وجل سبقت غضبه، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»(١).

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ هذا ترهيب لهم وتحذير من الاستمرار على تكذيبه ﷺ.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ﴾، أي: ولا يرد ويمنع ﴿بَأۡسُهُۥ﴾، أي: عذابه وعقابه الدنيوي والأخروي إذا أراده.

﴿عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ لم يقل: (عنكم)، بل قال: ﴿عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ لتسجيل ذلك عليهم ووصفهم بالإجرام، وليعمهم وغيرهم ممن كذب مثلهم بهذا الوصف والوعيد.

و﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مرتكبي الجرائم من الشرك بالله والكفر والتكذيب والآثام.

وفي الآية جمع بين الترغيب والترهيب، كما هي طريقة القرآن الكريم؛ ليجمع الإنسان في سيره إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، فلا يقنط من رحمة الله، ولا يأمن مكر الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾ [البروج: ١٢-١٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله عز وجل يأتيه الوحي من الله فيبلغه للناس؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ الآية. وفي هذا رد على المشركين في زعمهم الباطل أنه تقوّل القرآن وافتراه من عند نفسه.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٢)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢- أن مصدر التشريع، والتحليل والتحريم هو الوحي من عند الله عز وجل إلى رسوله ﷺ بالقرآن الكريم، والسنة النبوية؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾.

٣- أن الأصل في الأطعمة الحل حتى يرد دليل التحريم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ الآية.

٤- الرد على المشركين فيما زعموا تحريمه مما لم يحرمه الله عز وجل.

٥- فضل الله عز وجل ومنته على هذه الأمة ونعمته العظيمة عليها في حصر المحرم عليها وتقليله، وفي توسيع دائرة الحلال لها.

٦- ظاهر الحصر في الآية أنه لا محرم وقت نزول الآية سوى الميتة والدم المسفوح، ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

وقد جاء هذا في معرض الرد على المشركين فيما حرموه من دون الله وفي نقض ذلك، وسورة الأنعام مكية وقد أنزل الله عز وجل تأكيد تحريم هذه الأربع في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٧٣].

وأكد ذلك وفصله وزاد عليه في سورة المائدة- وهي من آخر ما نزل-في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ [الآية: ٣]،

وعن أبي ثعلبة رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير»[١].

(١) أخرجه البخاري في الطب (٢٢٠٨)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٤)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٠٣)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤٨)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «**نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية**»(١).

وعن المقدام بن معديكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السبع، ولا لُقَطَةُ معاهد، إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوهُ، فإن لم يَقْرُوهُ فله أن يُعْقِبَهُمْ بمِثلِ قِرَاهُ»(٢).

٧- أن المحرم من هذه الأشياء هو أكلها؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾.

ولهذا يجوز الانتفاع بشعر الميتة وصوفها ووبرها وجلدها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بشاة ميتة، فقال: «**هلا استمتعتم بإهابها؟**» قالوا: يا رسول الله، إنها ميتة. قال: «**إنما حرم من الميتة أكلها**» وفي رواية: «**ألا أخذوا إِهَابَهَا فدبغوه**»(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة- تعني الشاة- قال: «**فلم، لا أخذتم مسكها؟**» قالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «**إنما قال الله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ وإنكم لا تطعمونه، أن تدبغوه فتنتفعوا به**» فأرسلت، فسلخت مسكها، فدبغته، فاتخذت منه قربة، حتى تخرقت عندها»(٤).

ويستثنى من الميتة ميتة السمك والجراد فهي حلال؛ لقوله ﷺ في البحر: «هو

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٢٣)، ومسلم في النكاح (١٤٠٧).

(٢) أخرجه أبوداود في السنة ـ لزوم السنة (٤٦٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٢)، ومسلم في الحيض (٣٦٣)، وأبوداود في اللباس (٤١٢٠)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٣٤)، وابن ماجه في اللباس (٣٦١٠)، وأحمد (١/ ٣٦٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٧-٣٢٨).

الطهور ماؤه، الحل ميتته»[١]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «**أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالسمك والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال**»[٢].

٨- تحريم لحم الخنزير وشحمه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾ والمراد بذلك ما يشمل لحمه وشحمه.

٩- أن العلة في تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، أنها رجس، أي: قذر ونجس وخبث، حسًّا ومعنىً، مضر أكلها.

١٠- صيانة الإسلام وحفظه لأهله عما يضرهم في دينهم ودنياهم وأبدانهم، لهذا حرم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله.

١١- حل الدم غير المسفوح وهو ما يبقى في العروق واللحم؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾.

١٢- تحريم ذكر اسم غير الله على الذبيحة، والذبح لغير الله، وأن ذلك فسق وخروج عن طاعة الله تعالى وشرك بالله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾.

١٣- إباحة الأكل من هذه المحرمات عند الضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣].

١٤- أن إباحة الأكل من هذه المحرمات عند الضرورة مشروط بعدم البغي لأكل الحرام من غير اضطرار، ولا تعد لقدر الحاجة عند الأكل منها؛ لقوله تعالى: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾[٣].

---

(١) أخرجه أبوداود في الطهارة (٨٣)، والنسائي في المياه (٣٣٢)، والترمذي في الطهارة (٦٩)، وابن ماجه في الطهارة (٣٨٦)، وأحمد (٢/ ٢٣٧، ٢٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه الشافعي في «الأم» (٦/ ٢٥٧)، وأحمد (٢/ ٩٧) ـ وله حكم المرفوع.

(٣) انظر تفصيل الكلام على هذه المحرمات وغيرها وقدر المباح منها عند الضرورة في تفسير قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

١٥- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه وتكريمه بخطابه وإضافة اسم الرب عز وجل إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾.

١٦- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل وأنه عز وجل يستر الذنوب، ويتجاوز عن العقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾.

١٧- إثبات صفة الرحمة لله عز وجل رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل ورحمة فعلية يوصلها من شاء من عباده، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾.

١٨- أن من مغفرة الله عز وجل ورحمته إباحة الأكل من هذه المحرمات لمن اضطر إلى ذلك.

١٩- في اجتماع صفتي المغفرة والرحمة لله عز وجل زيادة كمال إلى كمال، وزيادة إفضال إلى إفضال؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

٢٠- تحريم الله عز وجل على اليهود كل ذي ظفر، من البهائم والطير، كالإبل والنعام والإوَزّ والبط ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾.

٢١- تحريم شحوم البقر والغنم على اليهود كشحم الكليتين، و«الثَّرب» شحم البطن ونحو ذلك إلا ما حملته ظهورهما من الشحم أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

٢٢- أن سبب التشديد على اليهود في التحريم هو بغيهم وظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾.

٢٣- أن ما أخبر الله به عما حرمه على اليهود هو عين الصدق، وما جازاهم به هو العدل من التشديد عليهم في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

٢٤- تكذيب المشركين واليهود للنبي ﷺ فيما جاء به من الشرع وبيان ما أحله الله

لهذه الأمة وما حرمه على اليهود قبلهم واستمرارهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وفي هذا إشارة إلى استمرارهم على التكذيب.

٢٥- تشريف الله عز وجل لنبيه ﷺ وتكريمه له بخطابه، وتهيئته لما سيلقى من المكذبين، وتأييده له، ودفاعه عنه.

٢٦- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ الآية.

٢٧- إثبات سعة رحمة الله عز وجل وأنها سبقت غضبه، ولهذا أمهل هؤلاء المكذبين ولم يعاجلهم بالعقوبة، بل ودعاهم إلى الدخول في رحمته الواسعة باتباع الرسول ﷺ، وترك ما هم عليه من التكذيب؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾.

٢٨- إثبات ربوبية الله عز وجل العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ﴾.

٢٩- الوعيد والتهديد للمكذبين إن استمروا على ما هم عليه من التكذيب ببأسه الشديد وعقابه الأليم الذي لا يستطيع أحد دفعه أو منعه عن القوم المجرمين أمثالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

٣٠- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

أمر الله عز وجل في الآيات السابقة نبيه ﷺ بحصر ما أوحي إليه تحريمه من المطعومات، وبيان ما حرمه الله تعالى على اليهود، وبذلك قطع حجج المشركين في تحريم ما حرَّموه، وقسمة ما قسموه، ثم أتبع ذلك بذكر آخر حجة تشبثوا بها هي أوهى من نسج العنكبوت؛ وهي الاحتجاج بالقضاء والقدر.

قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ السين للاستقبال، أي: سيقولون هذا في المستقبل؛ فالآية على هذا إخبار بما سيقولونه مستقبلًا، وهو ما ذكره الله عنهم في سورة النحل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

وسورة النحل نزلت على الأرجح بعد سورة الأنعام؛ فكان هذا من الغيب الذي أخبر به القرآن الكريم قبل وقوعه، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤].

وعلى احتمال أن يكون نزول هذه الآية بعد نزول آية سورة النحل؛ فالإخبار بأنهم سيقولونه معناه أنهم سيعيدون حجتهم المألوفة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ فلم يقل: (سيقولون) لزيادة تفظيع قولهم.

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، «لو» شرطية غير عاملة، و«ما» نافية، أي: لو شاء الله ما أشركنا معه غيره في العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، الواو عاطفة، و«لا» زائدة؛ لتأكيد النفي، أي: ولا أشرك آباؤنا.

﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ معطوف على ﴿أَشْرَكْنَا﴾، أي: لو شاء الله ما أشركنا ولا أشرك آباؤنا، ولو شاء ما حرمنا من شيء، و«من» للتنصيص في العموم، أي: ما حرَّمنا أيَّ شيء.

والمعنى: لو شاء الله ما أشركنا معه غيره في العبادة نحن ولا آباؤنا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، أي: ولا حرمنا نحن ولا آباؤنا أي شيء مما حرَّمناه من الحرث والأنعام.

وهذا منهم ظاهره حق؛ لما فيه من إثبات القدر؛ لأن كل ما يجري في الكون، من خير أو شر؛ فهو بمشيئة الله تعالى وتقديره الكوني، وعلى هذا دلت نصوص الكتاب والسنة؛ لكنهم لا يريدون هذا، وإنما يريدون الاحتجاج بالقضاء والقدر، والتبرير لما هم فيه من الشرك والتحريم، ويقولون: إن الله لما شاء ذلك وقدره فقد أحبه ورضيه منا، ولو لم يرضه لمنعنا منه وحال بيننا وبينه. وهذا ليس بصحيح؛ فإن الله لا يحب الكفر، ولا يرضاه، ويحب الإيمان ويرضاه، وحصول كل منهما، أو عدم حصوله، كل ذلك بمشيئة الله وقدره؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، ولا يلزم إذا كان الأمر مقدَّرًا أن يكون محبوبًا مرضيًا لله.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كما كذبك- يا محمد- هؤلاء المشركون، وكذبوا ما جئت به من الوحي، محتجين بأن ما هم عليه من الشرك والتحريم مما شاءه الله ورضيه، كذلك كذب الذين من قبلهم أنبياءهم مستندين إلى هذه الشبهة، وهي حجة داحضة باطلة.

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل: ٣٥].

﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾، «حتى» للغاية، أي: استمروا على تكذيبهم إلى غاية أن ذاقوا بأسنا، أي: قاسوا عذابنا بإهلاكهم، وأحسوا به وشعروا.

وهذا دليل على بطلان حجتهم؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه وعذبهم وأهلكهم، وأضاف «بأس» إلى ضميره عز وجل لتعظيمه وتهويله.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾، أي: قل لهؤلاء المشركين الذين يحتجون لما هم فيه من الشرك وتحريم ما أحل الله بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ بمعنى أن الله شاء ذلك، أي: أحبه ورضيه منهم.

﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾، «هل» للاستفهام والإفحام والتهكم بهم في قولهم هذا، أي: هل عندكم من حجة ودليل على أن الله راض عنكم فيما أنتم فيه؛ ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾، أي: فتظهروه لنا وتبينوه.

والمقصود: أنه لا علم عندكم، ولا حجة، ولا برهان على أن الله رضي ما أنتم عليه من الشرك والتحريم فتبينوه لنا.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، «إن» نافية بمعنى «ما» في الموضعين، و«إلا» أداة حصر في الموضعين، أي: ما تتبعون فيما أنتم فيه من الشرك والتحريم وزعمكم رضا الله عنكم في ذلك ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، أي: قصارى ما عندكم اتباع الظن الباطل والاعتقاد الفاسد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦].

﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾، أي: وما أنتم إلا تخرصون، أي: تخمنون وتكذبون على الله، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦، يونس: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل لهؤلاء المشركين الذين ليس عندهم حجة فيما هم عليه إلا اتباع الظن والخرص والتخمين:

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن لم تكن لكم حجة فلله الحجة البالغة، و«لله» خبر مقدم؛ للدلالة على الاختصاص، أي: فلله وحده دونكم الحجة البالغة البينة الواضحة المؤكدة التامة الغالبة؛ فيما أوجب من توحيده، وفيما نهى عنه من الشرك، وفيما أحل وحرم.

وله الحجة البالغة والحكمة التامة في هدايته من هدى، وإضلال من أضل، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ الفاء عاطفة، أي: فلو شاء، أي: أراد كونًا ﴿لَهَدَىٰكُمۡ﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لوفقكم أجمعين إلى توحيده، والبراءة من الشرك، وتحليل ما أحل، وتحريم ما حرَّم، واتباع دينه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

ولكنه عز وجل لم يشأ هدايتهم جميعًا، بل شاء وقدَّر أن يكون منهم مهتد وضال، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ [التغابن: ٢].

قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله تعالى، ونسبوا ذلك إليه: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾، أي: هاتوا وأحضروا شهداءكم.

﴿ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾، أي: يشهدون أن الله حرم هذا الذي حرَّمتموه من الحرث والأنعام ونسبتموه إلى الله، وأنى لهم من يشهد لهم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾، أي: فإن أحضروا شهداء- على الفرض المستبعد- فشهدوا أن الله حرَّم هذا، فهم شهود كذب وزور وبهتان.

﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾، أي: فكذبهم؛ لأن شهادتهم باطلة، وعلى هذا فدعواهم باطلة؛ لأنهم لن يجدوا من يشهد لهم بها، وإن وجدوا على سبيل الفرض فهم شهود زور وكذب وبهتان؛ فشهادتهم باطلة.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: (فلا تتبع أهواءهم)، بل قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تذكيرًا بأنهم يكذِّبون بآيات الله، أي: ينكرونها، ويجحدونها، ولا يؤمنون بها.

و«أهواؤهم» ما تهواه نفوسهم مما جعلوه دينًا لهم. ولم يقل: (ولا تتبع الذين كذبوا بآياتنا)، بل قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ للتنبيه على أنهم إنما يتبعون أهواءهم.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: والذين لا يصدقون بالدار الآخرة والمعاد، وبعث الأجساد، والحساب والجزاء على الأعمال.

﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ﴾ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم. وأظهر مقام الإضمار؛ فلم يقل: (وهم بي يعدلون) تعظيمًا لنفسه عز وجل.

﴿يَعْدِلُونَ﴾، أي: يشركون به، ويسوون به غيره من الأنداد والأوثان؛ كما سيعترفون بذلك غدًا ويقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

الفوائد والأحكام:

١- علم الله تعالى بما تنطوي عليه الصدور؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية.

٢- اعتراف المشركين وإقرارهم بمشيئة الله تعالى وقضائه وقدره؛ لقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، وهذا حق.

٣- اعتقاد المشركين أن ما شاءه الله وقدره أحبه ورضيه؛ ولهذا احتجوا على ما هم فيه من الشرك والتحريم بالقضاء والقدر، وأن الله لو لم يشأ ذلك ويحبه ويرضاه ما حصل ذلك منهم؛ لقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾،

والاحتجاج بالقدر لا يجوز.

وقد ضل كثير من الخلق في باب القدر، وانقسم الناس فيه إلى ثلاث طوائف: طائفة غلوا في إثبات القدر والاحتجاج به، كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، وهم الجبرية، وطائفة غلوا في نفيه، وهم القدرية، وطائفة توسطوا في ذلك، وهم أهل السنة والجماعة.

قال ابن القيم في كتابه (طريق الهجرتين)(١) بعد أن سرد كثيرًا من الأحاديث والآثار في باب القدر: «فالجواب: أن هاهنا مقامين: مقام إيمان وهدى ونجاة، ومقام ضلال وردى وهلاك.

فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة؛ فمقام إثبات القدر والإيمان به، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها، وأن ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس، وهذه الآثار التي ذُكرت كلها تحقق هذا المقام، وتُبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد، ولبس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه.

وأما المقام الثاني؛ وهو مقام الضلال والردى والهلاك، فهو الاحتجاج به على الله، وحمل العبد ذنبه على ربه وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمارة بالسوء...».

ثم قال ابن القيم: «... وسمعته- يعني شيخ الإسلام ابن تيمية- يقول: القدرية المذمومون في السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاث: نفاته؛ وهم (القدرية المجوسية)، والمعارضون به للشريعة، الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ وهم (القدرية الشركية)، والمخاصمون به للرب، وهم أعداء الله وخصومه؛ وهم (القدرية الإبليسية)، وشيخهم إبليس، وهو أول من احتج على الله بالقدر؛ فقال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩]، ولم يعترف بالذنب ويبوء به، كما اعترف به آدم.

فمن أقر بالذنب وباء به ونزه ربه فقد أشبه أباه آدم، ومن أشبه أباه فما ظلم. ومن برأ نفسه واحتج على ربه بالقدر فقد أشبه إبليس، ولا ريب أن هؤلاء القدرية الإبليسية والشركية شر من القدرية النفاة؛ لأن النفاة إنما نفوه؛ تنزيهًا للرب وتعظيمًا له أن يقدر

(١) (ص١٦٢، ١٦٧-١٦٩).

الذنب ثم يلوم عليه ويعاقب...

وأما القدرية الإبليسية والشركية فكثير منهم منسلخ عن الشرع عدو لله ورسله، لا يُقر بأمر ولا نهي، وتلك وراثة من شيوخهم الذين قال الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس: ٤٧]؛ فهذه أربعة مواضع في القرآن بيّن سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل».

٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وإثبات القدر، وبيان عدم جواز الاحتجاج به؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، فلم ينكر عليهم إثبات المشيئة والقدر، وإنما أنكر عليهم الاحتجاج بالقدر. وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧].

٥- اعتراف المشركين بما هم عليه من الشرك بالله، والتحريم لما أحل الله هم وآباؤهم.

٦- مشابهة المشركين من هذه الأمة في تكذيبهم النبي ﷺ وما جاء به لمن قبلهم في تكذيب رسلهم، وقد قال ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»(١).

٧- تحذير المشركين المكذبين للنبي ﷺ من الاستمرار على تكذيبهم، فيحل بهم عذاب الله تعالى؛ كما حل بالمكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾.

٨- شدة عذاب المكذبين وعقابهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾، فأضافه عز

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٢٠)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وجل إلى نفسه؛ تعظيمًا وتهويلًا له.

٩- تعظيم الله تعالى لنفسه بتكلمه عز وجل بضمير الجمع؛ لأنه سبحانه ذو العظمة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿بَأْسَنَا﴾، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وبالإظهار بدل الإضمار في قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، ولم يقل: (بي يعدلون)، أي: بربهم العظيم خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

١٠- تولي الله عز وجل المحاجة عن نبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ والآيات بعدها.

١١- التهكم بالمشركين فيما هم فيه من الشرك والتحريم بلا حجة ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾.

١٢- أن هؤلاء المشركين لا دليل عندهم، ولا حجة لهم إلا اتباع الظن الباطل والخرص والتخمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

١٣- أن لله عز وجل وحده الحجة البالغة التامة الغالبة على هؤلاء المشركين، وعلى جميع خلقه في إيجابه ما أوجب، وتحريمه ما حرم، وهدايته من هَدَى، وإضلاله من أَضَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾.

١٤- أن الله عز وجل لو شاء لهدى الناس جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، لكنه عز وجل لم يشأ ذلك، بل شاء هداية من شاء بفضله، وإضلال من شاء بعدله.

١٥- إفحام المشركين؛ بمطالبتهم بإحضار شهدائهم الذين يشهدون أن الله حرم ما حرموه، وأنى لهم ذلك؟ اللهم إلا شهود زور وبهتان وكذب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟﴾.

١٦- نهي النبي ﷺ والمؤمنين عن الشهادة مع هؤلاء المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾، والمراد: فكذبهم ولا تصدقهم؛ فإن شهادتهم باطلة.

١٧- التحذير من اتباع أهواء المشركين، وذمهم من وجوه عدة؛ منها: أنهم إنما يتبعون أهواءهم، ومنها: تكذيبهم بآيات الله، ومنها: عدم إيمانهم بالآخرة، ومنها: أنهم بربهم يعدلون، أي: يسوون به غيره من الأوثان والأنداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ

ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾. وكل واحدة من صفاتهم هذه كفر، وكافية في ذمهم، فكيف إذا اجتمعت؟!

١٨- ذم اتباع الهوى؛ لأنه مردٍ ومهلك، والتحذير منه.

١٩- وجوب الإيمان بآيات الله تعالى، والإيمان بالآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال؛ لأن الله ذم المشركين بتكذيبهم بذلك.

٢٠- وجوب توحيد الله تعالى، وإفراده وحده بالعبادة، والحذر من الشرك.

٢١- أن الله عز وجل واحد أحد فرد صمد، لا عدل له، ولا شريك، ولا نظير، لا في ربوبيته، ولا في أولهيته، ولا في أسمائه وصفاته.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾.

هذه الآيات الثلاث تسمى (آيات الوصايا العشر).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «من سرَّه أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هذه الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآية... إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾»[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب»، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات[(٢)].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيّكم يبايعني على ثلاثٍ؟**» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآيات... «**فمن وفَّى فأجره على الله، ومن انتقص منهنّ شيئًا فأدركه الله به في الدّنيا كانت عقوبته، ومن أخّر إلى الآخرة فأمره إلى الله؛ إن شاء عذَّبه، وإن شاء عفا عنه**»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأنعام (٣٠٧٠)، وقال: «حديث حسن غريب»، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٥٣).

(٢) أخرجه الحاكم في تفسير سورة الأنعام (٢/ ٣١٧)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وذكره ابن كثير (٣/ ٣٥٣).

(٣) أخرجه الحاكم في الموضع السابق (٢/ ٣١٨)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وذكره ابن كثير (٣/ ٣٥٣، ٣٦٢، ٣٦٣).

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

أبطل عز وجل في الآيات السابقة ما عليه المشركون من الشرك بالله، وقتل أولادهم، وتحريم ما رزقهم الله من الحرث والأنعام، وبيَّن ما حرَّمه من المطعومات، ثم دعاهم لمعرفة عموم ما حرَّمه ربهم عليهم حقًّا؛ في الاعتقاد والأقوال والأعمال، مما يشمل ما ذكر وغيره في هذه الآية والآيتين بعدها، وفي ذلك تأكيد لبطلان ما هم عليه من الشرك، والافتراء على الله بغير علم، وإقامة الحجة عليهم.

قوله: ﴿قُلْ﴾ الأمر للنبي ﷺ.

﴿تَعَالَوْا۟﴾ الخطاب للمشركين، أي: هلمُّوا وأقبلوا، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وقتلوا أولادهم سفهًا بغير علم، وحرَّموا ما رزقهم الله افتراء على الله: ﴿تَعَالَوْا۟﴾، أي: هلموا وأقبلوا واحضروا.

﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، «أتل» جواب الأمر، والتلاوة: القراءة، أي: أقرأ، و«ما» موصولة في محل نصب مفعول: «أتل»، أي: أقرأ وأقص الذي حرَّمه ربكم عليكم بما أوحاه إلي حقًّا.

ووجه الخطاب إلى المشركين؛ للتسجيل عليهم بما هم عليه من مخالفة شرع الله تعالى، وهو بيان للأمة أجمع.

وإسناد التحريم إليه عز وجل في قوله: ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ لبيان أن التحريم والتحليل إليه عز وجل وحده، مع تذكيرهم بربوبيته التامة لهم؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ مما يوجب عليهم إفراده وحده بالعبادة، واتباع شرعه.

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، «أن» تفسيرية لفعل ﴿أَتْلُ﴾؛ لأن التلاوة في معنى القول، و«لا» ناهية، ﴿تُشْرِكُوا۟﴾ مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون، ﴿بِهِۦ﴾، أي: بربكم، و«الشرك»: دعوة غير الله، وعبادته مع الله، وتسويته بالله؛ كما في قول المشركين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة؛ تعم أي شيء، أي: لا تشركوا به أيَّ شيء من الشرك، لا شركًا أصغر ولا شركًا أكبر، ولا شركًا خفيًّا ولا جليًّا، ولا تشركوا به أيَّ شيء من الأشياء؛ لا شجرًا ولا حجرًا، ولا وليًّا ولا ملكًا، ولا غير ذلك، أي: أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له.

وابتدأ هذه المحرمات بالنهي عن الشرك بالله، تعظيمًا لحق الله عز وجل، وهو وجوب إفراده بالعبادة، والذي هو أعظم الحقوق وأوجبها على العباد؛ كما في حديث معاذ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أتدري ما حقّ الله على العباد، وما حقّ العباد على الله؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«حقّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقّ العباد على الله ألّا يعذب من لا يشرك به شيئًا»**[١].

ولهذا قال ﷺ كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه: **«أتاني جبريل فبشّرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا من أمّتك دخل الجنّة»**[٢].

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: **«من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنّة»**[٣].

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ معطوفة على ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟﴾، أي: وأوصاكم بالوالدين إحسانًا؛ لقوله في ختام الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. و﴿إِحْسَـٰنًا﴾ مصدر ناب مناب فعله.

والتقدير: وأحسنوا بالوالدين إحسانًا، والأمر بالإحسان إليهما نهي عن ضده، وهو ترك الإحسان إليهما، أو الإساءة إليهما. وفي هذا إيجاب للإحسان إليهما وتحريم لعقوقهما، وبهذا الاعتبار وقع في عداد ما حرّم الله تعالى.

و«الوالدان»: هما الأب والأم، وإن عليا من أي جهة كانا.

أي: أحسنوا إلى الوالدين إحسانًا؛ بإكرامهما وتوقيرهما واحترامهما وأداء حقوقهما؛ قولًا وفعلًا وبذلًا.

وبدأ عز وجل، بعد النهي عن الشرك، بالأمر بالإحسان إلى الوالدين؛ لأن حقهما

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان، من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة (٣٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦)، وأحمد (٥/ ١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٦٨)، ومسلم في الإيمان (٩٤)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٤).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٢)، وأخرجه أيضًا (٩٣) من حديث جابر رضي الله عنه.

آكد الحقوق بعد حقه عز وجل؛ ولهذا قرن الله عز وجل حقهما بحقه في آيات عدة، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصّلاة على وقتها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**برّ الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[1].

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وحرم عليكم أن تقتلوا أولادكم من إملاق؛ فبعد أن أوصى بالإحسان إلى الوالدين أتبع ذلك بالعناية بالأولاد، و«الأولاد» يشمل الذكور والإناث.

﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ تعليلية، أي: بسبب إملاق، و«الإملاق»: الفقر، أي: بسبب فقركم الحاصل.

وقد كانوا في الجاهلية يقتلون أولادهم بسبب الفقر أو مخافة الفقر، ويئدون البنات مخافة العار أو الفقر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨-٩].

عن عبد الله بن مسعود، قلت: يا رسول الله، أي: الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وقد خلقك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٧)، ومسلم في الإيمان (٨٥)، والنسائي في المواقيت (٦١٠).
وقد سبق الكلام على هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، وسيأتي بأوسع في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨][1].

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ الجملة معترضة بين قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ علة للنهي عن قتلهم، وإبطالًا لتبريرهم؛ لأنهم قد جعلوا الفقر مبررًا لقتل أولادهم، مع أنه لا يبرر لهم قتلهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، أي: نحن نتكفل برزقكم ورزقهم.

وبدأ هنا برزق الآباء؛ لأنه الأهم؛ بسبب أن الفقر حاصل وواقع، فقال: ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ بينما بدأ في آية سورة الإسراء برزق الأولاد؛ لأنه الأهم؛ بسبب أن الفقر لم يكن واقعًا فعلًا، وإنما كان مخشيًّا في المستقبل؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١].

وعدل عن طريق الغيبة الذي جرى عليه الكلام من قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى طريق التكلم؛ فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ لتأكيد ضمانه ذلك لهم، وتكفله به، وأنه الرزاق وحده، ولم يجعل بينه وبين عباده في رزقه لهم واسطة.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ معطوف على ما قبله، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ أبلغ في التحذير، وآكد من النهي عن ملابستها ومباشرتها، أي: من لو قال: (لا تفعلوا الفواحش)؛ لأن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ نهي عما يؤدي إليها ويكون سببًا لفعلها، ونهي عن فعلها من باب أولى، أي: ابتعدوا عنها كل البعد؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢]؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

و«الفواحش»: جمع فاحشة، وهي: ما فحش في الشرع وعُرف المسلمين، وهي الذنوب العظام والآثام الكبار؛ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١)، ومسلم في الإيمان، كون الشرك أعظم الذنوب وبيان أعظمها بعده (٨٦)، وأبو داود في الطلاق (٢٣١٠)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٨٣).

سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ [النساء: ٢٢].

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ في محل نصب بدلًا من ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾، و«ما» موصولة تفيد العموم، أي: الذي ظهر منها والذي بطن، أي: لا تقربوا الفواحش؛ الظاهر منها والباطن، أي: الذي أُظهر منها وأُعلن وجُهر به؛ كالزنا علانية والقذف والغصب، وغير ذلك من الآثام الظاهرة، والذي بطن منها وأُخفي؛ كاتخاذ الأخدان، والزنا سرًّا، وأمراض القلوب.

وقد كانوا لا يرون بأسًا بالزنا سرًّا، ويُستقبحونه علانية؛ فنهى الله عن ذلك كله؛ ما ظهر منها وما بطن، وما يتعلق بالظاهر، وما يتعلق بالقلب والباطن.

والمعنى: أن الله حرَّم الفواحش؛ الظاهر منها والباطن، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أغير من الله؛ من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[1].

وعن سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه قال: لو رأيت مع امرأتي رجلًا لضربته بالسيف غير مُصْفِح؛ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**أتعجبون من غيرة سعد؟! والله لأنا أغير منه، والله أغير منّي؛ لهذا حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[2].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ معطوف على ما قبله، وهو داخل في الفواحش، وخُصَّ بالذكر؛ استفظاعًا له وتهويلًا، أي: وحرَّم عليكم قتل النفس التي حرَّم الله قتلها، وهي النفس المعصومة: نفس المسلم، والمُعاهَد، والمُستأمَن.

قال ﷺ: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله، ويقيموا الصّلاة، ويؤتوا الزّكاة؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم، إلا بحقّ**

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٣٤)، ومسلم في التوبة، غيرة الله وتحريم الفواحش (٢٧٦٠)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٦)، ومسلم في اللعان (١٤٩٩).

الإسلام، وحسابهم على الله»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **«ألَا من قتل نفسًا معاهدًا له ذمَّة الله وذمّة رسوله فقد أخفر بذمّة الله؛ فلا يُرَح رائحة الجنّة، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا»**(٢).

وقال عز وجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦].

وفي الحديث قوله ﷺ: **«قد أجرنا من أجرْتِ، يا أمَّ هانئٍ»**(٣).

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا تقتلوها بأي حال من الأحوال إلا بالحق، والباء للملابسة، وهو متعلق بحال من فاعل: «تقتلوا»، أو بمحذوف نعت لمفعول مطلق مقدر، أي: إلا حال كونكم متلبسين بالحق، أو إلا قتلًا متلبسًا بالحق.

والمعنى: إلا بما يحق ويوجب قتلها بسببه؛ كالزنا بعد الإحصان، وقتل العمد، والردة عن الإسلام، ونحو ذلك.

قال ﷺ: **«لا يحلّ دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاثٍ: الثّيّب الزّاني، والنّفس بالنّفس، والتّارك لدينه المفارق للجماعة»**(٤).

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ الإشارة لما حرَّمه الله وأوصى به بقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، أي: ذلكم المذكور.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥)، ومسلم في الإيمان (٢٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي في الديات، ما جاء فيمن يقتل نفسًا معاهدًا (١٤٠٣)، وابن ماجه في الديات، من قتل معاهدًا (٢٦٨٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٥٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٣٣٦)، من حديث أم هانئ رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الديات، قول الله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة والقصاص، ما يُباح من دم المسلم (١٦٧٦)، وأبو داود في الحدود (٤٣٨٢)، والنسائي في القسامة (٤٧٢١)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك»؛ تعظيمًا له، أي: ذلكم ما وصَّاكم به من الوصايا العظيمة.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تعقلوا، أي: تتأملوا بعقولكم، وتنتفعوا بما أوصاكم به من هذه الوصايا، وتحفظوها، وتقوموا بها.

ودلت الآية على أنه بحسب عقل الإنسان يكون قيامه بأمر الله.

وقد اشتملت هذه الآية على خمس وصايا؛ منها ما هو نهي يتضمن الأمر بضده، ومنها ما هو أمر يتضمن النهي عن ضده؛ وهي النهي عن الشرك بالله وتحريمه وإيجاب توحيده، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، وتحريم عقوقهما والإساءة إليهما، والنهي عن قتل الأولاد مخافة الفقر، وتحريم ذلك، والنهي عن قرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحريم ذلك، والنهي عن قتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وتحريم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ فهذا من ضمن ما حرَّمه الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾ كما سبق في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾؛ فهو أبلغ في التحذير، وآكد في النهي، أي: ابتعدوا عن مال اليتيم وعن التعرض له بأي وجه من الوجوه؛ بأكل، أو أخذ منه، أو تصرُّف لمصلحتكم، أو مخاطرة فيه، ونحو ذلك.

﴿مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾، «المال»: كل ما يُتموَّل ويُملك؛ من نقد، وعقار، وأعيان، وغير ذلك، و«اليتيم»: من فقد أباه دون البلوغ، ذكرًا كان أو أنثى، فإذا بلغ زال عنه اليتم؛ لقوله ﷺ: **«لا يُتم بعد حلم»**(١).

﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، «إلا» أداة حصر، والباء للملابسة، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا تقربوا مال اليتيم بحال من الأحوال إلا بالخصلة التي هي

---

(١) سبق تخريجه.

أحسن، مما فيه حفظه وصلاحه وتنميته، والإنفاق عليه منه وإخراج الحقوق الواجبة فيه؛ كالزكاة والنفقة على من تلزمه نفقته، أو أكل لولي الفقير منه بالمعروف، كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، «حتى» للغاية، أي: إلى غاية أن يبلغ أشده، ببلوغه سن النكاح، وإيناس الرشد منه، أي: حسن التصرف في ماله، كما قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

والمعنى: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده فتردون إليه ماله، وليس المعنى أنه إذا بلغ أشده جاز أن تقربوا ماله بغير التي هي أحسن.

وإنما خُصَّ مال اليتيم بهذه العناية؛ لضعف اليتيم، وكون ماله مظنة الاعتداء عليه من الولي، حتى ولو كان من أقرب الناس إليه.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ معطوف على ما قبله، والباء في قوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ للملابسة، أي: وأوفوا الكيل والوزن بالعدل والتمام، وهو نهي عن ضده؛ وهو البخس والنقص، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٥، الشعراء: ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١-٣].

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ احتراس من أن يظنوا أنهم يُطالبون من الوفاء والعدل في الكيل والوزن ما لا يستطيعونه؛ فـ«لا» نافية، و«نفسًا» نكرة في سياق النفي، أي: لا نحمل أيَّ نفس ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر ﴿وُسْعَهَا﴾ طاقتها وقدرتها وما تستطيعه.

فمن اجتهد وبذل وسعه وطاقته في الوفاء بالكيل والوزن، وفي أداء الحق وأخذه، وحرص على ذلك؛ فقد أدَّى ما عليه، وبرئت ذمته، فإن فاته شيء مما لا يستطيع التحرز منه من نقص أو زيادة يسيرة؛ فلا شيء عليه؛ لأن الله لا يُكلف نفسًا إلا وسعها؛ كما قل تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وعدل في هذا الاحتراس عن الغيبة إلى التكلم؛ لزيادة الامتنان، وتكلم عز وجل

بضمير الجمع؛ إظهارًا لعظمته.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ معطوف على ما قبله، أمر بالوفاء بالكيل والوزن والعدل فيهما، ثم أتبع ذلك بالأمر بالعدل بالقول؛ وهو نهي عن ضد ذلك، وهو الظلم والجور.

«إذا» ظرفية شرطية، ﴿قُلْتُمْ﴾ فعل الشرط، ﴿فَٱعْدِلُواْ﴾ جواب الشرط، ورُبط بالفاء؛ لأنه جملة طلبية، أي: وإذا قلتم وتكلمتم فاعدلوا وأنصفوا مع كل أحد، وفي كل قول؛ في الشهادات والقضاء، والتعديل والتجريح، والوصايا والصلح، والمطالبة بالحقوق، وغير ذلك؛ قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

وفي التعليق بالشرط في قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ إشارة إلى أن في السكوت سعة إذا خشي عدم العدل في القول، وفي الحديث: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[١].

وفي الأثر: الصمت حكمة، وقليل فاعله[٢].

وقد أحسن القائل:

ولئن ندمت على سكوتك مرّةً … فلتندمنّ على الكلام مرارًا[٣]

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ الواو حالية، أي: ولو كان الحال أن الذي تعلق به القول ذا قربى، أي: صاحب قرابة؛ فيجب العدل في القول معه سواء كان الحق عليه أو له، ولا يجوز ترك العدل معه محاباة لقرابته لنفعه أو الدفع عنه، وغيره من باب أولى.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧١).

(٢) روي نحو هذا مرفوعًا إلى النبي ﷺ؛ أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «الصمت حكمة، وقليل فاعله».

وقد روي هذا عن لقمان. انظر: «الجامع» لابن وهب (ص٥٠٧ رقم ٣٩٤)، «الزهد والرقائق» لابن المبارك و«الزهد» لنعيم بن حماد (١/ ٢٨٩).

(٣) انظر: «الموشى؛ الظرف والظرفاء» (ص٨).

أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ معطوف على ما قبله، «بعهد الله» متعلق بـ«أوفوا»، وقُدِّم عليه للعناية والاهتمام بعهد الله.

و«عهد الله» يصح أن يكون من إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: أوفوا بما عاهدكم الله عليه، أي: بما عهد إليكم من الشرائع، ويصح أن يكون من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: أوفوا بما عاهدتم الله عليه أن تفعلوه؛ فيما بينكم وبينه، وفيما بينكم مع بعضكم بعضًا من عهود وعقود، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

أي: أوفوا بما عهد الله إليكم وما عاهدتموه عليه، من القيام بحقوقه والوفاء بها؛ مما بينكم وبينه، ومما بين بعضكم مع بعض.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. والإشارة للأحكام المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ۚ﴾. وأشار إليها بإشارة البعيد «ذلك» تعظيمًا لها، أي: ذلكم الأحكام العظيمة وصاكم وأمركم بها أمرًا مؤكدًا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بتخفيف الذال: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ حيث جاء في القرآن، وقرأ الباقون: «تذَّكَّرون» بتشديدها، وأصلها «تتذكرون»، فمن خفف: حذف إحدى التاءين، ومن ثقَّل أدغم التاء في الذال.

و«لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تذَّكروا، أي: تتعظوا وتعتبروا.

وقد اشتملت هذه الآية على أربع وصايا، وهي: النهي عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، والوفاء بالكيل والوزن بالقسط، والعدل في القول مع كل أحد، والوفاء بعهد الله.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

ختم عز وجل هذه الوصايا بهذه الوصية العامة الجامعة المانعة؛ وهي الأمر والإغراء باتباع سبيله ودينه المستقيم دين الإسلام، والتنويه بالوصايا المذكورة، وأنها لباب هذا الدين، والتحذير من اتباع السبل المتفرقة المفرقة عن سبيله، وهي الوصية العاشرة.

قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الهمزة «وإن» على الاستئناف، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَنَّ﴾، إلا أن يعقوب وابن عامر خففا النون، وشددها الباقون.

فتكون الجملة على قراءة الفتح معطوفة على ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾، والتقدير: قل: تعالوا أتل ما حرَّم ربكم عليكم، وأتل عليكم استقامة صراطي.

والإشارة إلى دين الإسلام وما اشتمل عليه من الوصايا العظيمة النافعة المذكورة وغيرها، كما قال تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]، أي: وأن هذا سبيلي وديني «دين الإسلام».

وأضاف عز وجل الصراط إليه؛ تعظيمًا له، ولأنه سبحانه هو الذي جعله ونصبه طريقًا لمن وفقه تعالى من عباده، ولأنه يؤدي إليه عز وجل وإلى مرضاته؛ قال تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١].

وأفرد الصراط ووحده؛ لأن صراط الله وسبيله واحد؛ وهو سبيل الحق. وعدل عن الغيبة التي جرى عليها الكلام في قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى التكلم للإيماء إلى عظمة هذا الصراط؛ لكونه صراط الله.

﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال، و«المستقيم» في الأصل: أقرب خط يصل بين نقطتين، ومعنى ﴿مُسْتَقِيمًا﴾، أي: عدلًا لا اعوجاج فيه ولا التواء، أيسر سلوكًا، وأقرب إيصالًا إلى السعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدَّر، أو عاطفة، أي: فاسلكوه وخذوا به والزموه، لتسعدوا في دينكم ودنياكم وأُخراكم، وتفوزوا بحصول المطلوب، والنجاة من المرهوب.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾، أي: ولا تسلكوا الطرق الأخرى غير المستقيمة، وجمعها؛ لكثرتها وتفرقها وتشعبها؛ فطريق الحق واحد، وطرق الباطل متعددة.

ولهذا يُذكر الصراط المستقيم مفردًا- كما سبق- ويذكر ما عداه من السبل جمعًا؛ كما يُذكر النور مفردًا وتجمع الظلمات، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الفاء للسببية، والباء للمصاحبة.

والمعنى: فتفرقكم عن سبيله ودينه يمينًا وشمالًا، وتضلكم.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ الإشارة لقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تتقوا الله بفعل ما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه.

وقد اشتملت هذه الآيات الثلاث على عشر وصايا:

في الآية الأولى ذكر خمس وصايا، وختمها بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وذكر في الثانية أربع وصايا، وختمها بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وذكر في الثالثة واحدة، وختمها بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وتدرج فيها من الأمر بالتعقل والتأمل، ثم التذكر والاتعاظ، ثم التقوى بفعل ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه.

عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: خط رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيمًا**»، وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: «**هذه السّبل؛ ليس منها سبيلٌ إلّا عليه شيطانٌ يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[(١)].

وعن أبان أن رجلًا قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: «تركنا محمد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جواد، وعن يساره جواد، وثَمَّ رجال يدعون من مر بهم؛ فمن أخذ بتلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة»، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الآية[(٢)].

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، وقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ونحو هذا في القرآن، قال: «أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله»[(٣)].

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن ربه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

٢- إقامة الحجة على المشركين وعلى غيرهم في بيان ما حرمه الله تعالى عليهم حقًّا؛ لقوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

٣- أن التحريم والتحليل إنما أمره إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾.

٥- تحريم الشرك بالله تعالى، ووجوب توحيده عز وجل وإفراده بالعبادة؛ لأنه حق الله تعالى على العباد، وهو أوجب حق عليهم وأعظمه؛ ولهذا بدأ به؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، والحاكم في تفسير سورة الأنعام (٢/ ٣١٨)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٦٧١)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٦٢)؛ من رواية ابن مردويه

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٦٧٠).

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

٦- وجوب الإحسان إلى الوالدين، وتحريم عقوقهما، والإساءة إليهما، أو ترك الإحسان لهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

٧- عظم حق الوالدين؛ لأن الله قرنه بحقه عز وجل في الآية، وفي آيات عدة في القرآن الكريم.

٨- تحريم قتل الأولاد بسبب الفقر، وعناية الله تعالى بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

٩- أن رزق الوالدين والأولاد كله إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

١٠- أن الأرزاق بيد الله تعالى، فهو الرازق والرزاق وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٨].

١١- بلاغة القرآن الكريم؛ فحيث كان قتلهم الأولاد بسبب الفقر الحاصل قدَّم رزق الآباء في الآية، بينما قدَّم رزق الأولاد في سورة الإسراء لما كان قتلهم خشية الفقر؛ فقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

١٢- تحريم الفواحش؛ الظاهر منها والباطن، ووجوب الابتعاد عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

١٣- تحريم قتل النفس المعصومة التي حرَّم الله قتلها إلا بالحق، وهي نفس المؤمن والمعاهد والمستأمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

١٤- صيانة الإسلام للنفوس والدماء.

١٥- وجوب قتل من استحق القتل؛ كالزاني المحصن، والقاتل عمدًا، والمرتد؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

١٦- تعظيم هذه الوصايا الخمس المذكورة في الآية، وتأكيد وجوب الأخذ بها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾.

١٧- أن الله عز وجل أوصى بهذه الوصايا للتعقل والتأمل فيها، والانتفاع والعمل

بها؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٨- فضل العقل لمن انتفع به فقاده إلى التدبر والتأمل في آيات الله والعمل بشرعه.

١٩- تحريم الاعتداء على مال اليتيم، والتصرف فيه بأي وجه من الوجوه، إلا بما هو أحسن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

٢٠- وجوب تصرف الولي بمال اليتيم لصالح اليتيم، وما هو أحسن له في الحفظ والتنمية، والإنفاق عليه منه، وإخراج الحق الواجب فيه من الزكاة وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

٢١- عناية الشرع المطهر باليتامى، وأموالهم، وحقوقهم.

٢٢- وجوب الحجر على اليتيم في ماله، وعدم تسليمه له حتى يبلغ أشده؛ ببلوغ سن النكاح، وإيناس الرشد منه، فإذا بلغ ذلك وجب رد المال إليه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

٢٣- وجوب الوفاء بالكيل والوزن بالعدل، وتحريم بخس المكيال والميزان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.

٢٤- الاحتراس من أن يفهم من قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ تكليف ما لا يطيقه الإنسان مما قد يصعب الاحتراز منه؛ من نقص، أو زيادة طفيفة في الكيل والوزن؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٢٥- وجوب العدل في كل قول، ومع كل أحد؛ في الشهادات والقضاء والوصايا، والتعديل والتجريح، وغير ذلك، مع القريب والبعيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

وكثير من الناس قد يعدل وينصف بالكيل والوزن الحسي، لكنهم لا يعدلون ولا ينصفون بالقول والكلام المعنوي، وقد يكون أشد من عدم العدل في الكيل والوزن الحسي.

٢٦- الإشارة إلى أن السكوت خير من الكلام إذا خيف عدم العدل؛ يؤخذ هذا من التعليق بالشرط في قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾.

٢٧- أن مما قد يحمل على عدم العدل في القول محاباة القريب؛ لهذا خص بالذكر،

وغيره من باب أولى.

٢٨- وجوب الوفاء بعهد الله؛ بالقيام بما أوجب الله على العباد فيما بينه وبينهم، وفيما بينهم مع بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾.

٢٩- تعظيم هذه الوصايا الأربع في هذه الآية، وتأكيد وجوب الأخذ بها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٣٠- أن الله تعالى أوصى بهذه الوصايا للتذكر والاتعاظ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٣١- تعظيم الله عز وجل لصراطه ودينه دين الإسلام، بإضافته إليه ووصفه بالاستقامة؛ إغراء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾.

٣٢- وجوب اتباع صراط الله ودينه دين الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾.

٣٣- النهي عن اتباع ما عدا سبيل الله من السبل الكثيرة المتشعبة المتفرقة؛ لأنها تفرق وتضل من اتبعها عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

٣٤- أن سبيل الله وطريق الحق واحد، وسبل الباطل وطرقه كثيرة متشعبة؛ لأن الله أفرد صراطه وسبيله، وجمع ما عداه من السبل.

٣٥- تعظيم هذه الوصية باتباع دين الإسلام، وتأكيد وجوب الأخذ بها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٣٦- أن الله تعالى أوصى بهذه الوصية؛لأجل تقواه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٣٧- في ختام الآيات الثلاث بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بهذا الترتيب؛ إشارة إلى أن التعقل سبب للتذكر، وأنهما سببان لتقوى الله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، «ثم» هنا ليس المراد منها الزمان؛ ولهذا قال بعضهم إنها هنا للاستئناف.

والمقصود- والله أعلم- بذكر إيتاء موسى عليه السلام الكتاب التمهيد لقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾؛ ليرتب عليه قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ الآية، وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ الآية.

وكثيرًا ما يقرن الله عز وجل بين ذكر القرآن والتوراة؛ لأن أعظم كتب الله تعالى القرآن الكريم ثم التوراة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢]، وقوله في أول هذه السورة: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩١-٩٢].

وقوله تعالى مخبرًا عن المشركين: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [القصص: ٤٨].

وقوله تعالى مخبرًا عن الجن أنهم قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ

مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٣٠].

﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: أعطيناه وأنزلنا عليه الكتاب، و(ال) في «الكتاب» للعهد، أي: الكتاب المعهود «التوراة».

﴿تَمَامًا﴾ مفعول لأجله، أي: لأجل تمام نعمتنا، أو هو حال من الكتاب، أي: حال كونه تمامًا، أي: تامًّا جامعًا، أو حال من الفاعل، أي: متمِّين، أو نصب على المصدرية، والتقدير: آتيناه إيتاء تمام لا نقصان.

﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ﴾ متعلق بـ«تمامًا».

﴿أَحْسَنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود إلى موسى، أو يعود الضمير إليه وإلى من أحسن من قومه.

و«الذي»- على هذا- بمعنى «من»، والمعنى: وآتينا موسى الكتاب تمامًا لنعمتنا وكرامتنا على موسى عليه السلام، الذي أحسن بتبليغ ما آتاه الله والقيام بأمر الله، وعلى من اتبعه من بني إسرائيل الذين أحسنوا بالإيمان والانقياد لأمر الله؛ فقد أنعم الله عليهم بنعم لا تُحصى، من جملتها وتمامها إنزال التوراة عليهم، مما يوجب عليهم شكره.

وقال بعضهم: «الذي» بمعنى «ما» الموصولة، والتقدير: تماما على ما أحسنه، أي: على الذي أحسنه، أو مصدرية، والتقدير: تمامًا على إحسانه.

والمعنى: وآتينا موسى الكتاب تمامًا لنعمتنا عليه وإكرامنا له على الذي أحسنه، أو على إحسانه بتبليغ رسالة ربه والقيام بأمره، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ الواو عاطفة، أي: وتبيينًا لكل شيء يُحتاج إلى بيانه في شريعته؛ من العقائد والأحكام، والحلال والحرام، والأمر والنهي، والأصول والفروع، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية [الأعراف: ١٤٥].

﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة.

﴿وَرَحْمَةً﴾ يحصل لهم بسببها السعادة والخير، ويندفع بها الشر - بإذن الله- في الدنيا والآخرة.

﴿لَعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يؤمنوا بلقاء ربهم، أي: يُصدِّقوا بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال والعرض على الله تعالى، ويستعدوا لهذا اللقاء، ويعملوا له صالحًا؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦].

وقدم المتعلق، وهو قوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ على ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وهو متعلق به؛ للاهتمام بلقاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَهَٰذَا﴾ الإشارة للقرآن الكريم، وفي افتتاح الجملة بها تنويه به.

﴿كِتَٰبٌ﴾ نُكِّر للتعظيم، أي: كتاب عظيم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧].

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ صفة لـ«كتاب».

﴿مُبَارَكٌ﴾ صفة ثانية لـ«كتاب»، أي: فيه الخير الكثير، والعلم الغزير.

﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الفاء للتفريع، والخطاب للمشركين؛ لقوله بعد ذلك: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾ الآية.

والمعنى: فاتبعوه فيما يأمر به وينهى عنه، واعملوا بما فيه.

وقدَّم قبل الأمر باتباعه الثناء عليه وتعظيمه ووصفه بكونه منزلًا من عند الله مباركًا؛ للإغراء باتباعه.

﴿وَٱتَّقُوا۟﴾، أي: واتقوا الله أن تُخالفوا ما أمركم به أو نهاكم عنه في هذا الكتاب.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: لأجل أن يرحمكم الله؛لأن أكبر سبب لنيل رحمة الله تعالى اتباع هذا الكتاب العظيم علمًا به وعملًا.

وفي هذا وعد على اتباعه، وتعريض بالوعيد على الإعراض عنه.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن

دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾، «أن» تعليلية، أي: لئلا تقولوا، والخطاب للمشركين.

﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، «إنما» أداة حصر، أي: ما أُنزل الكتاب إلا على طائفتين من قبلنا.

ويعنون بـ«الكتاب» جنس الكتاب المنحصر في التوراة والإنجيل، ويعنون بالطائفتين من قبلهم: اليهود والنصارى.

والمعنى: وهذا كتاب أنزلناه؛ لئلا تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، أي: قطعًا لحجتكم وعذركم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: ٤٧].

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ الواو عاطفة، أي: وإن كنا عن قراءة كتبهم وتلاوتها، كما قال تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ [سبأ: ٤٤].

﴿لَغَٰفِلِينَ﴾، «الغفلة»: السهو وعدم التفطن والاهتمام، أي: لم نهتم بما حوت عليه كتبهم، وليس لنا في كتبهم ودراستها، ولا بلسانهم علم ولا معرفة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

قوله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، أي: وأنزلنا هذا الكتاب؛ لئلا تقولوا: لو أنا أُنزل علينا الكتاب كما أُنزل على هاتين الطائفتين من قبلنا لكنا أهدى منهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٤٨].

﴿لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡ﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لكنا أهدى منهم للحق، وأسرع اتباعًا للكتاب، وأشد استقامة منهم. وفي هذا إشارة لما عليه العرب من الاعتداد بفصاحتهم وفطنتهم، وحدة أذهانهم، وسرعة تلقيهم، وأنَّى ينفعهم ذلك إن عدِموا التوفيق من الله؟

﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ الفاء تعليلية، أو رابطة لشرط مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: فقد جاءكم كتاب من ربكم، فيه بيان كل شيء وهدى ورحمة، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣﴾ [البينة: ١-٣].

لم ينزل من السماء كتاب أجمع منه، ولا أوضح منه، ولا أبين، وفي هذا قطع لعذركم وتعللكم، أن تقولوا: لو أنا أُنزل علينا ما أُنزل عليهم لكنا أهدى منهم.

وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تذكير لهم بربوبيته لهم وعنايته بهم؛ خلقهم ورزقهم، وأنعم عليهم بسائر النعم؛ ليشكروه ولا يكفروه.

﴿وَهُدٗى﴾ من الضلالة، وبيان للحق من الباطل، والحلال من الحرام؛ لما اشتمل عليه من الإرشاد والتعليم والبيان، كما قال تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾ [القصص: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: ١٢٣].

﴿وَرَحۡمَةٞ﴾، أي: ورحمة من الله بعباده الذين يؤمنون بهذا الكتاب ويتبعونه، فيسعدون بذلك في دينهم ودنياهم وأُخراهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾

[الجاثية: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ [لقمان:٣].

وفي وصف القرآن بهذه الأوصاف العظيمة ما يوجب أن يغتبطوا به؛ لما فيه من فضل وتشريف لهم، لو كانوا يعقلون، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء: ١٠]. وما يوجب تصديقه واتباعه والدعوة إليه، لا تكذيبه والإعراض عنه؛ ولهذا قال:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ الفاء استئنافية، «من» اسم استفهام للإنكار والنفي، أي: لا أحد أظلم.

و«من» في قوله: ﴿مِمَّن﴾ اسم موصول، أي: فمن أظلم من الذي كذَّب بآيات الله، ولم يقل: فمن أظلم منكم؛ لبيان علة الحكم، وليشملهم هذا الوصف، وكل من كذَّب بآيات الله وصدف عنها.

و«أظلم» أفعل تفضيل، أي: لا أحد أشد ظلمًا من الذي كذَّب بآيات الله، أي: جحد وأنكر بقلبه آيات الله الشرعية التي أنزلها على رسوله محمد ﷺ فلم يؤمن بها باطنًا.

﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، أي: وصد وانصرف وأعرض عنها؛ فلم يعمل بها بجوارحه، ولم يؤمن بها ظاهرًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة: ٣١-٣٢]، وصد الناس أيضًا وصرفهم عنها، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنعام: ٢٦].

ويجوز أن يكون معنى ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: جحدها وأنكرها، ولم يؤمن بها وأعرض عنها، ومعنى ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، أي: صد الناس وصرفهم عنها.

والمعنى: أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن جمع بين التكذيب بآيات الله وعدم الإيمان بها، وبين صد الناس عنها؛ بين الظلم بتكذيب آيات الله والظلم للنفس، والظلم للناس بصدهم عن آيات الله. وفي هذا وعيد وتهديد لهم؛ ولهذا قال:

﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾، أي: سنجازي ونثيب الذين يصدفون عن آياتنا بالإعراض عنها بأنفسهم، وصرف غيرهم وصدهم عنها.

﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: العذاب السيء الذي

يسوؤهم ويشق عليهم، و«سوء العذاب»: أشده وأقواه وأعظمه؛ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ الباء سببية، و«ما» مصدرية، أي: جزاء لهم؛ بسبب كونهم يصدفون عن آيات الله ويُعرضون عنها، ويصدون غيرهم من الناس ويصرفونهم عنها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه الصلاة والسلام، وإنزال التوراة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾.

٢- فضيلة التوراة، وأنه أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا﴾؛ فأطلق عليه اسم «الكتاب» بالتعريف، ووصفه بالتمام.

٣- تمام نعمة الله تعالى وكرامته على موسى عليه السلام؛ بإيتائه الكتاب تمامًا جامعًا لإحسانه وقيامه بأمر الله تعالى، وذلك نعمة أيضًا على من أحسن من بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾.

٤- أن الجزاء من جنس العمل؛ فمن أحسن العمل فله حسن الثواب والجزاء.

٥- تفصيل التوراة، وبيانها لكل ما يحتاج إلى بيانه في شريعة موسى عليه السلام؛ من العقائد والأحكام، والحلال والحرام، والأمر والنهي، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

٦- اشتمال التوراة على الهداية من الضلالة وبيان الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

٧- أن في إيتاء موسى عليه السلام التوراة رحمة من الله تعالى له ولقومه؛ لما فيها من الهدى إلى الحق، والتبصير من الضلالة والغواية، والإرشاد إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة، ومرضاة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً﴾.

٨- بيان الحكمة من إيتاء موسى عليه السلام الكتاب تامًّا جامعًا مفصلًا لكل

شيء، مشتملًا على الهدى والرحمة؛ وهي أن يؤمن قومه بلقاء الله، ويستعدوا لذلك اللقاء بالعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، وهذه هي الغاية من بعث الرسل جميعًا وإنزال الكتب.

٩- إثبات البعث والحساب ولقاء الله تعالى، وعرض الخلائق عليه، ووجوب الإيمان بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١١- التنويه بشأن القرآن الكريم وتعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ الآية.

١٢- إثبات نزول القرآن من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

١٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فله عز وجل العلو المطلق؛ علو الذات وعلو الصفات.

١٤- بركة القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿مُبَارَكٌ﴾؛ ففيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والنفع العظيم.

١٥- وجوب اتباع القرآن والعمل بما فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾.

١٦- وجوب تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا﴾.

١٧- أن اتباع القرآن وتقوى الله تعالى، كل ذلك سبب لرحمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

١٨- أن في إنزال هذا القرآن العظيم المبارك قطع لاعتذار المشركين واحتجاجهم؛ لئلا يقولوا: إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ولم يُنزل علينا كتاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾.

١٩- إثبات نزول التوراة والإنجيل من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾.

٢٠- معرفة المشركين والعرب بنزول هذين الكتابين على اليهود والنصارى.

٢١- غفلة المشركين والعرب عن دراسة كتب بني إسرائيل وعلومهم، وعدم اهتمامهم بذلك؛ لقولهم: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾.

٢٢- أن في إنزال القرآن الكريم قطع تعلل المشركين أنه لو أُنزل عليهم الكتاب لكانوا أهدى ممن قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾.

٢٣- أن الدعاوى إذا لم يكن لها حقيقة ولا رصيد من الواقع؛ فلا قيمة لها ولا اعتبار؛ فقول المشركين: ﴿لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ كذب وباطل، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٢-٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠].

وقد قيل:

وَالدَّعَاوَى إِذَا لَمْ يُقِيمُوا عَلَيْهَا ... بَيِّنَاتٌ أَصْحَابُهَا أَدْعِيَاءُ[1]

٢٤- بيان القرآن الكريم للحق من الباطل، والخير من الشر، والحلال من الحرام، وكل ما يُحتاج إليه في أمر الدين؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٥- أن القرآن الكريم هدى من الضلالة، وتبصير وإرشاد من العمى والغواية؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾.

٢٦- أن القرآن الكريم رحمة من الله تعالى لعباده، يهتدون به في الدنيا إلى الطريق المستقيم، وفي الآخرة إلى جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩)﴾ [الإسراء: ٩].

٢٧- أنه لا أشد ظلمًا ممن كذَّب بآيات الله بقلبه، وانصرف عن العمل بها

---

(١) البيت ينسب للبوصيري. انظر: «موسوعة الشعر العربي» ص١٤.

بجوارحه، وعمل على صد الناس عنها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؛ لأنه جمع بين الظلم بالتكذيب بآيات الله وظلم نفسه وظلم غيره.

٢٨- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن أعرض عن آيات الله، وصد الناس عنها بسوء العذاب وأشده؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾.

٢٩- أن العذاب دركات؛ منه سيئ، وأسوأ، وبين ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

٣٠- إثبات الأسباب، وما يتسبب عنها؛ فإن التكذيب بآيات الله والصدف عنها سبب لسوء العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

توعد عز وجل في الآية السابقة المشركين المكذبين بآيات الله، المعرضين عنها، الصادِّين للناس عنها بسوء العذاب، ثم هددهم في هذه الآية بقرب هذا العذاب.

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾، «هل» اسم استفهام، وهو هنا بمعنى الإنكار والنفي، أي: ما ينظرون، و«ينظرون» بمعنى: ينتظرون، والضمير عائد إلى الذين يكذبون بآيات الله ويصدفون عنها.

﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير «يأتيهم»، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾.

و«إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿يَنظُرُونَ﴾.

والتقدير: ما ينظرون إلا إتيان الملائكة.

والمعنى: ما ينتظر هؤلاء المكذبون بآيات الله الصادفون عنها إلا مجيء الملائكة- ملك الموت وأعوانه- لقبض أرواحهم، وملائكة العذاب لأخذ أرواحهم إلى النار، وفي هذه الحال لا ينفع الإيمان ولا صالح الأعمال.

﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾، «أو» عاطفة، أي: أو يأتي ربك- يا محمد- لفصل القضاء والحكم بين عباده، ومجازاتهم في موقف القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، أي: أو يأتي بعض آيات ربك الدالة على قرب الساعة، وهي أماراتها وأشراطها، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ [محمد: ١٨].

عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه، قال: اطَّلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «**ما تذاكرون؟**»، قالوا: نذكر الساعة، قال: «**إنّها لن تقوم حتّى تروا قبلها عشر آياتٍ**»؛ فذكر: «**الدّخان، والدّجّال، والدّابّة، وطلوع الشّمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوفٍ: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد النّاس إلى محشرهم**»[1].

وأول هذه الآيات طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة؛ لما رواه ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ أوّل الآيات خروجًا طلوع الشّمس من مغربها، وخروج الدّابّة على النّاس ضحًى، وأيّهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبًا**»[2].

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، أي: حين يأتي بعض آيات ربك الدالة على قرب القيامة، وهو طلوع الشمس من مغربها.

﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، «لا» نافية، و«نفسًا» مفعول، قدِّم على الفاعل «إيمانها»، وهي نكرة في سياق النفي؛ فتعم كل نفس.

والمعنى: حين يأتي بعض آيات ربك بطلوع الشمس من مغربها لا ينفع نفسًا إيمانها بعد ذلك، إذا لم تكن آمنت قبله.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن، الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٩٠١)، وأبو داود في الملاحم، أمارات الساعة (٤٣١١)، والترمذي في أبواب الفتن ٢١٨٣)، وابن ماجه في الفتن، باب الآيات (٤٠٥٥)، وأحمد (٤/ ٧).

(٢) أخرجه مسلم في الفتن، خروج الدجال ومكثه في الأرض (٢٩٤١)، وأبو داود في الملاحم، أمارات الساعة (٤٣١٠)، وابن ماجه في الفتن، طلوع الشمس من مغربها (٤٠٦٩).

﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ معطوف على ﴿ءَامَنَتْ﴾، أي: أو لم تكن كسبت في إيمانها خيرًا، و«في» للظرفية.

أي: ولا ينفع نفسًا مؤمنة ما عملته بعد ذلك إن لم تكن كسبت في إيمانها قبل ذلك وعملت خيرًا، أي: فلا يقبل بعد طلوع الشمس من مغربها إيمان كافر، ولا توبة فاسق، ولا يزداد مقصر خيرًا؛ فمن آمن بعد طلوع الشمس من مغربها من الكفار لم ينفعه إيمانه، ومن عمل صالحًا من المؤمنين بعد طلوع الشمس من مغربها لم ينفعه ذلك العمل، وإنما ينتفع بإيمانه وعمله قبل ذلك.

وذلك أن الإيمان بعد طلوع الشمس من مغربها ليس إيمانًا بالغيب؛ لأن الأمر قد صار شهادة، وهو وقت اضطرار لا اختيار؛ كحال من حضره الموت، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، وقال ﷺ: «**إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(١).

قال ابن كثير: «أي: إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذٍ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمنًا قبل ذلك، فإن كان مصلحًا في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مُخلِّطًا فأحدث توبة حينئذٍ لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه يُحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، أي: لا يُقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملًا به قبل ذلك»(٢).

وعلى هذا المعنى وهو أن المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ الآية: طلوع الشمس من مغربها دلت الأحاديث الصحيحة المتواترة، وأن الناس إذا طلعت الشمس من مغربها ورأوها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم؛ لغلق باب التوبة.

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، فضل التوبة والاستغفار (٣٥٣٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن».

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «**لا تقوم السّاعة حتى تطلع الشّمس من مغربها؛ فإذا طلعت ورآها النّاس آمنوا أجمعون، وذلك حين** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾»(١).

وفي رواية عنه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ إذا خرجن** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾: **طلوع الشّمس من مغربها، والدّجّال، ودابّة الأرض**»(٢).

وعن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه، أنه ﷺ قال يومًا: «**أتدرون أين تذهب هذه الشّمس؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**إنّها تجري حتّى تنتهي إلى مستقرّها تحت العرش؛ فتخرّ ساجدةً، فلا تزال كذلك حتى يُقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت؛ فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها، ثم تجري حتّى تنتهي إلى مستقرّها تحت العرش؛ فتخرّ ساجدةً، ولا تزال كذلك حتّى يُقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر النّاس منها شيئًا حتّى تنتهي إلى مستقرّها ذاك تحت العرش، فيُقال لها: ارتفعي أصبحي طالعةً من مغربك؛ فتصبح طالعةً من مغربها**»، فقال رسول الله ﷺ: «**أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾»(٣).

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إنّ الله عز وجل يبسط يده باللّيل؛ ليتوب مسيء النّهار، ويبسط يده بالنّهار؛ ليتوب مسيء اللّيل؛ حتّى تطلع الشّمس من مغربها**»(٤).

وعن معاوية رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تنقطع الهجرة**

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنعام (٤٦٣٦)، ومسلم في الإيمان، بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٧).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٨)، والترمذي في تفسير سورة الأنعام (٣٠٧٢).

(٣) خرجه مسلم في الإيمان (١٥٩).

(٤) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٩).

حتّى تنقطع التّوبة، ولا تنقطع التّوبة حتى تطلع الشّمس من مغربها»[1].

﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، أي: قل لهم- يا محمد- انتظروا هذا الوعيد بإتيان الملائكة بالموت لقبض أرواحكم، أو إتيان ربك لفصل القضاء والحكم بين الخلائق، وذلك يوم القيامة، أو إتيان بعض آياته، التي إذا جاءت لم يُقبل منهم الإيمان، ولا الزيادة في العمل ممن كان مؤمنًا قبل ذلك، أو انتظروا ما كنتم تنتظرون بنا من قوارع الدهر ومصائب الأمور.

﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ وعد الله بنصره ومثوبته لنا، ونزول وعيده فيكم، وفصله بيننا وبينكم بالحق، وهو خير الفاصلين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «فارقوا» بالألف مع تخفيف الراء، وقرأ الباقون بغير ألف مع التشديد: ﴿فَرَّقُواْ﴾.

ومعنى: ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾، أي: شتتوه وتفرقوا فيه على ملل ونحل شتى.

﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، أي: فرقًا وأحزابًا وجماعات، يكفر بعضهم بعضًا، أو يبدع بعضهم بعضًا، أو يفسق بعضهم بعضًا، وقد يقاتل بعضهم بعضًا.

وقد اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية؛ فمنهم من قال: المراد بها اليهود والنصارى. ومنهم من قال: المراد بها المشركون. ومنهم من قال: هي في أهل البدع والشبه والضلالات. ومنهم من قال: هي في الخوارج، إلى غير ذلك.

والظاهر: أن الآية عامة في كل من فرَّقوا دينهم وفارقوه وخالفوه، وكانوا شيعًا وأحزابًا، وأول من يدخل في هذا الوصف اليهود والنصارى؛ ولهذا حذَّر الله هذه الأمة من مشابهتهم في ذلك؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٤٧٩).

كما يدخل في هذا الوصف كل من فرقوا دينهم وفارقوه وخالفوه من هذه الأمة، وقد قال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقةً، وافترقت النّصارى على اثنتين وسبعين فرقةً، وستفترق هذه الأمّة على ثلاثٍ وسبعين فرقةً؛ كلّها في النّار إلا واحدةً**»(١).

ولهذا أمر الله عز وجل هذه الأمة بالاجتماع، ونهاهم عن التفرق؛ قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فكل من خالف دين الله وخرج عن المحجة التي ترك عليها محمد ﷺ أصحابه، وما عليه سلف الأمة؛ فهو داخل تحت هذا الوصف؛ من أهل الملل والنحل، والأهواء والضلالات والبدع، والفرق والأحزاب والجماعات؛ ولهذا يجب العمل على صيانة وحدة الأمة، والحذر كل الحذر من التفرق، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فإن قوة الأمة وعزتها في اجتماع كلمتها ووحدتها؛ كما قيل:

تَأْبَى الرِّمَاحُ إِذَا اجْتَمَعْنَ تَكَسُّرًا ... وَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكَسَّرَتْ آحَادًا(٢)

وما أضر بالمسلمين اليوم أشد من تفككهم وتفرقهم شيعًا وأحزابًا وجماعات، يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام، وكل يدعي أن الحق معه؛ حالهم كما قيل:

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلًا بِلَيْلَى ... وَلَيْلَى لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا(٣)

وكما قال شاعر الأندلس:

فَتَفَرَّقُوا شِيَعًا فَكُلُّ مَدِينَةٍ ... فِيهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْبَرُ(٤)

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، شرح السنة (٤٥٩)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الأغاني» ٤/ ١١٢، «مجمع الزوائد» ٨/ ١٢٦، «كنز العمال» ١٣/ ٦٠٠ (٣٧٥٥٢).

(٣) البيت ينسب لمجنون ليلى. انظر: «مجموع الفتاوى» ٤/ ٧١.

(٤) البيت بلا نسبة. انظر: «ديوان الحماسة» ١/ ١٧٦، «الجامع لأحكام القرآن» ١٦/ ٣٤٥.

وقال الآخر:

مِمَّـــا يُزَهِّـــدُني في أَرْضِ أَنْـــدَلُسٍ أَسْمَـــاءُ مُعْتَضِـــدٍ فِيهَـــا وَمُعْتَمِـــدِ
أَلْقَـــابُ مَـــمْلَكَةٍ في غَـــيْرِ مَوْضِـــعِهَا كَـالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًـا صَـوْلَةَ الأَسَـدِ

قوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾، أي: أنت براء منهم، لست منهم في شيء، وليسوا منك، وليس عليك هداهم، ولا إليك عقابهم.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا إنذار وتهديد شديد، «إنما» أداة حصر، أي: إنما أمرهم فيما هم فيه من التفرق في دينهم وحسابهم، وجزاؤهم على ذلك إلى الله تعالى وحده، لا إليك، ولا إلى غيرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، «ثم» للعطف مع التراخي، ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ يخبرهم.

﴿بِمَا كَانُواْ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي كانوا يفعلون، أو بفعلهم.

والمعنى: ثم يخبرهم بأفعالهم، ويحاسبهم، فيفصل بينهم بحكمه، ويجازيهم عليها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧].

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

هذه الآية تفصيل لما أُجمل في الآية قبلها من الجزاء؛ فيها بيان صفة الجزاء وكيفيته يوم القيامة، وبيان فضل الله عز وجل في حكمه وعدله.

قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، «من» اسم شرط جازم، و«جاء» فعل الشرط.

﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الباء للمصاحبة، و«الحسنة»: كل ما استحسنه الشرع من قول أو فعل، ظاهر أو باطن، أو تركٍ أو بذلٍ.

فذكر الله حسنة، وقراءة القرآن حسنة بل حسنات؛ كما قال ﷺ: **«من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنةٌ، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرفٌ، ولكن (ألفٌ)**

حرفٌ، و(لامٌ) حرفٌ، و(ميمٌ) حرفٌ»[(١)].

وبذل الزكاة والصدقة حسنة، وترك المنكر حسنة، وحسن الظن حسنة، ومحبة المؤمنين حسنة، وهكذا.

ومعنى ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، أي: من عملها، ووافى ربه بها يوم القيامة.

﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط.

قرأ يعقوب «عشرٌ» بالتنوين، و«أمثالُها» بالرفع على أنه صفة لـ«عشر».

وقرأ الباقون: ﴿عَشْرُ﴾ بغير تنوين، و﴿أَمْثَالِهَا﴾ بالخفض على الإضافة، من إضافة الصفة إلى الموصوف.

و«الأمثال» جمع «مثل»: وهو المماثل والمساوي، وجيء له باسم عدد المؤنث: «عشر» اعتبارًا بأن ﴿أَمْثَالِهَا﴾ صفة لموصوف محذوف دل عليه الحسنة، أي: فله عشر حسنات أمثالها، فروعي في اسم العدد معنى مميزه دون لفظه.

والمعنى: من جاء بالحسنة فله ثواب عشر حسنات أمثالها؛ ولهذا قال ﷺ: **«من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوّالٍ؛ فكأنّما صام الدّهر كلّه»**[(٢)].

فرمضان في مقابل عشرة أشهر، وستة أيام في مقابل شهرين؛ فصار اليوم بعشرة أيام فضلًا من الله تعالى.

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من صام ثلاثة أيام من كلّ شهر فقد صام الدّهر كلّه»**، ثم قال: **«صدق الله في كتابه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾»**[(٣)].

وهذا أقل ما يكون من التضعيف، وليس لأكثره حد، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١١٦٤)، وأبو داود في الصوم (٢٤٣٣)، والترمذي في الصوم (٧٥٩)، وابن ماجه (١٧١٦)، من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النسائي في الصيام (٢٤٠٩)، والترمذي في الصوم ما جاء في صوم ثلاثة أيام من كل شهر (٧٦٣)، وابن ماجه في، ما جاء في صيام ثلاثة أيام من كل شهر (١٧٠٨)، وأحمد (٥/ ١٤٥-١٤٦).

وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال ﷺ: «**كلّ عمل ابن آدم يُضاعف له الحسنة عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعفٍ، إلا الصّوم؛ فإنّه لي وأنا أجزي به**»(١).

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ كالشرطية قبلها.

والمعنى: ومن عمل السيئة، فلا يُعاقب إلا مثلها، وهذا من تمام عدل الله تعالى، وأنه لا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ فلا يزاد في عقاب المسيئين، ولا ينقص من ثواب المحسنين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل، قال: «**إنّ الله كتب الحسنات والسّيّئات، ثم بيّن ذلك؛ فمن همّ بحسنةٍ فلم يعملها كتب الله له عنده حسنةً كاملةً، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسناتٍ، إلى سبع مئة ضعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ومن همّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنةً كاملةً، وإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئةً واحدةً**»(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن جاء بالسّيّئة فجزاؤه سيّئةٌ مثلها أو أغفر، ومن تقرّب منّي شبرًا تقرّبت منه ذراعًا، ومن تقرّب منّي ذراعًا تقرّبت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئةً لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرةً**»(٣).

قال ابن كثير- بعد أن ذكر حديث ابن عباس وحديث أبي ذر رضي الله عنهما-: «واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام:

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١١٥١)، والنسائي في الصيام (٢٢١٥)، والترمذي في الصوم (٧٦٤)، وابن ماجه (١٦٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، من هم بحسنة أو بسيئة (٦٤٩١)، ومسلم في الإيمان، إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٣١).

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٨٧)، وابن ماجه في الأدب، فضل العمل (٣٨٢١).

تارة يتركها لله؛ فهذا تكتب له حسنة على كفِّه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونية؛ ولهذ جاء أنه يُكتب له حسنة، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح: «**فإنما تركها من جرائي**»[١]، أي: من أجلي.

وتارة يتركها نسيانًا وذهولًا عنها؛ فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينو خيرًا، ولا فَعَل شرًّا.

وتارة يتركها عجزًا عنها وكسلًا، بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يُقرِّب منها؛ فهذا ينزل منزلة فاعلها؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النّار**»، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنّه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[٢]».

الفوائد والأحكام:

١- تهديد المكذبين بآيات الله، الصادفين عنها بقرب العذاب، والإنكار عليهم ما هم فيه من الاستمرار على التكذيب، والكفر، والصد عن دين الله، وأنهم ما ينتظرون بما هم عليه إلا إتيان الملائكة بالموت، أو إتيان الله لفصل القضاء، أو إتيان بعض آياته التي لا ينفع الإيمان بعدها ولا العمل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الآية.

٢- إثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، والمراد بهم الموكلون بقبض الأرواح.

٣- أن الموت حق لا بد منه؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أي: لقبض أرواحهم، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وفي الحديث أن جبريل قال للنبي ﷺ: «**عش ما شئت فإنّك ميّتٌ، وأحبب من شئت فإنّك**

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ (٣١)، ومسلم في الفتن، إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (٢٨٨٨)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٦٨)، والنسائي في تحريم الدم، (٢١٢٠)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه. وانظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧٤).

مفارقه»[١]، وكفى بالموت واعظًا.

٤- إثبات إتيان الله عز وجل يوم القيامة؛ لفصل القضاء والحكم بين الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾، وفي هذا إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل؛ كالنزول، والضحك، والرضا، والغضب، ونحو ذلك.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه، وتكريمه بإضافة ضميره ﷺ إليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٦- التحذير من قرب القيامة، وظهور علاماتها وأشراطها؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾.

٧- أنه بظهور بعض علامات الساعة وأشراطها بطلوع الشمس من مغربها، لا ينفع كافرًا إيمانه بعد ذلك، ولا ينفع مؤمنًا عمل صالح بعد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

٨- أن كلًّا منتظر لعاقبة ونهاية أمره؛ فالمكذبون بآيات الله، الصادُّون عنها ينتظرون حلول نقمة الله والخسران والعذاب الأليم، والمؤمنون ينتظرون ما وعدوا به من الفوز والنصر والنعيم المقيم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

٩- تأكيد براءته ﷺ من الذين فرقوا دينهم وفارقوه وكانوا شيعًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

١٠- التحذير الشديد من التفرق في الدين شيعًا وأحزابًا وجماعات؛ لأنه معول هدم في الأمة، بل سبب لكل بلية وفتنة، وجالب لكل رزية ومحنة، وما وصل المسلمون إلى ما هم عليه اليوم من الضعف والهوان إلا بسبب ذلك.

١١- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن فرقوا دينهم وكانوا شيعًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، فهو عز وجل متوليهم، وإليه إيابهم وعليه حسابهم.

١٢- أن من أعظم الواجبات على المسلمين الاجتماع على دين الله وحكمه وأمره،

---

(١) سبق تخريجه.

وصيانة وحدة الأمة من أن تتفرق أيدي سبا، فتكون لقمة سائغة لأعدائها، والله غالب على أمره.

١٣- عظيم فضل الله عز وجل في مجازاته المحسنين الحسنة بعشر أمثالها؛ لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وهذا أقل حد للتضعيف، فقد يجازي عز وجل الحسنة بسبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

١٤- كمال عدل الله عز وجل في مجازاة المسيئين السيئة بمثلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾، وفي الآية: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص: ٨٤].

١٥- أنه لا أحد يظلم من الخلق في نقص من حسناته، أو زيادة في سيئاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعلن ويقول شاكرًا لما أنعم الله به عليه، ومعتزًّا بما هداه الله تعالى إليه: ﴿إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ الآية.

وافتتح الخطاب بحرف التوكيد؛ لأن الخطاب للمشركين المكذبين، أي: أرشدني ربي ووفقني ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، أي: إلى طريق عدل لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهو دين الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، ﴿دِينٗا﴾ منصوب على البدل من محل «صراط»؛ لأن محله النصب، كما قال تعالى: ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ [النساء: ١٧٥].

﴿قِيَمٗا﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم وخلف: ﴿قِيَمٗا﴾ بكسر القاف وفتح الياء مخففة، وقرأ الباقون بفتح القاف وكسر الياء مشددة: «قَيِّمًا».

و﴿قِيَمٗا﴾ صفة لـ«دينا»، أي: دينًا قائمًا ثابتًا مستقيمًا، لا يتبدل، ولا يتغير، ولا ينسخ.

﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، «ملة» بدل من «دينًا»، أي: دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٢].

﴿حَنِيفٗا﴾ حال من إبراهيم، أي: مائلًا عن الشرك، مستقيمًا على التوحيد تمامًا؛ ولهذا قال:

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، الصفات السلبية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ لإثبات كمال توحيده وإخلاصه، كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وفي هذا ثناء على إبراهيم عليه السلام، وامتداح لما كان عليه من إخلاص التوحيد، والبراءة من الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «**الحنيفيّة السّمحة**»[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه لأنظر إلى زفن الحبشة[(٢)]، قالت: حتى كنت التي مللت، فانصرفت عنه، قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذٍ: «**لتعلم يهود أنّ في ديننا فسحةً، إنّي أُرسلت بحنيفيّةٍ سمحةٍ**»[(٣)].

قال ابن كثير: «وليس يلزم من كونه أُمِر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه عليه السلام قام بها قيامًا عظيمًا، وأُكملت له إكمالًا تامًّا، لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل عليه السلام»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٣).

(٢) زفن الحبشة: لعبهم.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١١٦).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧٦).

لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعلن الشكر والامتنان لربه أن هداه إلى صراط مستقيم ودين قويم، ملة إبراهيم عليه السلام، وما كان من المشركين، ثم أمره في هذه الآية وما بعدها بالإخبار بالتزامه هذا الصراط، ومخالفة المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون على غير اسمه، والإنكار عليهم، وأن صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله وحده لا شريك له؛ كما أمره الله تعالى، وأنه أول المسلمين.

ففي الآية الأولى شكر الله على هدايته له صراطه المستقيم، وفي الثانية شكر الله على إلهامه الإخلاص والتزام هذا الطريق.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾، أي: قل- يا محمد- للمشركين الذي يعبدون غير الله، ويذبحون لغيره، وقل للأمة كلها: ﴿إِنَّ صَلَاتِى﴾ كلها؛ فرضها ونفلها، وخصَّ الصلاة بالذكر من بين العبادات وبدأ بها؛ لأنها أعظم العبادات البدنية، فبها تمام الذل والخضوع لله تعالى، وفيها الدعاء وأعظم الذكر، القرآن الكريم. وافتتحت الجملة بحرف التوكيد؛ للاهتمام بالخبر وتحقيقه.

﴿وَنُسُكِى﴾، أي: وذبحي، أو: وذبحي وحجي وعمرتي، ويُطلق «النسك»: على ما هو أعم من ذلك، وهي العبادة.

﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ فله محياي وعملي في حياتي، وله مماتي، أي: ما أموت عليه، وما يقدره عليَّ عند مماتي وبعده؛ فله أسلمت نفسي، ووجهت وجهي، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠]؛ فحياته ﷺ ومماته كل ذلك لله تعالى وفي سبيله.

ولهذا كانت حياته ﷺ كلها دعوة، وجهادًا، وتضحية، وتعليمًا للأمة، وعبادة لربه، ومناجاة له، وقيامًا بين يديه؛ حتى تفطرت قدماه صلوات الله وسلامه عليه، إلى أن لقي ربه ولحق بالرفيق الأعلى.

وهكذا ينبغي أن تكون حياة كل مؤمن؛ لأن هذه الحياة دار عبور وممر، وكل منا فيها على سفر.

﴿لِلَّهِ﴾، أي: كل ذلك خالصًا لله تعالى وحده، فله صلاتي، وله نسكي، أي: له ذبحي، أي: باسمه وله أذبح، وله حجي وعمرتي وعبادتي، وله محياي ومماتي.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ صفة لقوله: ﴿لِلَّهِ﴾، فيها بيان العلة في كون العبادة كلها له وحده، أي: لأنه رب العالمين، خالقهم، ومالكهم، والمتصرف فيهم؛ له كمال الربوبية عليهم، مما يوجب إفراده وحده بالعبادة دون سواه.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾، أي: لا شريك له في ألوهيته؛ كما أنه لا شريك له في ربوبيته.

في هذا زيادة تأكيد لما قبله، وتعريض بالمشركين الذين يقرون لله بالربوبية، لكنهم يشركون معه في الألوهية؛ فيسجدون للأصنام، ويذبحون لها، ويستغيثون بها، إلى غير ذلك.

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ الإشارة تعود إلى المذكور من قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾.

أي: وبذلك أمرني ربي، أي: فكما هداني ربي إلى صراط مستقيم أمرني بما هو شكر على تلك الهداية؛ كقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: ١١-١٢].

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا كبَّر استفتح، ثم قال: «**وجهت وجهي للّذي فطر السّموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين،** ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾»(١).

وعن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: ضحَّى رسول الله ﷺ في العيد كبشين، وقال حين وجههما: «**وجهت وجهي للّذي فطر السّموات والأرض حنيفًا، وما أنا من المشركين،** ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾» إلى

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢١)، وأحمد (١/ ٩٤).

آخر الآيتين[(١)].

والمعنى: وأنا أول المسلمين مطلقًا مكانة في الإسلام، وأنا أول المسلمين من هذه الأمة زمنًا، وذلك لأن دين الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام هو الإسلام.

وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولهذا قال نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

وقال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ [يونس: ٨٤-٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١].

فهو ﷺ أول المسلمين من هذه الأمة، أي: أسبقهم زمانًا، وهو أول المسلمين كلهم وأعلاهم منزلة في إسلامه؛ كما قال ﷺ: «**نحن الآخِرون السّابقون يوم القيامة بيد أنهم**

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٣٤).

أوتوا الكتاب قبلنا»[1].

وفي هذا تيئيس للمشركين من الطمع في التنازل لهم في دينهم، أو الرجوع عن دينه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ كرر «قل» ثلاث مرات؛ تنويهًا بالمقول.

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، أي: أغير الله من المخلوقات.

﴿أَبْغِى رَبًّا﴾، أي: أطلب ربًّا أعبده؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

أي: قل- يا محمد- لهؤلاء المشركين، منكرًا عليهم ما هم عليه من الشرك بالله، واتخاذ أرباب من دون الله: أغير الله أطلب ربًّا. وقدم المفعول: «أغير الله» على الفعل؛ لأن محل الإنكار أن يكون غير الله يبتغى له ربًّا؛ لأن المشركين دعوه إلى أن يعبد آلهتهم، ويتخذها أربابًا من دون الله.

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، وفيها تعليل للإنكار، أي: والحال أنه رب كل شيء، كما تعترفون بذلك، أي: خالق كل شيء ومالكه ومدبره، أي: وهو ربي وربكم ورب معبوداتكم، المستحق للعبادة وحده دون سواه.

والمعنى: لا أطلب سوى الله ربًّا، بل هو وحده ربي، أعبده وحده؛ وأتوكل عليه وحده، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩]، وكما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

قال ابن القيم: «فكيف أطلب ربًّا غيره وهو رب كل شيء؟! وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]؛ يعني: معبودًا وناصرًا ومعينًا

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وملجًا، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]؛ أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه، وهذا كتابه سيد الحكام؛ فكيف نتحاكم إلى غير كتابه، وقد أنزل مفصلًا مبينًا كافيًا شافيًا؟! وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا[1]»[2].

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

هذا من القول الذي أمر ﷺ أن يقوله؛ فبعد أن أعلن امتنانه بهداية الله له، وأعلن شكره له بالإخلاص له في عبادته، وتوكله، والبراءة من المشركين وما هم عليه من الشرك؛ أتبع ذلك بالترغيب والترهيب، بأن كلًّا سيجازى بعمله، وأنه لن يضره ما هم عليه من الشرك والعناد.

قوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾، أي: ولا تعمل نفس شرًّا إلا عليها، ولا خيرًا إلا لها، أي: تجازى بما عملت، قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَلَا تَزِرُ﴾، أي: ولا تحمل، والوزر: الحمل، وهو ما يحمله الإنسان على ظهره، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧].

---

(١) كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربًّا وبمحمد رسولًا وبالإسلام دينًا غفر له ذنبه». أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨٦)، وأبو داود في الصلاة (٥٢٥)، والنسائي في الأذان (٦٧٩)، والترمذي في الصلاة (٢١٠)، وابن ماجه في الأذان (٧٢١).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٨٦).

والوزر: الإثم، ومنه قوله: ﴿وَازِرَةٌ﴾، أي: نفس آثمة، بدليل قوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾.

﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي: إثم نفس أخرى وخطيئتها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

والمعنى: كل سيجازى بعمله، له ثواب ما عمل من خير، وعليه عقاب ما عمل من شر، ولا أحد يحمل إثم غيره، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾، أي: مصيركم ومنقلبكم يوم القيامة.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، أي: فيخبركم بالذي كنتم فيه تختلفون من أمر الدين وغيره، ويحاسبكم ويجازيكم على ذلك، وعلى أعمالكم خيرها وشرها، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٥-٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: وهو الله عز وجل ﴿ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، الخطاب عام، أي: جعلكم كونًا- أيها الناس- خلائف الأرض، و«خلائف» جمع «خليفة»: يُقال في جمعه: «خلفاء» و«خلائف»، أي: تخلفون في الأرض من سبقكم، ويخلفكم فيها من بعدكم، أي: جعل بعضكم يخلف بعضًا في الأرض؛ لتعمروها جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، وخلفًا بعد سلف، كما قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]،

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ في الخَلق والخُلُق، والقوة والعافية، والرزق، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١].

ففاوت عز وجل بينهم في الصفات والأخلاق، والأحوال والأرزاق، وله الحكمة في ذلك.

جَلَّ مَنْ قَسَّمَ الحَظُوظَ فَهَذا ... يَتغَنَّى وَذاكَ يَبْكِي الدِّيَارَا[1]

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يبلوكم فيما آتاكم، أي: يختبركم ويمتحنكم في الذي أعطاكم من الدرجات المتفاوتة؛ ليظهر الشاكر منكم من غيره على السراء، والصابر منكم من غيره على الضراء.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إنّ الدّنيا حلوةٌ خضرةٌ، وإنّ الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون؛ فاتّقوا الدّنيا، واتّقوا النّساء؛ فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النّساء**»[2].

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾، أي: إن ربك- يا محمد- سريع العقاب لمن عصاه، وكذب بآياته، وخالف رسله؛ لأنه إذا أراد شيئًا إنما يقول له: كن؛ فيكون، فلا يحتاج

---

(١) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» ص٢٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٢)، والترمذي في الفتن (٢١٩١).

لطول وقت أو استعداد، ولأن عقابه لمن عصاه آت، وكل آت قريب.

ولأن العاصي يجد شيئًا من عقاب معصيته بعدها مباشرة في نفسه وأحواله، ولأن عمر الإنسان في هذه الحياة قصير، بل والدنيا كلها متاع قليل بالنسبة للآخرة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ لمن آمن به، وأطاعه، وصدق بآياته، واتبع رسله؛ يستر ذنوبه، ويتجاوز عنه، ويشمله برحمته الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي.

وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ جمع بين الترهيب والترغيب، والوعيد والوعد؛ كما هي طريقة القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحدٌ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرّحمة ما قنط من جنّته أحدٌ**»(١).

وقدم الترهيب والوعيد- والله أعلم- لأن السياق مع المشركين الداعين إلى اتخاذ أرباب وآلهة من دون الله.

واقتصر على مؤكِّد واحد لقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ وهو «إن»، بينما أكد قوله: ﴿لَغَفُورٌ﴾ بثلاثة مؤكِّدات «إن» ولام الابتداء، والمؤكد اللفظي ﴿رَّحِيمٌۢ﴾ فهو مؤكد لمعنى «غفور»؛ في إشارة إلى أن رحمته تسبق وتغلب غضبه، وبشارة للمؤمنين، وتأكيد لتحقق مغفرته ورحمته لهم.

الفوائد والأحكام:

١- أن النبي ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾، وكرر الأمر بالقول للاهتمام.

٢- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بالإعلان بهداية الله تعالى له صراطه المستقيم،

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة، سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٥)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٢)، وأحمد (٢/ ٤٨٤).

والتزامه هذا الصراط في جميع عباداته، وفي حياته ومماته، وبراءته من الشرك وأهله؛ إخلاصًا لله تعالى، وشكرًا له على هدايته له، وإغاظة وإرغامًا لأنوف المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ الآية.

٣- أن الهداية والتوفيق بيد الله عز وجل.

٤- تشريف النبي ﷺ، وتكريمه بإضافة ضميره إلى اسم الرب عز وجل، وربوبيته الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّيٓ﴾ وفي هذا إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه.

٥- تعظيم صراط الله، ودينه دين الإسلام، وملة إبراهيم عليه السلام؛ لاستقامته وكماله وثباته؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وفي هذا تعريض بذم ما عداه من الملل والنحل؛ لاعوجاجها ونقصها، وعدم ثباتها.

٦- امتداح ملة إبراهيم عليه السلام، والثناء عليه بإخلاصه التوحيد لله تعالى، والبراءة من المشركين وما هم عليه من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٧- إخلاص نبينا ﷺ صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله تعالى لا شريك له؛ كما أمره الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾.

٨- أنه ﷺ أول المسلمين مطلقًا مكانة في الإسلام، وأول المسلمين من هذه الأمة زمنًا؛ لقوله ﷺ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

٩- وجوب إخلاص العبادة كلها لله تعالى؛ الصلاة، والحج، والعمرة، والذبح، وغير ذلك، وإخلاص المحيا والممات له لا شريك له، والاستسلام له بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك؛ اقتداء به ﷺ.

١٠- عظم مكانة الصلاة في الإسلام؛ لهذا نص عليها وقُدِّمت على غيرها، ولا غرو في هذا؛ فهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم العبادات البدنية، وعمود الإسلام التي يقوم عليها ويدور عليها رحاه.

١١- أهمية إخلاص النسك لله تعالى من ذبح وحج وعمرة؛ لما في ذلك من تعظيم الله تعالى، والبذل في سبيله.

١٢- ينبغي للمسلم أن يجعل حياته كلها لله تعالى حتى يلقى الله تعالى، يحيا على الإسلام، ويموت على الإيمان، صلاته وزكاته وصيامه وجميع عباداته لله، وأكله وشربه ونومه ونزهته وراحته كلها لله وفي سبيله، حتى جماعه لزوجته[1]؛ ليؤجر على ذلك كله، وليحذر كل الحذر من الغفلة؛ فإن الموفقين عاداتهم عبادات، والمخذولين عباداتهم عادات.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للعالمين؛ لقوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

١٤- الإنكار على المشركين دعوتهم له ﷺ أن يتخذ أصنامًا أربابًا من دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾.

١٥- ربوبية الله تعالى لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ فهو ربه ﷺ، ورب المشركين، ورب معبوداتهم، ورب كل شيء.

١٦- أن الذي ينبغي أن يتخذ ربًّا ويعبد وحده هو الله عز وجل رب كل شيء، أي: خالق كل شيء ومالكه ومدبره.

١٧- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، وأن الإلهية لا يستحقها إلا الله المنفرد بالربوبية.

١٨- أن على كل نفس ما كسبت وعملت من شر، ولها ما كسبت وعملت من خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾.

١٩- أنه لا يحمل أحد وزر وإثم غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

٢٠- كمال عدل الله عز وجل؛ حيث يُجازي كلًّا بما عمل، ولا يُحمِّل أحدًا إثم غيره.

٢١- إثبات البعث والمعاد ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، وإخباره لهم بما كانوا فيه يختلفون في الدنيا، ومحاسبته، ومجازاته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ

---

(١) كما جاء في الحديث: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «نعم، أرأيتم لو وضعها في حرام؛ أيكون عليه وزر؟» قالوا: نعم، قال: «كذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر». أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

٢٢- منة الله على العباد، وحكمته في جعلهم خلائف الأرض يعمرونها، ويخلف بعضهم بعضًا فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾.

٢٣- حكمة الله تعالى في رفع بعض الناس فوق بعض درجات، والمفاوتة بينهم في الخَلق والخُلُق والرزق، وكثير من الأحوال؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾.

٢٤- ابتلاء العباد، وامتحانهم في رفع بعضهم فوق بعض درجات؛ ليظهر الشاكر للنعمة من غيره، والصابر على الضراء من غيره؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾.

٢٥- سرعة عقاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾، وفي هذا تحذير من عقابه.

٢٦- إثبات صفتي المغفرة والرحمة لله تعالى وسعتهما، وتأكيد مغفرته لعباده المؤمنين ورحمته بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الأنعام.. ٥
المقدمة.. ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
ج- موضوعاتها: ٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ...﴾ الآيات [١-٣] ٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾...﴾ الآيات [٤-١١] ٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ...﴾ الآيات [١٢-٢١] ٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾...﴾ الآيات [٢٢-٢٦] ٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا...﴾ الآيات [٢٧-٣٢] ٧٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ...﴾ الآيات [٣٣-٣٦] ٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ...﴾ الآيات [٣٧-٤١] ١٠٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ...﴾ الآيات [٤٢-٤٥] ١١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ...﴾ الآيات [٤٦-٤٩] ١٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ...﴾ الآيات [٥٠-٥٥] ١٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات [٥٦-٥٩] ١٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ...﴾ الآيات

[٦٠-٦٢] ١٥٨

تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ...﴾ الآيات [٦٣-٦٥].. ١٦٧

تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾...﴾ الآيات [٦٦-٧٠] ١٧٤

تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا...﴾ الآيات [٧١-٧٣] ١٨٥

تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ...﴾ الآيات [٧٤-٧٩] ١٩٥

تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ...﴾ الآيتين [٨٠، ٨١] ٢٠٦

تفسير قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ...﴾ الآيات [٨٣-٩٠] ٢١٥

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ...﴾ الآيتين [٩١، ٩٢] ٢٣١

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ...﴾ الآيات [٩٣-٩٦] ٢٤٢

تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ...﴾ الآيات [٩٧-٩٩] ٢٥٩

تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ...﴾ الآيات [١٠٠-١٠٣] ٢٧١

تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ...﴾ الآيات [١٠٤-١٠٧] ٢٨١

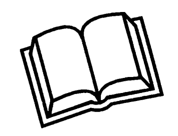
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ...﴾ الآية [١٠٨] ٢٨٨

تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ...﴾ الآيات [١٠٩-١١١] ٢٩٣

تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ...﴾ الآيات

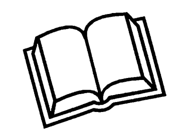
[١١٢-١١٧] ٣٠٢
تفسير قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾...﴾ الآيات [١١٨-١٢٢] ٣١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا...﴾ الآيات [١٢٣-١٢٧] ٣٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ...﴾ الآيات [١٢٨-١٣٥] ٣٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا...﴾ الآيات [١٣٦-١٤٠] ٣٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ...﴾ الآيات [١٤١-١٤٤] ٣٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ...﴾ الآيات [١٤٥-١٤٧] ٣٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ...﴾ الآيات [١٤٨-١٥٠] ٤٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ الآيات [١٥١-١٥٣] ٤١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ...﴾ الآيات [١٥٤-١٥٧] ٤٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ...﴾ الآيات [١٥٨-١٦٠] ٤٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...﴾ الآيات [١٦١-١٦٥] ٤٥٧
فهرس الموضوعات ٤٧١

* * *



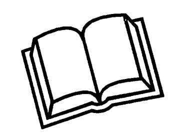
مفكرة





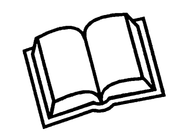
مفكرة



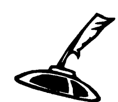


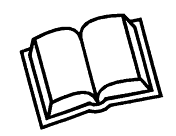
مفكرة





مفكرة

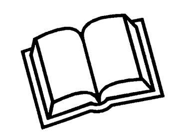




مفكرة



✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958